جامعـــــــة دمشـــــق
كليـــــة الآداب والعلـــــوم الإنســــــــــانية
قســــــم التـــــاريخ



السلطان سليمان القانوني
(حياته، حروبه، إدارته)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ الدولة العثمانية

إشــراف
أ. د. كاميليا أبو جبل

إعداد
نورة عبد الرزاق العلي

٢٠١٠-٢٠١١ م

الـفـهـرس

المقدمة:

أجمعت معظم الدراسات التاريخية، أن قبيلة بني عثمان تعود بأصولها إلى قبيلة قايي(الحجر)، وأن القبيلة، لما دخلت الأناضول لم تكن تزيد على أربعمئة خيمة. ورغم ذلك تمكنت خلال فترة زمنية قصيرة، من البروز كأكبر قوة ضاربة في الأناضول، علماً أن السلطان السلجوقي علاء الدين أقطعها سكودا في الشمال الغربي من الأناضول، كمكافأة لها على موقفها معه ضد أعدائه المغول.

إن موت أرطغرل بك، زعيم القبيلة العثمانية سنة ١٢٨١م، هيأ لخليفته عثمان بك، قيادة القبيلة من نصر إلى نصر. وبموت السلطان علاء الدين السلجوقي سنة ١٢٩٩م، سطع نجم القبيلة التي عرفت فيما بعد، بالقبيلة العثمانية نسبة إلى عثمان بك/١٢٨١-١٣٢٤م/ ثم الدولة العثمانية ثم الإمبراطورية العثمانية*. ورافقها هذا اللقب الشرفي حتى انهيارها سنة ١٩٢٣م على يد مصطفى كمال أتاتورك.

إن سيطرة أورخان بن عثمان /١٣٢٤-١٣٥٩م/ على بورصة سنة ١٣٢٤م، وجعلها عاصمة لدولته المنشودة، هيّأ لخلفائه استكمال هذه الدولة شيئاً فشيئاً. وتجسد هذا في عهد السلطان مراد الأول/١٣٥٩-١٣٨٩م/، إذ عمل على تطبيق نظام الدفشرمة* الذي أسهم في إنشاء نظام الإنكشارية، فضلاً عن انتصاره على التحالف الأوروبي في معركة /أوصو/ سنة ١٣٨٩م، والتي قضى فيها نحبه غيلة، من قبل جندي صربي في أثناء تفقده القتلى والجرحى، وقد خلفه ابنه بايزيد الأول يلدرم (الصاعقة) الذي واظب على مواجهة أعدائه. ولم يتمكن يلدرم من

---

* لقد جهد العثمانيون منذ المراحل الأولى، على اعتماد الحروب كأفضل حل لمواجهة الخصم. ولهذا كانوا يعقدون اجتماعاتهم على ظهور خيولهم، فضلاً عن رفضهم المطلق لأنصاف الحلول. غيرأن سياستهم اتسمت في بعض الأحيان، باللين إذا وجدوا أنه يصب في مصلحتهم؛ ولهذا عمدوا إلى الزواج من خصومهم وتبادل الأراضي، بغية استكمال دولتهم.

* هذا النظام يخول السلطة القائمة جمع الغلمان المسيحيين الذين تتراوح أعمارهم بين ٨-١٤ سنة، ثم أجاز للجنة المكلفة جمع الشبان من ١٤-١٨سنة ومن ١٨-٢٠سنة في حال عدم تأمين الأعداد المطلوبة، شريطة أن يكونوا من ذوي الصحة الجيدة. محمود علي عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، دمشق، دار الرحاب، ط١، ٢٠٠١م، ص٤٦.

متابعة حملاته في أوروبا الشرقية، لأن خطر تيمورلنك بدأ يزحف باتجاه دولته من جهة الشرق. وقد التقى معه في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢م والتي أسفرت عن هزيمة بيازيد الأول (يلدرم)، ثم أسره وموته قهراً سنة ١٤٠٢م.

إن موت بايزيد الأول (يلدرم) أضاع جهود آبائه وأجداده، لأن أولاده سارعوا إلى اقتسام مملكته، كل بحسب ما تمكن من الحصول عليه. وقد استمر نزاع الأخوة حتى سنة ١٤١٣م، حيث تمكن ابنه محمد الأول من محاربة أخوته وإعادة المملكة إلى ما كانت عليها. ولهذا لقبه المؤرخون الأتراك بنوح السفينة ومنقذ الأمة، واستمر يقاتل إخوته وأعداءه حتى سنة١٤٢١م، فخلفه ابنه مراد الثاني/١٤٢١–١٤٥١م/ الذي تمكن من القضاء على أعدائه، الأمرُ الذي زاد من قوة الدولة العثمانية.

إن هذا الانقسام الذي واجهته الدولة العثمانية الناشئة، عقب موت بايزيد الأول يلدرم، أسهم في تجميد حروبها وتوسعاتها. واستمرهذا الأمرحتى سنة١٤٥١م، عندما تولى محمد الفاتح عرش السلطنة، خلفاً لوالده مراد الثاني، حيث ورث محمد الثاني (الفاتح) دولة قوية متماسكة، وهذا ما دفعه إلى مهاجمة عاصمة البيزنطيين (القسطنطينية). وهو حلم كان يراوده منذ طفولته، حيث عمل على تحقيق هذا الحلم سنة ١٤٥٣م، عندما تمكن من دك عرش البيزنطيين في خليج البوسفور ومضيق الدردنيل، وحول دولته إلى إمبراطورية. وقد استمر في توسيع حدود دولته، إذ بلغت مساحتها ٢٢١٤٠٠٠كم٢، ووصلت قواته إلى جزر بحرسفيد(اليونان).

وإثر وفاته سنة١٤٨١م، خلفه ابنه بيازيد الثاني الذي لم يكن نشيطاً. وفضلاً عن ذلك فقد كان يكره الحروب ويميل إلى السلام، ولكنه اهتم ببناء أسطول بحري ضخم. وفي سنة١٥١٢م توفي بيازيد الثاني فخلفه ابنه سليم الأول /١٥١٢–١٥٢٠م/، وكان سليمٌ محباً للحروب وشجاعاً، فاصطدم في سنة١٥١٤م مع الصفويين في معركة جالديران، ثم توجه إلى محاربة المماليك وانتصر عليهم في معركتي مرج دابق١٥١٦م والريدانية ١٥١٧م. وبعد أن حصل على لقب حامٍ للحرمين الشريفين، عاد إلى بلاده تاركاً لابنه سليمان الأول(القانوني) دولة قوية الأركان، ذات هيبة عالمية، بلغت مساحتها ٦٥٥٧٠٠٠كم٢.

وبفضل شجاعة هؤلاء السلاطين، تم بناء الدولة العثمانية؛ حيث أزالوا من الخارطة الدولية البيزنطيين والمماليك، لكنهم فشلوا في إزالة الدولة الصفوية رغم انتصارهم عليها. وبقى الصّفَيون عقبة كداء في وجه التوسع العثماني في العراق والخليج وشبه الجزيرة العربية، حتى المراحل الأخيرة من حياة إمبراطوريتهم.

تتناول هذه الدراسة جزءاً هاماً من تاريخ الدولة العثمانية. والواقع أن أحداث هذا التاريخ العثماني معقدة ومتشابكة وذات تكوينات سياسية متعددة. إنه التاريخ الذي احتوى أحداثاً متشابكة على مدى ستة قرون بين التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث، والذي شكل دولة مترامية الأطراف، تفاعلت عليها عناصر متعددة، وشهدت بنى اجتماعية وقومية متباينة.

أما عن سبب اختيار فترة /السلطان سليمان القانوني: حياته، حروبه وإدارته/ موضوعاً لهذه الدراسة فيعود إلى الصفات الإدارية والقانونية والعسكرية التي امتاز بها ذلك السلطان، والتي شكلت بحد ذاتها نهاية قوة وبداية تدرج إلى ضعف استمر لقرنين من الزمن، بالإضافة إلى حياته الشخصية التي عدت مادة دسمة ومثيرة، ومليئة بالأحداث، تجذب اهتمام أي باحث في التاريخ العثماني.

لقد كانت فترة السلطان سليمان من أهم المراحل في حياة هذه الإمبراطورية. وإذا كان السلطان سليم الأول/١٥١٢-١٥٢٠م/ قد حقق لها مكاسب مهمة، فإن السلطان سليمان القانوني جسد هذه المكاسب حقيقةً واقعة، وأرغم أعداءه في الداخل والخارج على الاعتراف بقوة هذه الإمبراطورية. فلقد طبق القوانين وحدد معالم الإمبراطورية، مما أرغم ملوك أوروبا وأمراءها على التوافد إلى عاصمته، لتقبيل العتبة الهمايونية وتنفيذ رغباته، صاغرين.

ومن الأسباب الأخرى التي دفعتني إلى اختيار السلطان سليمان القانوني موضوعاً، لبحثي، عدم وجود دراسة علمية متكاملة توضح حياته وسيرته ونشاطاته الإدارية والعسكرية. ولاشك أن معظم المصادر والمراجع العثمانية تناولت السلطان سليمان كدراسة جانبية، وبصورة غير متكاملة، ولا توجد دراسة عربية تناولت بشكل علمي ومتكامل، مرحلة السلطان سليمان القانوني. والجدير بالذكر أن دراسة شخصية كسليمان القانوني تخلو من الوثائق، فكيف يمكن أن تكون وثائق، وهو مصدرالأحداث. وكل ما أكدته المصادر العثمانية القديمة والتركية

الحديثة هو إصداره لفراماناته التي بلغت أكثر من ٢٠٠ فرمان. ولدى قراءة هذه الفرمانات نجد أنها تمحورت بمجملها حول تعيين الولاة وتحذيرهم من الاعتداء على الرعية وعدم ممارسة الظلم. ولهذا كانت الفائدة منها محدودة، لأن كل فرماناته شرحتها المصادر العثمانية، كما نرى عند أمثال جودت باشا في تاريخه، وقد تضمن كتابه ١١ جزءاً، وتاريخ عطا الله ٦ أجزاء، وتاريخ بجوى ٦ أجزاء، وتاريخ صولاق باشا زاده ٦ أجزاء، وتاريخ رضا نور ٨ أجزاء. وهذه المصادر بحد ذاتها، أسرفت في ذكر مناقب السلطان وشجاعته وحكمته بإصدار قانون نامه ومراقبته لولاته في تطبيق هذه القوانين التي أصدرها.

وبالطبع فقد أخذت من تلك المصادر، ولكن بدقة، بعدما أجريت مقارنة فيما بينها، بغية تقديم بحث علمي متكامل عن هذا السلطان.

لاشك أنّ هذه المصادر العثمانية حفلت بكثير من المعلومات؛ غير أن صعوبات عدة واجهتني، من أهمها صعوبة الحصول عليها وضعف قراءتي للغة العثمانية. ولا ننفي أن بعض أساتذتنا الكرام قاموا بتقديم ملخصات عن بعضها، مؤكدين أن ما دونه الكتّاب العرب يمكن الاعتماد، عليه ولاسيما المترجم منها، من أمثال كتاب أكمل الدين إحسان أوغلو (الدولة العثمانية تاريخ وحضارة بجزأيه)، وكتاب يلماز أوزتونا (تاريخ الدولة العثمانية بجزأيه)، وكتاب محمد فريد بك المحامي (تاريخ الدولة العلية العثمانية)، و(تاريخ الدولة العثمانية العلية) لإبراهيم بك حليم، وكتاب شكيب أرسلان (تاريخ الدولة العثمانية)، وكتاب آصف بك يوسف (سلاطين آل عثمان) وغيرها من المؤلفات العربية. وقد عدنا إلى مدونات كتّاب تركيا الحديثة ورؤيتهم للدولة العثمانية. ولا ننفي أن معظم الكتابات أشادت بشكل مطلق بحكمة سليمان وإدارته وقوانينه. غير أن بعض الدراسات حمّلته مسؤولية تدهور الدولة العثمانية. وقد آثرت الابتعاد عن الآراء المؤيدة والمعادية، معتمدة الدقة في بحث فترة سليمان القانوني، وأخذت بما يتطابق والواقع الذي كانت الدولة العثمانية تواجهه في فترة القرن السادس عشر، كما ابتعدت عن تجميل عصره، بمصطلحات القرن الحادي والعشرين.

لقد قسمت فترة السلطان سليمان القانوني التي امتدت /٤٦/ سنة إلى تمهيد ومقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

تطرق الفصل الأول إلى دراسة أوضاع الدولة العثمانية وحالة أوروبا قبيل اعتلاء السلطان سليمان عرش الإمبراطورية العثمانية. وبعد ذلك انتقلت إلى دراسة شخصية السلطان سليمان القانوني وزوجاته وأولاده وقوانينه وموقفه حيال العلماء والمدرسين موضحة دوره الأساسي في تشجيع العلم ومساندة العلماء.

أما الفصل الثاني فعالج الإدارة العثمانية في عهده، وهل أضاف السلطان سليمان قوانين وتعليمات وسعت من صلاحياته وصلاحيات حاشيته؟، وما المهام التي كلف بها الصدر الأعظم والجهاز الإداري الذي يساعده في إدارة دولة بل إمبراطورية تتوسع شيئاً فشيئاً؟، إذ غدت مجموع ولاياتها شرقاً ٣٤ ولاية ومجموع ولاياتها غرباً ٢٤ ولاية، وحكمت ثلاث قارات: أوروبا وآسيا وأفريقيا، وهل أدت القوى العسكرية برئاسة الإنكشارية، عماد الدولة آنذاك، دوراً إيجابياً؟ ثم ما هو الدور الذي أداه الأسطول وكيف تصدى للبرتغاليين الذين بدؤوا يتطلعون للسيطرة على الخليج والجزيرة العربية ؟

أما الفصل الثالث فتناول حروب السلطان سليمان القانوني، علماً أن أوروبا بدأت تتخلص شيئاً فشيئاً من مشكلاتها. ولهذا كان عليه التخلص من الفرسان(فرسان القديس يوحنا) الذين سيطروا على رودس، وسَعَوا إلى مضايقة سفن الدولة العثمانية. وفضلاً عن ذلك فإن المجر والنمسا وإيران الدول كانت تتحدى الدولة العثمانية، لذلك كان على السلطان سليمان القانوني أن يتصدى لأطماعهم وتطلعاتهم الرامية إلى استعادة بعض الأراضي التي حصل عليها العثمانيون. غيرأن تحركات إدارة بلاد فارس أقلقت حكام الدولة العثمانية. وإذا كان السلطان سليم الأول قد ألحق بهم هزيمة كبرى، فإن الأمر يقتضي من السلطان سليمان، شن حملات عدة لإسكات حكام فارس سياسياً واقتصادياً ودينياً، ومنعهم من الاقتراب من أملاك الدولة العثمانية.

في حين أوضح الفصل الرابع، ومن خلال المصادر، مدى قدرة السلطان سليمان على توسيع أملاك؛ دولته إذ بلغت مساحة أراضيها في القارات الثلاث ١٤٩٨٣٠٠٠كم٢، ونجاحه في القضاء على حركات العصيان التي قامت في بلاد الشام ومصر، وكيف أنه مدَّ الريس خيرالدين باربروس بقوات بحرية وبرية لمواجهة الإمبراطور شارلكان الذي شنَّ حملة على تونس سنة ١٥٣٤م، وارتكب مجازر بحق أهلها. ولم يكن بمقدور السلطان سليمان إرسال

قوات كافية لمحاربته، لأن قواته آنذاك كانت في السنة ذاتها، مشغولة بتحرر العراق من الصفويين. وعندما عمد شارلكان إلى مهاجمة الجزائر سنة ١٥٤٣م، تصدى له السلطان سليمان بقوات برية وبحرية أرغمت شارلكان على العودة إلى بلاده مهزوماً. ولم يكتف السلطان سليمان بملاحقة شارلكان في تونس والجزائر، بل عمد إلى ملاحقة فرسان القديس يوحنا الذين طُردِوا من رودس واستقروا في طرابلس الغرب، فكلف في سنة ١٥٥١م سنان باشا وبيالي باشا بقيادة حملة لطردهم من هذه المدينة.

لقد امتازت فترة السلطان سليمان بالقوة والحكمة، فقاتل أعداءه على مختلف الجبهات، وواظب بشكل مستمرعلى محاربة الفرس. والحق يقال؛ إن قتال العثمانيين مع الفرس يعادل قتالهم مع بقية أعدائهم.

أما في الخاتمة فقد بينت أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، حيث سلطت الضوء على إيجابيات السلطان وسلبياته، ومدى تأثير قراراته وسلوكه على مسار الدولة العثمانية، موضحة من خلالها، الصورة النهائية للسلطان سليمان القانوني، التي خَلُصَ إليها البحث.

وفي الختام، أتوجه بالشكر الجزيل والعرفان لأستاذتي المشرفة الدكتورة كاميليا أبو جبل، على توجيهاتها السديدة ونصائحها المفيدة. فمن خلال تلك النصائح خرج البحث إلى النور، فلها مني فائق الاحترام والتقدير والامتنان.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى الأساتذة في قسمي التاريخ في جامعتي دمشق وحلب، وأشكرهم جميعاً على حسن صنيعهم، لإنهم لم يقصروا في مساعدتي وإبداء النصح والتوجيهات العلمية لي. فلهم مني جزيل الشكر وفائق التقدير والامتنان، كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور محمود علي عامر الذي منحني كثيراً من علمه ومعرفته، من خلال تقديمه لأهم المصادر والمراجع التي أغنت البحث، فله مني جزيل الشكر وفائق الاحترام.

تمهيد تاريخي :

نشأة العثمانيين:

لايزال أصل الأتراك العثمانيين محاطاً بالغموض، وإن كان ظهورهم على المسرح السياسي قد ارتبط بشكل مباشر أو غير مباشر، بتوغل المغول وقائدهم جنكيز خان في القرن الثالث عشرالميلادي، واختراقهم سهوب آسيا الوسطى إلى البلدان المجاورة، حاملين معهم الخراب والدمار أينما حلّوا .

أما ظهورهم بشكل ملموس على الساحة العربية، فكان بعد أن استعان بهم الخليفة العباسي المعتصم، إذ تمكنوا من خلال الخدمات والمناصب التي حَظَوا بها، أن يسيطروا بالتدريج على الخلافة العباسية وعلى مناطق في غربي آسيا، زمن هذا الخليفة [1].

كما قُدِّرَ للأتراك بفضل الهجرات المتتالية، السيطرةُ على أجزاء من آسيا الصغرى التي كانت ساحة للقتال بين السلاجقة والبيزنطيين[2]، إذ كانت الدولة البيزنطية قد بلغت من الضعف درجةً عجزت فيها عن استرجاع ما انتزعه السلاجقة منها، لتنتقل السيطرة على آسيا الصغرى للدولة السلجوقية التي تعرضت بدورها للضياع، وسط الأحداث المتسارعة التي تمثلت بالهجرات الكثيرة التي واجهتها تلك المنطقة، لتصبح بذلك آسيا الصغرى التي كانت تفتقر إلى وجود سلطة مركزية، ثمرة ناضجة لمن يستطيع أن ينالها ويظفر بها [3].

لقد تعددت الروايات حول أصل العثمانيين، وإن كان أغلبها يشير إلى انتسابهم الى قبيلة قايي، إحدى قبائل الغزالتركية التي توجهت غرباً إلى الأناضول، هرباً من تقدم المغول في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي[4]. وكان زعيم هذه القبيلة هو أرطغرل بن سليمان شاه الذي

---

[1] – أحمد جودت باشا ، تاريخ جودت، ١١ج، ١٣٠٨هـ، ،ج١، ص ١١٤.

[2] – أحمد آق كوندز، سعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة، استانبول، مكتبة amro turan، ٢٠٠٨م، ص٤٩.

[3] – جودت، المصدر السابق ،ج١، ص ١١٤.

[4] – المصدر نفسه، ج١، ص١١٥.

قررالتوجه نحو آسيا الصغرى بعد وفاة والده غرقاً/٦٢٩هـ/١٢٣١م/ عند اجتيازه لنهر الفرات. ولمّا دخل الأناضول شاهد جيشين يتقاتلان. وبفطرة البدوي وقف إلى جانب الضعيف ومد له يد المساعدة، وحوله إلى منتصر [١] .

ولقاء المساعدة التي أسداها أرطغرل إلى السلطان علاءالدين السلجوقي[٢]، منحه قطعة أرض في منطقة الثغور المقابلة للدولة البيزنطية، وهي منطقة سكودا. وهذا ما ساعده على الاستقرارمع أفراد قبيلته في تلك المنطقة، دون أن يعلم ما يحمله القدر، وأن قبيلته هذه ستتحول إلى دولة كبيرة، سيكون لها وزنها الكبير ودورها الفعال على الصعيد الدولي.

وبعد وفاة أرطغرل سنة /٦٨٠هـ/١٢٨١م/ تسلم زمام القيادة ابنه عثمان الذي عينه السلطان علاءالدين السلجوقي، في هذا المنصب إكراماً لوالده. وفي عام /٦٩٩هـ/١٢٩٩م/[٣] وقعت أحداث قدّرلها أن تغيرمجرى التاريخ بالنسبة لهذه القبيلة الصغيرة، حيث أغارالتتارعلى آسيا الصغرى، وتمكنوا من القضاء على الدولة السلجوقية[٤]، بعد موت السلطان علاءالدين السلجوقي١٢٩٩م[٥]، كما تحدى التتار قيام الدولة العثمانية التي تمكن عثمان من توطيد أركانها، هذا الحاكم الذي نجح في توطيد أمورحكمه ولقب آنذاك بالغازي عثمان[٦]. وبموت السلطان علاء الدين السلجوقي تمكن عثمان بن أرطغرل من السيطرة على الحكم معلناً بذلك ولادة الدولة العثمانية[٧].

---

١ - أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة ، دار الشروق،دت، ط٢، ص ١٣-١٤.

٢ - ابراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية العلية التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العثمانية، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٨٨م،ص٣١.

٣- عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص٢٣.

٤ - زياد أبو غنيمة، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، عمان، دار الفرقان للنشر، ط٢، ١٩٨٦م، ص١٩.

٥ - يلماز أوزتونا، المدخل إلى التاريخ التركي،٢ج، ت: أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، ط١، ٢٠٠٥م،ج١، ص٣٤٩.

٦ - يلماز أوزتونا ، المدخل إلى التاريخ التركي، ج١، ص٣٤٩.

٧- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق احسان حقي، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٨١م، ص١١٥.

وقد نجح عثمان مؤسس الدولة العثمانية في الاستيلاءعلى كل الأراضي والأملاك في المنطقة ولقب نفسه بادشاه* آل عثمان أي (سلطان آل عثمان) وجعل مقر حكمه مدينة يكي شهر(*١).

إذاً يمكن التأكيد أن عثمان بن أرطغرل هو مؤسس الدولة العثمانية، هذه الدولة التي لم تكن سوى قبيلة صغيرة كتب لها بفضل سلاطينها الأوائل، أن تتحول إلى إمبراطورية كبيرة. وهذا ما أكده المؤرخ أحمد جودت باشا بحديثه عن العثمانيين، إذ قال:

" مع أن الدولة العلية كانت في البداية دولة صغيرة، ولكن لكونها قبيلة قد جمعت في نفسها الصفات العالية للأتراك مع التدين والشجاعة الخاصة بالإسلام، حملت قابلية كونها مظهراً ووسيلة لتوحيد أمة الإسلام. ولم تكن هذه الدولة العلية – كغيرها من الدول الأخرى– قد انبثقت من مجتمع ذي امتيازات لتجد أمامها أمة وبلداً، بل فتحت بلاداً وأراضي جديدة وكونت أمة واحدة من أمم ذات أديان وسلوك وخلق ولغات وثقافات مختلفة، ومجتمعاً مناضلاً هو خلاصة أفضل سلوك وآداب وفضائل الأمم المختلفة، كما كان أجداد هؤلاء من سلالة تركية أصيلة "(٢).

والواقع أن عثمان زعيم هذه القبيلة الصغيرة، ظهر كسياسي محنك، قادرعلى إدارة دولته الصغيرة النامية من خلال إقامة علاقات ودية مع الدول المجاورة، واحترامه للمواثيق والعهود التي قطعها على نفسه، وفي الوقت نفسه كان يستخدم الشدة والقسوة مع أعدائه(٣). وبعد وفاته سنة/٧٢٦هـ/١٣٢٦م/ خلفه على الحكم ابنه أورخان سنة /٧٢٦هـ/١٣٢٦م/، الذي كان والده قد عهد إليه قيادة الجيش سابقاً، وقد نجح في تحقيق انتصارات عدة أثناء تنفيذه

---

* بادشاه، وهو لقب مكون من قسمين باد وتعني التخت أوالعرش وشاه تعني السيد أوالصاحب، وباد شاه تعني السلطان أوالملك أوالحاكم. مصطفى بركات، الألقاب العثمانية من خلال الوثائق والمخطوطات (١٥١٧-١٩٢٤م)، القاهرة، دار الغريب، ٢٠٠٠م، ص١٧.

* يكي شهر، تلفظ الكاف نوناً فهي إذاً يني شهر و معناها المدينة الحديثة وتقع في الشمال الشرقي من بورصة. فريد بك، المصدر السابق، ص١١٨.

٢ – كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٨.

٣ – محمد فؤاد كوبريللي ، قيام الدولة العثمانية، ت:أحمد السيد سليمان، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٢١.

العمليات العسكرية. وبعد وصوله الى سدة الحكم عين أخاه علاء الدين وزيراً، وكلفه بسن القوانين والشرائع بما يناسب طبيعة الشعب الذي يحكمه، كما نقل مركز الحكم الى مدينة بورصه وجعلها مركز السلطنة[1]. هذا بالإضافة إلى نجاحه مع أخيه في سك أول عملة فضية، كانت دليلاً على حسن ضبطهم وتنظيمهم للأمور الاقتصادية التي يرجع الفضل فيها بالدرجة الأولى، إلى علاء الدين أخي السلطان أورخان[2]، ثم التفت السلطان أورخان بدوره إلى الناحية العسكرية بهدف توسيع ملكه، فشن حروباً على البيزنطيين، حيث انتزع منهم العديد من القلاع والحصون مثل (قلعتي سمندرة وايدوس) ومن ثم توجه نحوالدردنيل واستولى على العديد من المناطق فيها، حتى أصبح الطريق مفتوحاً أمام أوروبا، وعندها رأى السلطان أورخان أن مصلحة الدولة تقتضي تعيين ابنه سليمان المغامر والشجاع، قائداً للجيوش بدلاً من أخيه علاء الدين الذي كان مسالماً بطبعه، وكان اهتمامه منصباً على الأمور الإدارية. وبالفعل تسلم سليمان منصبه الجديد، ثم قاد جيوشه مباشرة نحو بحر مرمرة، وتمكن من اقتحام مدينتي طنب وغاليبولي والاستيلاء على العديد من المدن والقلاع الحصينة في بلاد اليونان[3]، فدبّ الذعر في اليونان من هذه الدولة الناشئة القوية التي اكتسحت أراضيها وسيطرت على العديد من مدنها. ولكن في عام/ ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م/ مات السلطان أورخان بعدما انفطر قلبه حزناً على وفاة ابنه سليمان[4].

حكم السلطان أورخان ٣٥ سنة قضاها في توسيع ملكه وتنظيم شؤون الرعية، وطبق الديمقراطية في إدارة البلاد، بالإضافة إلى أنه اختار أكثر أفراد العائلة تضحية وشجاعة ليتسلم الحكم.

---

[1] – يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة مدبولي،ط١، ١٩٩٥م، ص٣٣-٣٤.

[2] – كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية، ت: نبيه أمين فارس- منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٦٥م،ص٣٤١.

[3] – محمود علي عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية: دراسة تاريخية واجتماعية، دمشق، دار الصفدي، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢٤٩.

[4] – توفي سليمان في أثناء تدربه على الجريد، فسقط عن ظهر حصانه . فعهد بالسلطة لاخيه مراد الأول ١٣٥٩م. وبعد سنة توفي أي سنة ١٣٦٠. منحت سرت أوغلو، التاريخ العثماني المصور، أنقره، ١٩٥٨م، ص٢٣١.

خلف السلطان أورخان ابنه مراد الأول/٧٦١هـ/١٣٦٠م/ وله من العمر ٣٥ عاماً. وقد عرف عنه كرم الأخلاق والشجاعة خاصة في المعارك، على الرغم من أنه لم يشارك بالمعارك في صغره[1]. وقد حقق العثمانيون في عهده بعداً استراتيجياً مهماً سنة /٧٦٣هـ/١٣٦٢م/ حين ضموا إلى جسم دولتهم، مدينة أدرنة ذات الموقع الإستراتيجي المهم، والمكانة التجارية المميزة، لعلاقة تجارها الوثيقة مع التجار الأوروبيين[2].

ومنذ تسلمه الحكم، عمد السلطان مراد الأول إلى توسيع حدود مملكته على حساب أوروبا وآسيا، فقاد جيوشه باتجاه البلقان وحقق انتصارات كبيرة على ملوكها[3]، وتَوَّج أعماله الإستراتيجية عندما استولى على مدينة سالونيك(سلانيك) عاصمة مقدونيا اليونانية، فحاز بذلك على إحدى أهم المدن التجارية التي غدت في القرن السادس عشر، مركزاً كبيراً للتجار والحرفيين، مما وفر دخلاً كبيراً لخزينة الدولة[4]، ثم وقّع معاهدة مع ملك اليونان، ولكنها لم تستمر طويلاً لأن اليونانيين عقدوا اتفاقاً مع البوسنة والمجر والأفلاق، بهدف استعادة أدرنة من العثمانيين، فحاصرت هذه القوات المتحالفة أدرنة، ولكن القوات العثمانية كانت لها بالمرصاد، إذ تمكنت من فك الحصار وإلحاق الهزيمة بهم. وقد تابع السلطان مراد الأول مسيره بعد أن زوّج ابنه بيازيد من ابنة حاكم قرمان، بهدف إقامة تحالف مع حكام آسيا الصغرى[5].

وبينما كان السلطان مراد الأول في الأناضول، ورده خبر قيام تحالف أوروبي مؤلف من صربيا وبلغاريا والبوسنة في البلقان ضده. ولكن ردّه جاء سريعاً إذ عبر البحر باتجاه أوروبا

---

١ - آصاف، مصدر سابق، ص٣٥-٣٦.

٢- عباس الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، بيروت، دار النفائس، ط١،١٩٩٩م، ص١٠١.

٣- عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص٢٥٣.

٤- الصباغ ، المرجع السابق،ص١٠١.

٥- عامر، المرجع السابق،ص٢٥٣.

والتقى الطرفان في أوصو، وتمكن من الانتصار على التحالف الأوروبي. وبذلك نجح العثمانيون في توطيد أركان دولة ناشئة استطاعت أن تثبت وجودها في الأناضول والبلقان[١].

وبعد انتهاء المعركة، وفي أثناء تجول مراد الأول بين جثث القتلى، غافله شاب صربي و طعنه بخنجر، فسقط على الأرض قتيلاً، ونقل جثمانه إلى مدينة بورصة سنة/٧٩٠هـ/١٣٨٩م/[٢].

تولى الحكم بعد مراد الأول ابنه بيازيد الملقب يلدرم(أي الصاعقة)،/٧٩١هـ/١٣٨٩م/[٣]، وله من العمر ثلاثون عاماً *[٤] وقد بدأ حكمه بقتل أخيه يعقوب خوفاً من أن ينتزع الحكم منه[٥].

أما على الصعيد العسكري، فقد أخضع السلطان بيازيد مملكة الصرب بشكل كامل، ثم تابع تحركاته العسكرية حيث سيطر على ما تبقى من الثغور والإمارات السلجوقية في الأناضول، ثم كان عليه أن يواجه حملة عسكرية بقيادة ملك المجر وبمباركة من البابا. وقد تمكنت هذه الحملة من استعادة الكثير من المدن التي استولى عليها العثمانيون سابقاً [٦].

ولكن القوات العثمانية بقيادة السلطان بيازيد، تمكنت من مواجهة هذه الحملة الصليبية وإلحاق الهزيمة بها. وبينما كان السلطان بيازيد يتصدَّى لهذه الحملة، فوجئ بزحف

١- خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ت محمد م. الأرناؤوط، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٨.

٢ – علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٤، ٢٠٠٢م، ص١٧.

٣ – شكيب أرسلان ، تاريخ الدولة العثمانية، جمع أصوله وحققه حسن السماحي سويدان، بيروت، دار ابن كثير، ط١،٢٠٠١م، ص٦٥.

٤ – آصاف، مصدر سابق، ص٣٨.

* وسبب تلقيبه بهذا الاسم هو أنه عرف ببراعته وسرعته في ميدان الحروب ولشجاعته أمام الأعداء. حليم ، مصدر سابق، ص٤٦.

٥ – عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص١٣٤.

٦ – عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص٢٥٣.

تيمورلنك*[1] الذي كان يتجه كالعاصفة المدمرة نحو شرق الأناضول، بعد أن انضم إليه العديد من أمراء الأناضول الذين فقدوا إماراتهم[2]، وقد نجح بالاستيلاء على العديد من المدن، ثم قام بقتل ابن السلطان بيازيد ويدعى أرطغرل، فما كان من السلطان بيازيد إلا أن توجه لملاقاته ليضع حدّاً لتعدياته السافرة. وكان ذلك في سهل أنقرة، فتقابل الطرفان سنة/٨٠٤هـ/١٤٠٢م/ وانتهت هذه المعركة بهزيمة بيازيد ووقوعه مع ابنه مصطفى، أسيرين بيد تيمورلنك، الذي أحسن معاملته في بادئ الأمر. إلا أن محاولة الفرار التي قام بها السلطان بيازيد أدت الى تغيير معاملة تيمورلنك له، فأصبح يعامله بقساوة واحتقار، كما أنه وضعه في قفص من الحديد لمدة ثمانية أشهر. ونتيجة شعور السلطان بيازيد بالذل والهوان، ازدادت حالته سوءاً، مما أدى إلى موته في قفص تيمورلنك، ثم نقل جثمانه إلى مدينة بورصة، فدفن هناك[3].

وبعد هذه الضربة القاسية التي تعرضت لها الدولة العثمانية الفتية على يد تيمورلنك[4] الذي لولا وفاته لتمكن من القضاء عليها[5]، ثارت العديد من الممالك البلقانية مثل بلغاريا والصرب ورومانيا، كما استعاد الكثير من أمراء الأناضول استقلالهم[6]. وعليه فإن آثار هزيمة العثمانيين انعكس على مسرح الأحداث داخل الدولة العثمانية، إذ كان موت السلطان بيازيد إيذاناً ببدء الخلافات بين أبنائه حتى وصلت إلى حد القتال فيما بينهم[7]، فعمت الفوضى

* تيمور لنك بك الكبير خاقان أتراك الشرق (تركستان) أسس إمبراطورية عظمى تمتلك أكبر جيش و دولة في العالم آنذاك امتدت من الصين الى مصر. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، استانبول، منشورات مؤسسة الفيصل للتمويل،١٩٨٨م، ج١، ص١٠٩.

[1] – عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص٢٥٣.

[2] – كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص٩٠.

[3] – عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص٢٥٣.

[4] – حسون، مرجع سابق، ص٢٢.

[5] – عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص٢٥٣.

[6] – حسون، المرجع السابق، ص٢٢.

[7] – نيقولو باربارو، الفتح الإسلامي للقسطنطينية (يوميات الحصار العثماني)١٤٥٣م، ت: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، ط ١، ٢٠٠٢م،ص٢٩-٣٠.

في البلاد على الأصعدة كافة [١]، إلى أن تمكن أصغر أبنائه محمد جلبي (الجميل)الأول /٨١٦هـ/١٤١٣م/ من أن يضع حداً لهذه المشكلات وأن يعيد الأمور إلى نصابها[٢] .

لقد تحلى السلطان محمد جلبي الأول بصفات أخلاقية رفيعة، فهو الذي جمع شمل مملكة والده بعد تمزقها، فوحّد صفوفها وقام بتثبيت أركانها، وقضى على كل الثورات المحلية التي قامت في عهده، وقاد جيوشه إلى العديد من المعارك التي كان نتيجتها النصرعلى أعدائه. وقد عُدّ السلطان محمد جلبي أول سلطان عثماني يرسل صرّة من الذهب إلى أمير مكة لتوزيعها على الفقراء، كما عرف عنه حبه للعلم والعلماء[٣].

بعد وفاة السلطان محمد جلبي، تولى الحكم ابنه مراد الثاني/٨٢٤هـ/١٤٢١م/، وكان عمره سبع عشرة سنة. وقد عرف عنه حبه للسلم وابتعاده عن الحروب. ولهذا طمع الأعداء بدولته وبدؤوا ينقضون العهود التي كانت بينهم، وذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما جهز الأوروبيون حملة ضد الدولة العثمانية وسلطانها الجديد، استعادوا من خلالها الكثير من أملاكهم، وتغلبوا على العثمانيين في الكثيرمن المواقع، حتى وصلوا إلى مدينة فارنة* على البحرالأسود[٤]. وأمام هذا الخطر قام السلطان مراد الثاني بإعداد حملة قوامها ثمانون ألف مقاتل بقيادة الوزير شهاب الدين الذي نجح في إيقاف زحف هذه القوات الأوروبية، وأعاد بعض الاستقرار إلى البلاد. ونتيجة الضغوط الكثيرة التي تعرض لها السلطان، اضطر أن يوقع على عقد صلح مع صربيا والأفلاق، أعاد لهما من خلاله العديد من المدن والقلاع، كما حاول السيطرة على القسطنطينية، لكنه فشل نتيجة منعة أسوارها وصمود قواتها. توفي

---

١ – روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية،٢ج، ت: بشير السباعي، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٣م،ج١، ص ٧٦.

٢ – عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ط١٩٦٨،٢م، ص٣٩.

٣ – أرسلان، مصدر سابق، ص٧٣

* فارنة مدينة تقع في بلغارية على شاطئ البحر الأسود. حسون، مرجع سابق، ص ٢٣.

٤ – حسون، مرجع سابق، ص٢٣.

السلطان مراد الثاني عام/٨٥٥هـ/١٤٥١م/ بعد أن تنازل عن الحكم لابنه محمد الثاني (الفاتح) الذي أظهر مقدرة عالية وجبارة في إدارة شؤون البلاد[١].

تولى السلطان محمد الفاتح الحكم عام/٨٥٥هـ/١٤٥١م/. ومنذ وصوله الحكم، قرر أن يستولي على القسطنطينية وأن يضمها للدولة العثمانية، نظراً لأهمية موقعها الجغرافي؛ فهي التي تصل بين آسيا وأوروبا[٢]. وفعلاً بدأ بإعداد كل ما يلزم لهذه المهمة، ومنها بناء مجموعة من القلاع على شاطئ مضيق القسطنطينية (البوسفور)[٣]، لأنه كان يدرك مدى أهمية هذا المضيق كعامل مساعد في الاستيلاء على القسطنطينية. ومن هذه القلاع كانت قلعة روميللي حصار التي تمكن من خلالها أن يسيطر على مضيق القسطنطينية، وبالتالي لم يسمح لأي سفينة بالعبور إلا بناء على موافقة الدولة العثمانية[٤]. وأعدّ أيضاً المدافع الضخمة التي تقذف الحجارة على مسافات طويلة، إذ كانت خطته النهائية تقوم على ضرب حصارعلى مدينة القسطنطينية وقطع اتصالاتها مع كافة المدن المجاورة. كما أمر السلطان محمد الفاتح أحد قادته وهو طرخان باشا بأن يسيطرعلى كورنثة، لكي يمنع أخوة الإمبراطور من مساعدته[٥]. ولمّا علم ملك القسطنطينية بنوايا السلطان محمد الفاتح، طلب المعونة من الدول الأوروبية المجاورة، واعداً إياها بضم الكنيسة الشرقية إلى الكنيسة الرومانية، لكنه لم يلق أي استجابة من أي دولة أوروبية لأنها كانت حاقدة عليه[٦]، ومن ناحية أخرى لم يكن لدى بيزنطة من المعدات الحربية أو حتى المال، ما يجعلها منافسة للدولة العثمانية[٧].

---

١ – عامر، مرجع سابق، ص١٣٨.

٢ – حسون، مرجع سابق، ص٣١.

٣ – آصاف، مصدرسابق، ص٤٨.

٤ – كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص ١٢٠.

٥– زبيدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى، بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي، دت، ص١٩٥.

٦ – آصاف ، المصدرالسابق، ص٥٠.

٧ – عطا ، المرجع السابق، ص١٩٥.

وفي عام/٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م/ زحف السلطان محمد الفاتح إلى القسطنطينية[١] بجيش كبير. وبعد حصار دام أكثر من خمسين يوماً تمكن من دخول هذه المدينة، وقتل ملكها الذي دافع عن عاصمته بشراسة[٢]. وبعدها توجه السلطان إلى كنيسة آيا صوفيا وحولها إلى جامع قبل دخوله إليها[٣]، ثم قرر اتخاذ القسطنطينية عاصمة لملكه[٤]، فأطلق عليها اسم إسلام بول، أي مدينة السلام[٥].

لقد عدّ إخضاع الدولة العثمانية للقسطنطينية من أهم الأحداث التاريخية، وكحد فاصل بين العصورالوسطى والعصور الحديثة. كما أن ملوك أوروبا تنبهوا إلى مدى خطورة هذه الدولة المتنامية التي تحولت خلال فترة قصيرة إلى إمبراطورية ضخمة، يهابها ملوك أوروبا ويطلبون ودها.

كما أن نجاح الدولة العثمانية في القضاء على الإمبراطورية البيزنطية، كأهم قوة في العصورالوسطى، أدى إلى ظهورها على مسرح الأحداث، كقوة عسكرية جديدة يحسب لها حساب، لأنها تشكل خطراً يهدد كافة القوى الأخرى التي برزت أواخر العصورالوسطى، مثل سلطنة المماليك في مصر وبلاد الشام، بالإضافة إلى بعض الدول الأوروبية الأخرى.

ولابد من الإشارة إلى أن هذا الانتصار العسكري الكبير، قد شجع سلاطين بني عثمان الذين جاؤوا بعد السلطان محمد الفاتح، للسيطرة على المزيد من الأراضي في أوروبا وآسيا[٦].

ومن الجدير ذكره إن طموحات السلطان محمد الفاتح العسكرية والتوسعية لم تتوقف عند القسطنطينية، حيث كان لديه حلم بناء إمبراطورية ضخمة تشمل مناطق واسعة من الأراضي، لذا قررأن يتابع عملياته التوسعية التي بدأت عام/٨٦٥هـ/١٤٦١م/، إذ استطاع أن يسيطرعلى مدينة أثينا عاصمة اليونان، وعلى إمارة طرابزون وإمارة قرمان،

١ – سليمان بن خليل بن بطرس جاويش، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥م، ص ١٠.

٢ – أرسلان ، مصدرسابق، ص٨٦.

٣ – مانتران، مرجع سابق،ج١، ص ١٢٣.

٤ – أرسلان، المصدر السابق،ص٦٩٢.

٥ – فريد بك، مصدرسابق،ص١٦٤.

٦ – باربارو، مرجع سابق، ص ٦٩.

وأخضع بلاد الصرب والبوسنة والهرسك، واستمرعلى هذا النشاط إلى أن وافته المنية عام/٨٨٦هـ/١٤٨١م/ [١].

لقد دام حكم السلطان محمد الفاتح إحدى وثلاثين سنة، استطاع خلالها أن يسيطرعلى اثنتي عشرة ولاية، وأكثر من مئتي مدينة وبنى العديد من المدارس والجوامع[٢] ، كما طبق سياسة التسامح الديني على السكان الأصليين للمدن التي سيطرعليها، ومنحهم الحرية الاقتصادية والفكرية؛ فترك لهم كنائسهم وممتلكاتهم، ولم يسمح للأتراك بالبقاء في القسطنطينية لكيلا يتأثروا بمفاتن وجمال هذه المدينة ونعيمها، فيتقاعسوا عن تحقيق الهدف الرئيسي وهو بناء الإمبراطورية العثمانية[٣].

وبعد وفاة السلطان محمد الفاتح، نشبت حرب أهلية في الدولة العثمانية، وكان سببها الخلاف بين ولدي السلطان محمد الفاتح بيازيد الثاني وجم (جام) على الحكم، مع العلم أن السلطان قد أوصى بالحكم لابنه جم الذي كان يراه مناسباً للحكم أكثر من أخيه بيازيد الثاني. وقد تم استدعاء جم الذي كان يقيم في قونية من قبل الصدرالأعظم محمد باشا، ليتسلم الحكم، بعد محاولته إخفاء خبر وفاة السلطان محمد الفاتح عن الجميع. ولكن الإنكشارية التي كانت تميل إلى بيازيد الثاني قد علمت بالأمر، و قتلت الصدرالأعظم وعينت ابن بيازيد قرقوط، نائباً عن والده لحين وصوله[٤].

ولمّا تسلم بيازيد الثاني الحكم كانت أول حروبه الداخلية ضد أخيه جم، فتواجه الأخوان واقتتلا بالقرب من مدينة يني شهر، وانتهت الحرب بانتصار بيازيد الثاني، على أخيه جم[٥] الذي هرب إلى مصر لفترة وجيزة[٦]، ثم عاد مرة ثانية لمواجهة بيازيد الثاني نتيجة الدعم الذي تلقاه من أنصاره في مصر. ولكنه انهزم مرة ثانية، والتجأ هذه المرة إلى فرسان القديس يوحنا في رودس سنة/٨٨٧هـ/١٤٨٢م/، وعندها عرض بيازيد الثاني عليهم مبلغاً من المال

---

١ – عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص٢٥٨-٢٥٩.

٢ – رضا نور، عثماني تاريخي، ٨أجزاء، استانبول، ١٩٢٤م، ج٢، ص٣٥٠.

٣– نور، المصدر نفسه ، ج٢، ص٣٥١-٣٥٢.

٤– محمد بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٤٧.

٥ – فريد بك، مصدر سابق، ص١٨٠.

٦ – آصاف، مصدر سابق، ص٥٤.

مقابل ألا يطلقوا سراح جم، فوافقوا على ذلك وأرسلوه إلى فرنسا ومن ثم نقل إلى روما. وفي روما حاول جم الفرارمن أيدي البابا في أثناء هجوم ملك فرنسا شارل الثامن على إيطاليا. ولكن السلطان بيازيد الثاني كان قد أرسل مبلغاً من المال إلى بابا روما اسكندربورجيه لكي يدس السم لجم ويقتله. وقد تم ذلك في نابولي عام/٩٠٠هـ/١٤٩٥م/ وبذلك تخلص بيازيد الثاني من أخيه جم[١].

كان السلطان بيازيد الثاني يميل إلى الانزواء والعزلة والبساطة في حياته، حيث خصص وقته وأمواله لبناء الزوايا والتكايا وإرسال الصدقات إلى فقراء مكة والمدينة. ولهذا عدت فترة السلطان بيازيد الثاني فترة جمود على صعيد التوسعات العسكرية[٢]، ما أدى إلى ازدياد نقمة الإنكشارية عليه، إذ تعاونت بدورها مع أحد أبنائه وهو سليم، وقررت عزله عن العرش. وبالفعل تم ذلك، وتسلم سليم الحكم سنة /٩١٨هـ/١٥١٢م/ بدلاً منه، ويقال إنه دس السم لوالده وقتله [٣].

لقد كان سليم أصغر أولاد السلطان بيازيد الثاني، وأطلق عليه لقب (ياوز أي القاطع). وبعد استلامه الحكم كان لابد له من أن ينهي الخلافات الأسرية التي كانت قائمة آنذاك[٤]، فعمل على تنحية أكبر إخوته أحمد الذي كان يدّعي حقه في ولاية العرش، وعين ابنه سليمان حاكماً على استنبول[٥]. ولكن تبين للسلطان سليم أنه كان لابد له من مواجهة أخيه أحمد الذي هرب مع ابنه علاءالدين إلى مدينة بورصة[٦]. ولما علم أحمد بقدوم السلطان سليم على رأس جيش هرب إلى ملاطية وأرسل ابنه إلى تبريز ليصبح تحت حماية الشاه إسماعيل الصفوي الذي كان بدوره ينتظرالفرصة المناسبة لمواجهة الدولة العثمانية [٧]. وفي أثناء ذلك توجه

---

١ – أرسلان ، مصدرسابق، ص١١٥.

٢ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٧٦.

٣ – عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص٢٦١.

٤ – ابن محمد اللخمي الإشبيلي، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس أرسنت، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م، ص٢.

٥ – محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، بيروت، دار النفائس، ط٢، ٢٠٠٨م، ص١٤٧.

٦ – عامر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق،ص ١٤٤.

٧ – طقوش، المرجع السابق، ص١٤٧.

السلطان سليم إلى مدينة بورصة وبعدها إلى ولاية صاروخان التي كان أخوه قورقود قد استقر فيها، وتنازل بدوره لأخيه سليم عن كل حقوقه. وعلى الرغم من ذلك قام السلطان سليم بقتله وقتل أولاده جميعهم. لكن أحمد فرَّ إلى الصفويين ثم المماليك لأنه كان يخاف من نواياه المستقبلية وذلك في عام/٩١٩هـ/ ١٥١٣م/[1].

وجدير بالذكر أن السلطان سليم كان شكاكاً ولايثق بأحد، ولذلك استخدم القتل لكي ينهي شكوكه اتجاه أي شخص .

أما أحمد فقد أراد أن يواجه أخاه سليماً، وأن يضع حداً لهذا النزاع، فجمع جيشاً من أنصاره وجرى القتال في مدينة يكي (يني) شهر إلا أن أحمد خسر المعركة أمام السلطان سليم. ونتيجة هذه الهزيمة هرب ولدا أحمد، أحدهما إلى تبريز وهو الأمير مراد الذي التجأ إلى الشاه إسماعيل الصفوي[2]، أما الآخر وهوعلاءالدين، فقد ذهب إلى السلطان قانصوه الغوري في مصر، فما كان من السلطان سليم سوى أنه طلبهما من هذين الحاكمين. ولكنهما رفضا تسليمهما، وهذا ما حزَّ في نفسه فقرر أن ينتقم من هذين الحاكمين.

وبعد أن اطمأن السلطان سليم من انتهاء المشكلات على الصعيد الداخلي، عاد إلى أدرنة بعد أن قضى على كل منافسيه في الحكم، ثم عقد اتفاقيات مع البندقية والمجر وروسيا، ممهداً بذلك لعهد من العلاقات السلمية مع دول أوروبا، لأنه أراد أن يوجه جُلَّ اهتمامه للجبهة الشرقية، ليواجه أعداءه الصفويين والمماليك[3].

لقد ذكر جودت باشا أن فترة السلطان سليم الأول امتازت بنشاط حربي كبير[4]، وكما عرف عنه أنه داهية يحسن التصرف، وقارئاً متميزاً وشاعراً، ولكنه حاد الطباع وسفاكٌ للدماء؛ فقد لطخ يديه بقتله الكثير من الأبرياء .

---

[1] – نزار قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٢م، ص٤٦.

[2] – وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية من التأسيس إلى السقوط، عمان، الأهلية للنشروالتوزيع، ط١، ٢٠٠٣م، ص٧٧.

[3] – طقوش ، مرجع سابق، ص ١٤٧-١٤٨.

[4] – جودت ، مصدر سابق، ج٢، ص٤٥٠.

لقد توفي السلطان سليم بعد أن حكم حوالي ثماني سنوات/٩٢٦هـ/١٥٢٠م/ و دفن في استنبول(١). وخلفه في تولي العرش ابنه سليمان/١٥٢٠-١٥٦٦م/(٢)، الذي عرف بالقانوني، والذي سعى إلى توسيع حدود دولته فوصلت في عهده إلى أوجها. فقد امتدت من نهر الدانوب إلى شلالات النيل، ومن الفرات إلى جبل طارق، ليجعل من الدولة العثمانية أعظم إمبراطورية في ذلك الوقت(٣).

وهكذا نرى أن السلاطين العثمانيين، بدءاً من المؤسس عثمان، حتى عصر التوسع والازدهار في عهد القانوني، لم يعتمدوا أنصاف الحلول في خطواتهم التوسعية كافة؛ فضلاً عن ذلك فقد اعتمدوا أساليب عدة مكنتهم من إقامة دولتهم المتنقلة من سكودا إلى يني شهر فبورصة فازنيق فازمير فأدرنه، وما إن بلغوا استنبول حتى حولوها إلى إمبراطورية مترامية الأطراف، حيث حكمت قارات ثلاث(٤).

ولكن وبالمقابل، لم يكن العثمانيون عابئين بالأخطار التي تواجههم، لأنهم كانوا مدركين أن فشلهم ولو جزئياً، قد يعرضهم إلى الضياع الأبدي. ولهذا نرى أنهم استفادوا بشكل كبير من الظروف التي كانت قائمة آنذاك، والتي أسهمت إلى حد كبير في تحقيق إنجازاتهم. وقد تمثلت هذه الظروف بمايلي:

أولاً: وجود العثمانيين واستقرارهم بالقرب من حدود الإمبراطورية البيزنطية التي تعاني من التفكك والضعف، إذ إن سلطة الإمبراطور لم تكن تتجاوز أسوار القسطنطينية. وكان هذا إيذاناً بزوال هذه الدولة، التي أصابها التفكك داخلياً .

ثانياً: إن معظم سكان الولايات المجاورة للعثمانيين، كانوا راغبين بالتخلص من استبداد وظلم حكام القسطنطينية، ومن الفوضى التي تعرضت لها مناطقهم. فقد استغل هؤلاء المتذمرون ظهورالعثمانيين ليساعدوهم على نيل الحرية والاستقلال .

١- عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية، دراسة تاريخية واجتماعية، ص٢٦٤.

2 – Impero ottoman, all about turkey – burak sansal, 23,2,2010,s2.

٣ – مجموعة من المؤلفين، عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الاقطار العربية،٢ج، دمشق، المطبعة الهاشمية، ط٢، ج٢، ص٩.

4– İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI,sarag teskilati,ankara,1978,s 306-307.

ثالثاً: إن عدم وجود منافس للعثمانيين، أسهم في لجوء سكان الإمارات والمدن المجاورة للإمبراطورية البيزنطية إليهم.

رابعاً: من أهم الأسباب التي أدت إلى نهوض العثمانيين وارتقائهم السريع، هواتصاف السلاطين الأوائل أمثال السلطان عثمان وأورخان، بالعزم والثبات وعدم التعصب. وهذا ما جعل المسيحيين يطمئنون لحكمهم، كما أن الضرائب التي فرضت على الأهالي في بداية عهدهم كانت ضئيلة نوعاً ما .

خامساً: إن الدولة العثمانية منذ تأسيسها، سعت إلى وضع الأنظمة والقوانين لمختلف فئات المجتمع، لأن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يسعون إلى تنظيم الدولة، داخلياً، بغية التوسع خارجياً.

وبهذا يمكن القول: إن اعتماد العثمانيين على النظام العسكري الصارم، منذ المراحل الأولى حتى العقد الأخير من القرن السادس عشر، أسهم في إقامة دولة عثمنوها بشكل بدت فيه كأنها للعثمانيين من آلاف السنين[1].

[1] – صولاق باشا، تاريخ صولاق،٤أجزاء، استنبول، ١٣٢٣هـ ، ج٣، ص ٢٤٠.

الفصل الأول

وضع الدولة العثمانية قبيل تسلم السلطان سليمان الحكم.

١-أوضاع أوروبا عند تسلم السلطان سليمان الحكم.

٢-حياة السلطان سليمان القانوني :

-عائلة السلطان سليمان.

٣- قوانينه

- قانون نامه.

٤-علاقة السلطان سليمان بالعلماء والمدرسين

وضع الدولة العثمانية قبيل تسلم السلطان سليمان الحكم :

لقد خلف السلطان سليمان والده السلطان سليم الأول/٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م/ الذي ترك لولده ملكاً كبيراً وواسعاً، تمثل بالأراضي التي سيطرعليها خلال فترة حكمه التي دامت ثماني سنوات تقريباً.

وكما ذكر سابقاً، فقد تعرض السلطان بيازيد الثاني (والد السلطان سليم) في أواخر حكمه، لتمرد أولاده الثلاثة، إذ تمكن أحدهم من الإطاحة به وهو سليم، وذلك في عام/٩١٨هـ/١٥١٢م/[١]، وقدعرف بشراسة طباعه وحبه لسفك الدماء[٢]، " فقد قتل سائر إخوته مع أولادهم حتى لم يبق منهم أحد"[٣].

ولما تولى السلطان سليم عرش الدولة العثمانية، قررالتوقف عن التوغل في أوروبا، وفضل التوجه بجيوشه نحو الشرق. وقد اختلف المؤرخون في تفسير هذا الأمر، فذهب بعضهم إلى أن الدولة العثمانية قد اكتفت من حروبها في الغرب، ووصلت إلى مرحلة التشبع في نهاية القرن الخامس عشر، وأنه يجب عليها أن تبحث عن ميادين جديدة للتوسع في القرن السادس عشر.

في حين يذهب بعض المؤرخين إلى أن الأحداث التي جرت في أوائل القرن السادس عشر، في الشرق، هي التي فرضت على الدولة العثمانية التوغل في ذاك الاتجاه، وذلك لحماية آسيا الصغرى. والمقصود بأحداث الشرق هو زحف القوات البرتغالية على حدود الشرق العربي ومنافذه البحرية، وكذلك الخطر الإسباني الذي هدد المغرب العربي. وبعبارة أخرى: لقد أدرك العثمانيون أن هدفهم من إعلان الحرب على الدولة المملوكية هو حماية

١- عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٧٦.

٢ - عامر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق، ص١٤٤.

٣ - آصاف، مصدر سابق، ص٥٧

الحرمين الشريفين والمدن الإسلامية المقدسة والعالم الإسلامي من البرتغاليين، الأمر الذي عجز عن تحقيقه المماليك[١].

فضلاً عن ذلك، فإن العثمانيين لن يقبلوا بأن يبقوا أمراء الجهاد، والمماليك أمراء الإمارة الإسلامية، ولاسيما بعدما تمكنوا من فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، إذ إنَّ فتحها يفوق بالأهمية معركة عين جالوت التي انتصر فيها المماليك على المغول سنة ١٢٦٠م[٢].

وبعد أن تمكن السلطان سليم من القضاء على إخوته، أعلن الحرب على الشاه اسماعيل الصفوي بإيران، ومن ثم سيتولى أمر المماليك. وكان سبب هذه الحرب أن السلطان سليماً ادعى أن الشاه اسماعيل الصفوي كان يعمل على بث المذهب الشيعي بين العثمانيين، على يد دراويش القزل باش، كما أنه كان يحاول دائماً إثارة القلاقل في الدولة العثمانية، حيث بثّ بذور الفساد في كل أرجاء الدولة[٣]. وهذا ما سبب خلافاً مذهبياً حاداً بين الطرفين، بالإضافة إلى أنه كان يرغب في إنهاء التحالف الذي يجمع بين الصفويين والبرتغاليين وبعض الدول الأوروبية في الغرب ضد العثمانيين، في وقت قد تزايد فيه الخطر البرتغالي.

لقد هدف التحرك العثماني إلى قطع العلاقة التي تجمع بين المماليك والصفويين. وكان السلطان سليم على علم برغبة الصفويين بالسيطرة على الدولة المملوكية، في وقت اتجهت فيه أنظار العثمانيين الى دولة المماليك أيضاً[٤]، فقرر السلطان سليم وضع حد للخطر الصفوي واستئصال بذور الفساد. وذلك في عام/٩٢٠هـ/ ١٥١٤م/، إذ قام بعقد اجتماع في مدينة أدرنة جمع فيه الوزراء والقادة، وقرر إعلان الحرب على الشاه الصفوي اسماعيل[٥].

---

١ – محمود محمد الحويري، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، القاهرة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ط١، ٢٠٠٢م ، ص ٢٠٨.

٢ – أحمد رفيق،عثمانلي تاريخي،٦أجزاء، استنبول، ١٩٢٦م، ج٤، ص١٧٥.

٣ – الميرالاي اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، تقديم ومراجعة حسن الزين، بيروت، دار الفكر الحديث، ١٩٨٨م، ص٦٦.

٤ – نادية محمود مصطفى، العصر المملوكي (تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية) ، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م، ص١٥٦-١٥٧.

٥ – سرهنك، مصدر سابق، ص٦٦.

وبالفعل قامت هذه الحرب بين الطرفين(العثماني والصفوي) وانتهت بانتصار العثمانيين في معركة جالديران*[1]، التي تعد نقطة تحول مهمة بالنسبة للدولة العثمانية بشكل عام، وللسلطان سليم بشكل خاص، الذي استخدم في هذه المعركة البارود والرصاص. وقد دهش المماليك من استخدام السلاح الناري، كما بدأ الأمراء والحكام في المنطقة نتيجة هذه المعركة، يأخذون حذرهم من السلطان سليم ويخشون سطوته. وبعد تلك المعركة ضم السلطان سليم إلى ملكه ولايتي ديار بكر وكردستان، وكان قد احتل تبريز وأخذ معه أبرز تجارها وعلمائها وحرفييها الى الأستانة [2].

بعد الانتصار على الصفويين، توجه السلطان سليم الأول للسيطرة على بلاد الشام والقضاء على سلطانها قانصوه الغوري، الذي تحالف سابقاً مع الشاه الصفوي لمحاربة الدولة العثمانية، حيث أرسل السلطان الغوري بعضَ قواته كي تمنع وصول المساعدات والإمدادات لجيش سليم، وهذا ما أغضبه كثيراً[3]. ومما زاد الطينَ بلة أن قانصوه الغوري استقبل كلاً من سليمان بك وعلاء الدين بك ولدي شقيق السلطان سليم الأول في مصر. وعلى الرغم من أن المنية قد وافتهما نتيجة اصابتهما بالطاعون، إلا أن هذا التصرف أغضب السلطان سليم كثيراً. أما السبب المباشر الذي دفع السلطان سليم الأول، إلى إعلان الحرب ضد قانصوه الغوري، فهوهروب خوشقدم شاد الشون إلى بلاط السلطان سليم الأول، وهو من مماليك قانصوه الغوري. وكان الغوري قد صادر أملاكه وأخذ أمواله، فما كان من خوشقدم سوى الهرب واللجوء إلى السلطان سليم العدو اللدود لقانصوه الغوري. ولمّا أصبح خوشقدم في بلاط السلطان سليم بدأ يحرضه على قانصوه الغوري ، وأخبره عن أحوال مصر المتردية وعن

---

* معركة جالديران، وتكتب أيضاً تشالديران نسبة لاسم الموقع الذي جرت فيه قرب تبريز سنة/٩٢٠ هـ/١٥١٤م/، وانتهت بانتصار العثمانيين وضم ديار بكر وما حولها إلى أملاكهم. محمد بن محمود الجلبي الملقب بابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، صنعة محمد أحمد دهمان ، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٣٠.

[1] – ابن أجا ، المصدر السابق، ص٢٣٠.

[2] – عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها،٢ج، القاهرة، مكتبة الأنكلوالمصرية، ج١، ص٢٥.

[3] – محمود مصطفى، مرجع سابق، ص١٥٧.

الرشوة المتفشية بين قضاة مصر . ولم يقف خوشقدم عند هذا الحد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما ساعد السلطان سليم على الاتصال بخاير بك نائب حلب، وجان بردي الغزالي نائب حماة اللذين خانا قانصوه الغوري عندما قدما المساعدة للسلطان سليم ضده[١]. وبهذا أصبح السلطان سليم يملك المسوغات الكافية لإعلانه الحرب على المماليك وقائدهم الغوري الذي بدأ يجهز جيشه، بعد أن علم باستعدادات السلطان سليم، ووصول الأساطيل العثمانية إلى شواطئ الإسكندرية[٢].

وكما هو معلوم، فإن العلاقة العثمانية المملوكية كانت في وضع غير مرض. ولم يكن السلطان سليم الأول هو أول من احتك بالمماليك، فقد سبقه إلى ذلك/١٣٨٩-١٤٠٢م/ السلطان يلدرم(الصاعقة) بيازيد الأول الذي هاجم إمارة ذي القدر(الغادر) ودخل عاصمتها ألبستان سنة ١٣٩٣م، ومنها تحرك إلى حلب، ثم قفل راجعاً إلى بلاده، لأن أخبار تحركات تيمورلنك كانت الحدث الأهم آنذاك[٣].

وكما ذكر سابقاً، فإن السلطان سليم الأول تميز بقسوته ورفضه أنصاف الحلول. ولهذا عمد إلى كسر شوكة الصفويين، وبعدها اتجه إلى تحطيم المماليك لأنهم استهتروا كثيراً بالدولة العثمانية، وتجاهلوا رغباتها وأيقنوا أنهم زعماء المسلمين بامتياز، فلم يقدموا له المساعدة في أثناء محاربته الصفويين، واستقبلوا أخاه أحمد وقبله جم. وليعطي عمله العسكري ضد المماليك الشرعية، جمع كبار قادته بحضور شيخ الإسلام علي الجمالي، وطرح عليه عدة أسئلة، وما يهمنا السؤال التالي (ما رأيك في أمة(يقصد المماليك) تكتب آيات الله على دنانيرها ودراهمها، وهي تعلم أن اليهود والنصارى يتداولونها هم وبقية الملاحدة من أهل الأهواء والنحل، فيدنسونها، مرتكبين أفظع الخطايا بحملهم إياها إلى أماكن الخلاء لقضاء حاجاتهم. فما الحكم الشرعي على هذه الأمة) وبالطبع لم تكن إجابة المفتي بأقل غرابة من حماقة السائل والسؤال، فلقد أباح المفتي علي الجمالي إبادة هذه الأمة، إذا لم تقلع عن ارتكاب هذا العمل الشائن[٤].

١- ابن أجا، مصدر سابق، ص٢٣٠-٢٢٩.

٢ - سرهنك، مصدر سابق، ص٧١.

٣ - جودت باشا، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٢٩.

٤ - محمود علي عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق، دار الصفدي، ط١، ٢٠٠٣م ، ص١١٤.

ولما حصل السلطان سليم على شرعية الجهاد توجه بجيوشه باتجاه حلب. وبعد معركة مرج دابق/٩٢٢هـ/١٥١٦م/ أرسل علماء حلب وأشرافها برسالة استسلام إليه، فأخضعت بذلك قلعة حلب وحماه وحمص وأنطاكية للدولة العثمانية، ثم دخل فيما بعد السلطان سليم إلى دمشق التي خضعت له أيضاً، وأظهر بعدها العديد من شيوخ العرب فروض الطاعة له، وبذلك أصبحت بلاد الشام تحت سيطرته[1].

أما عن أبرز أسباب انتصار السلطان سليم على المماليك هو دخوله هذه المعركة على رأس جيش كبير ودعمه لهذا الجيش بالأسلحة النارية التي لم تكن متوفرة عند عدوه، بالإضافة إلى الروح المعنوية المتأججة لدى الجيش العثماني نتيجة لانتصاراتهم المتتالية سواء كانت في البلقان أو جالديران، وبالمقابل افتقرالجيش المملوكي إلى وحدة الصف[2]، بالإضافة إلى افتقارهم إلى الروح المعنوية بعد سماعهم بانتصارات العثمانيين، وأخيراً افتقارهم إلى الخبرة القتالية ورفضهم استخدام الأسلحة النارية، كما كان للخيانة دور بارز في هزيمة المماليك و تقويض دولتهم، سواء كان قبل معركة مرج دابق أم بعدها، إذ كان كبار رجال الدولة المملوكية قد حرضوا السلطان سليم سراً وشجعوه على غزو الدولة المملوكية[3].

أما بالنسبة للنتائج التي تمخضت عن حروب السلطان سليم ضد المماليك، ضم شرق الأناضول إلى الدولة العثمانية، مما سهل السيطرة بشكل كامل على طرق التجارة الدولية التي تأتي بحرير إيران وغيره من منتجات الشرق الأخرى، وهذا ما أدى الى زيادة كبيرة في دخل الخزينة العثمانية[4].

وبعد انتصاراته في بلاد الشام تابع السلطان سليم سيره إلى مصر قلب العالم الإسلامي التي أصبح يحكمها طومان باي بديلاً عن عمه قانصوه الغوري الذي قتل في مرج دابق[5]، وهنالابد من الإشارة إلى أن المماليك في تلك المرحلة قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الضعف

---

[1] - كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص ٢١٣.

[2] - ابن أجا، مصدر سابق، ص٢٥٨.

[3] - المصدر نفسه، ص٢٥٨-٢٦٠.

[4] - الحويري، مرجع سابق، ص٢٠٨.

٥- آصاف، مصدرسابق، ص٥٨.

حتى إن الفوضى والانحلال حجبتهم عن رؤية الخطر المحدق بهم، كما أن الحروب المتتالية ضد المماليك من قبل العثمانيين أرهقت المماليك وأفقدتهم الكثير من ضباطهم وأمرائهم و أفراد جيشهم، فقد كانت سبباً وعاملاً مهماً في إضعاف المماليك.

ولما أصبح السلطان سليم على مشارف مصر أرسل إلى طومان باي يعرض عليه أن يصبح نائبه في مصر، وفي الوقت ذاته كان خاير بك الخائن يرسل إلى زعماء العشائر وأمراء مصر يطلب منهم أن يدخلوا في طاعة السلطان سليم[1]، ولكن طومان باي رفض عرض السلطان سليم وأصر على مواجهته مع أنه كان يعلم ضمنياً ضعف موقفه مقارنة بقوة الدولة العثمانية[2]، فكانت المواجهة الحاسمة عام/٩٢٢هـ/١٥١٧م/ في معركة الريدانية [3]، التي احتدم القتال فيها بين الجيشين العثماني والمملوكي[4]، وكانت نتيجتها هزيمة ساحقة للماليك وزعيمهم طومان باي وإلقاء القبض عليه وإعدامه على باب زويلة[5].

وقد وصف لنا المؤرخ ابن زنبل اليوم الذي شهد مقتل السلطان طومان باي أوإعدامه قائلاً:

" فلما وصلوا إلى باب زويلة وجدوا الحبل مرخياً، فأسرعوا به وأنزلوه من على البغلة، وصلبوه على غير مهلة . ثم بعد ذلك أنزلوه وساروا به في نعش إلى قبة السلطان الغوري، فغسله القاضي أصيل الطويل، وكفنه من ثياب أرسلها له السلطان سليم الأول من خاص الموصلي الرفيع، ثم صلى عليه القاضي أيضاً كما أوصاه، ودفنوه في فسقية القبة المذكورة . وأرسل السلطان سليم ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا بها عليه "[6].

---

[1] – الحويري، مرجع سابق، ص٢١٩.

[2] – مصطفى، مرجع سابق، ص١٦٣.

[3] – أحمد الرمال ابن زنبل، آخرة المماليك/٩٦٠هـ/١٥٥٢م/، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١٢٢–١٢٣.

[4] – الحويري ، المرجع السابق، ص٢٢٠.

[5] – ابن طولون، مصدرسابق، ص٣٤٣.

[6] – ابن زنبل، مصدر سابق، ص٢٥٣.

وبإعدام زعيم المماليك طومان باي تنتهي دولة المماليك لتدخل مصر عهداً جديداً من تاريخها فقد تحولت من دولة مستقلة إلى ولاية عثمانية، ولما دخلها السلطان سليم أقام فيها حوالي ثمانية أشهر قام خلالها بجمع كل البنائين والنجارين والمهندسين وصناع الأسلحة والكتاب والتجار، وأرسلهم إلى الإسكندرية ثم تم تسفيرهم إلى العاصمة استنبول، وكانت نتيجة هذا التصرف أن تقهقرت الصناعة في مصر إلى حد كبير [1].

وبذلك تم للسلطان سليم السيطرة على مصر وبلاد الشام وتقبل ولاء زعماء القبائل البدوية الكبرى وشريف مكة وبالتالي تمت له السيطرة على المشرق العربي[2].

ومن الجديربالذكر أنه في أثناء وجود السلطان سليم في مصر، قدم إليه شريف مكة المكرمة يحيى ابن أبي البركات، ومنحه مفاتيح الحرمين الشريفين ومنذ ذلك الوقت صار اسمه يذكر في المساجد، ويقال عنه (خادم الحرمين الشريفين)[3]، ونودي به أميراً للمؤمنين بعد أن تنازل له محمد المتوكل على الله آخر خلفاء بني عباس عن الخلافة الإسلامية[4].

ويبدو أن استيلاء الدولة العثمانية على بلاد المشرق ووادي النيل أكسبها السيطرة على البحر الأحمروالمحيط الهندي، وأسهم في انفتاحهاعلى البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا الشمالية، وهذا بدوره أدى إلى وفرة الموارد الاقتصادية والمالية التي تحتاجها دولة كبيرة في طور التوسع مثل الدولة العثمانية.

والواقع أن السلطان سليم كان يترقب بشكل دائم الحركة التجارية بين أعظم المواقع غنى في العالم، كما أنه كان على اطلاع بالتوغل البرتغالي وتعرضهم للحركة التجارية القائمة بين المناطق المنتجة مثل الهند وماليزيا وبين الأسواق التجارية الكبيرة في الحوض الشرقي للبحرالمتوسط والبحرالأحمر[5]، فاستفادت الدولة العثمانية إلى حد كبيرمن الموارد التي

---

١ – ابن أجا، مصدر سابق، ص٢٩٨

٢ – الحويري، مرجع سابق، ص٢٢١.

٣– سرهنك ، مصدرسابق، ص٧٤.

٤ – قازان، مرجع سابق، ص٤٧.

٥– عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للشباب، ١٩٩٠م، ص١١٩.

حصلت عليها من الجمارك المفروضة على التوابل والبضائع الثمينة، وكل هذا ساعد في إغناء الخزينة العثمانية، وبفضل الضرائب والجباية التي تحصل عليها الدولة العثمانية من الأعيان المحليين، والذهب الذي تأتي به من السودان وإثيوبيا عن طريق نهر النيل، سيتضاعف دخل السلطان إلى حد كبير وهذا كله سيساعد السلطان سليمان القانوني في تمويل حملاته العسكرية الواسعة [١].

وبعد عودة السلطان سليم إلى استنبول من جولته في المشرق، قام بتنظيم أمور بلاده[٢]، حيث عمل على إحياء عمل الدفشرمة بعد أن كانوا قد تقاعسوا عن عملهم نوعاً ما، كما حقق حلمه في تحديث الأسطول العثماني وتقويته، فبنى داراً لصناعة السفن في منطقة تدعى قاسم باشا على القرن الذهبي، ووسع دور الصناعة التي شيدت في غاليبولي(جنوب ايطاليا)[٣]، ولما عرض عليه خيرالدين باربروس أن يضع سفنه ورجاله تحت إمرته قبل السلطان سليم دون تردد، وهذا بدوره سيغيرمصيرالدولة العثمانية في البحر[٤]، ولما توفي السلطان سليم سنة/٩٢٦هـ/١٥٢٠م/ كانت كل دول جنوب نهرالدانوب وآلاشيا ومولدافيا* والروملي تحت السيطرة العثمانية، بالإضافة إلى ألبانيا وموريا وبلاد القرم[٥]، وفي الشرق هزم الصفويين وقائدهم الشاه إسماعيل الصفوي ونجح في القضاء على المماليك.

ويمكن القول إن الدولة العثمانية بجيشها القوي وأموالها الطائلة ستعرف أيام المجد والنصر في عهد السلطان سليمان القانوني.

---

١ – أندري كلو، السلطان سليمان القانوني، تعريب محمد الرزقي، تونس، دار التركي للنشر،١٩٩١م، ص٣٨.

٢ – محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دمشق، دار القلم، ط٢، ١٩٩٩م، ص٣٢.

٣ – كلو، مرجع سابق، ص٣٨.

٤ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٩٣.

*ألاشيا ومولدافيا، مقاطعتان من رومانيا احتلهما العثمانيون . تقع الأولى في جهة الجنوب بين سلسلة جبال الكرباط ونهر الدانوب والثانية في الجهة الشمالية الشرقية على التخوم الروسية. كلو، المرجع السابق، ص٣٨.

٥– كلو، المرجع السابق، ص٣٨.

وبالتالي فإن هذه الحملات التوسعية التي قادها السلطان سليم باتجاه البلاد العربية حققت لأولاده ملكاً قوياً وعرشاً متيناً، كما أنها حملت الدولة العثمانية مسؤولية الدفاع عن الشعوب الخاضعة لسيطرتها، خاصة أن المسلمين بدؤوا يتطلعون إلى مساعدة العثمانيين لهم بعد أن اعتدى البرتغاليون على المدن والموانئ الإسلامية في السواحل الأفريقية بالإضافة الى ملاحقة الإسبان للمسلمين الأندلسيين الهاربين إلى شمال افريقيا، و بالتالي أعطت لدولتهم الناشئة طابعاً دينياً، كان آباؤه وأجداده يطمحون لتحقيق ذلك، بالإضافة إلى منح السلاطين العثمانيين ألقاباً إسلامية ضمنت لهم هيمنة دينية على العالم الإسلامي[١].

١ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص١٤٦.

١- أوضاع أوروبا عند تسلم السلطان سليمان الحكم :

خلال الفترة التي تسلم فيها السلطان سليمان القانوني الحكم، ظهر مجموعة من الحكام والملوك هدفهم والتوسع والسيطرة وكانوا يعدون عمالقة في العلاقات الدولية، سواء أكان ذلك في الغرب الأوروبي أم في بلاد المشرق ومن أبرزهم :

١ _ الإمبراطور شارل الخامس (شارلكان): ملك إسبانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

٢ _ فرانسوا الأول : ملك فرنسا وكان ينافس شارل الخامس على عرش الإمبراطورية .

٣ _ هنري الثامن : ملك إنكلترة الذي تمكن من تحويل إنكلترة الى دولة قيادية، لعبت دوراً كبيراً على الصعيد العالمي من القرن السادس عشر حتى الحرب العالمية الثانية .

وفي الشرق ظهر أيضاً مجموعة من العمالقة الذين يعدون من بناة الدول والإمبراطوريات ومن أبرزهم: سليم الأول وسليمان القانوني وإسماعيل الصفوي[١].

ومن الواضح أن نظرية التوازن الدولي كانت مسيطرة على العلاقات الدولية في أوروبة كما أنها سيطرت أيضاً على أحوال المشرق العربي، الذي ظهرت فيه، الدولة العثمانية التي كانت على استعداد تام لحماية البلاد العربية ولمواجهة البرتغاليين، في الوقت الذي فقدت فيه الدولة الصفوية القدرة على إقامة إمبراطورية في الشرق العربي، كما أنها لم تعد قادرة على الوصول الى البحرالمتوسط، لأن العثمانيين كانوا قد أغلقوا الطريق أمام الدولة الصفوية .

وبينما كانت الدولة الصفوية مستعدة للتحالف مع البرتغاليين والدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية، كانت الدولة العثمانية قد تحالفت مع فرنسا على اعتبار أن عدوهما مشترك وهو شارل الخامس (شارلكان) إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة[٢]، ومن الجدير بالذكر أنه حتى عام/١٠٠٤هـ/١٥٩٦م/ كانت كل المسائل والقضايا على الصعيد الدولي تخص العثمانيين [٣]،

١- عبد العزيز سليمان فواز، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي، ص١٢٧.

٢- فواز، المرجع نفسه، ص١٢٩-١٣٠.

٣- إينالجيك، مرجع سابق، ص٥٧.

الذين كانوا يفكرون بشكل جدي التوسع في أوروبة بغية تحقيق حلمهم بإقامة إمبراطورية مترامية الأطراف.

فقد كان السلطان سليمان القانوني مطلعاً على أوضاع أوروبه وسياسات دولها منذ أن كان أميراً، والواقع أن حكام إسبانيا كانوا متورطين بالعديد من المشاكل في القرن السادس عشر فقد علم السلطان سليمان بالمنافسة الشديدة على تاج الإمبراطورية الرومانية، بين أسرتي آل فالو وعلى رأسهم فرانسوا الأول ملك فرنسا وآل هابسبورغ* وعلى رأسهم شارل الخامس(شارلكان) ملك إسبانيا(١).

بالإضافة إلى مشكلة نقل الثروة المعدنية من جبال الأنديز في أميركا وتصنيعها، ومحاولاتهم لإخضاع الثورات المتكررة في هولاندة، وهناك مشكلة الحرب مع انكلترة، وكان تداخل هذه المشاكل مع عملية تنظيم المقاومة ضد الدولة العثمانية معقد إلى حد كبير بالنسبة لحكام اسبانيا(٢).

وهذا ما جعل السلطان سليمان القانوني مصمماً على تقسيم هذه الدولة وتشتيتها، خاصة أن إسبانيا كانت الدولة الوحيدة آنذاك التي تمتلك أقوى جيش وأسطول، فضلاً عن امتلاكها مستعمرات كبيرة في أميركا أيضاً(٣).

---

* أسرة هابسبورغ، أسرة حكمت النمسا من عام /٦٧٦- ١٣٣٦هـ/١٢٧٨-١٩١٨م/، في القرن الثاني عشر اقتطعت أراضي شاسعة في سويسرا وألزاس ثم نالت عرش جرمانيا سنة /٦٧١هـ/١٢٧٣م/ مع ردولف دي هابسبورغ الذي احتل النمسا ومقاطعتي ستيريا وكارنيول، ثم ضم خلفاؤه إلى المملكة بوهيميا والمجر وإسبانيا وهولندة وقسماً من إيطاليا ومقاطعات شاسعة من العالم الجديد (اميركا)، وابتداء من عام/ ٨٤٣هـ/١٤٤٠م/، إلى نهاية الإمبراطورية الرومانية المقدسة، من هذه الأسرة كان الأمراء الناخبون الألمان يختارون الإمبراطور الجرماني. كلو، مرجع سابق، ص١١.

١ – طقوش، مرجع سابق، ص١٧٩.

٢ – باول كوليس، الإندفاع العثماني في أوروبا، ت: يوسف نعيسة وسليمان الحاج محمد، د ط ، ص١٢٣.

٣- أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٦٧.

وكان السلطان سليمان القانوني على اطلاع بالخلاف القائم بين(البابا ليون العاشر*) والراهب الألماني (مارتن لوثر*)، والاضطرابات التي كانت تعيشها بلاد المجر بسبب عدم الاتفاق بين أمرائها بالإضافة إلى صغر سن ملكها لويس الثاني، كل هذه الخلافات فتحت الأبواب أمام السلطان سليمان القانوني للتوسع في أوروبا[١].

ولكن تبين للسلطان سليمان أن الطريق إلى أوروبة صار أكثر وعورة من السابق، وذلك بسبب ظهورعدة عوامل كانت سبباً في زيادة حدة الصراع مع القوى الأوروبية، من أبرز هذه العوامل :

أولاً: انفتاح أبواب جديدة للصراع مع العثمانيين وذلك نتيجة لالتفاف البرتغاليين حول الجزيرة العربية بالإضافة إلى تواجدهم في المياه الإسلامية .

ثانياً: ازدياد قوة آل هابسبورغ في المجر والنمسا ودخولها إلى دائرة الصراع إذ كانت تحلم بإمبراطورية كبرى في شمال الدانوب، كما أن شارل الخامس(شارلكان) كان يطمح لبسط لسيطرته على البحر المتوسط .

ثالثاً: الصراع المستمر بين فرانسوا الأول وشارل الخامس(شارلكان) حول تركة الإمبراطورية الرومانية في ايطاليا[٢].

والغريب في الأمر أن السلطان سليمان تدخل في الصراع الدائر إلى جانب فرنسا حاملاً عنهما مسألة صراع حاقد بينهما، ولم يكتف بذلك بل كلف بعض بحارته بمساعدة الأسطول

---

* ليون واسمه قبل أن يكون بابا هو جان ده ميدسي ولد في فلورنسا ١٤٧٥م وانتخب بابا سنة ١٥١٣م ومات سنة١٥٢١م. فريد بك، مصدر سابق، ص٢٠٤.

*مارتن لوثر، هو راهب كاثوليكي المذهب ألماني الجنسية ولد سنة ١٤٨٣م أراد إصلاح المذهب الكاثوليكي وقال بعدم شرعية النظام الكنائسي والرهبنة على الإطلاق والإعتراف وتجسيد القربان وغير ذلك من الأمور التي أقرها أئمة المذهب الكاثوليكي منذ أجيال، فحرمه البابا وحكم بمروقه عن الدين، ولكن لوثر لم يكترث بهذه الإجراءات، بل استمر بنشر مذهبه ويؤيده بالبراهين حتى انتشر في جميع الأطراف وتبعه كثير من أمراء ألمانيا وتوفي سنة ١٥٤٦م. فريد بك، المصدر السابق، ص٢٠٤-٢٠٥.

١ - فريد بك ، المصدر السابق، ص٢٠٤-٢٠٥.

٢- محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في إنحسار المد الإسلامي عن أوروبا، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط١٩٨٧،١م، ص ٥٩.

الفرنسي، وعهد إلى الريس طرغوت باشا قيادة السفن الإسلامية التي قاتلت إلى جانب الفرنسيين[1].

إذاً لقد كانت هذه العوامل سبباً في توسيع دائرة الصراع بين العثمانيين والقوى الأوروبية، لأنها شملت كلاً من :

١_ الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر.

٢_ شرق ووسط أوروبة.

٣_ البحر المتوسط وجنوب غربي أوروبة .

أي أنها شملت تقريباً نصف الكرة الأرضية من حيث المساحة، لذا لم يكن من السهل على السلطان سليمان القانوني أن يتغلب على هذه القوى التي كانت تواجهه أحياناً بشكل فردي وأحياناً مجتمعة[٢]، وفي الوقت ذاته كان عليه أن يواجه المشكلات الداخلية التي ظهرت عشية توليه الحكم ومنها ثورة جان بردي الغزالي في الشام[٣].

ومن جهة أخرى وفي خضم الصراعات التي كانت تعيشها أوروبة أراد فرانسوا الأول ملك فرنسا أن يستغل قوة الدولة العثمانية ومكانتها ويكسبها لصالحه، لأنه اعتقد أن الدولة العثمانية هي التي ستحد من طموحات شارل الخامس (شارلكان)[٤]، وقد حصل هذا فعلاً بعد أن وقع الملك الفرنسي فرانسوا الأول أسيراً لدى البابا وذلك بعد معركة بافيا* سنة/ ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م/ [٥] التي قامت نتيجة لرغبة فرانسوا الأول بضم الولايات الإيطالية إلى فرنسا، ولكن الدول الأوروبية وقفت ضده وكانت له بالمرصاد، ونتيجة لوقوع فرانسوا الأول في الأسر لجأت والدة الملك الفرنسي الملكة لويزا دوسافواي إلى السلطان سليمان القانوني طالبة

---

١ – عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقية الشمالية،٢ج، ت: محمود علي عامر، بيروت، دار النهضة العربية، ط١٩٨٩،١م، ج١،ص٢٣٥.

٢ – هريدي، مرجع سابق، ص٦٠.

٣ – أرسلان، مصدر سابق، ص١٥١.

٤ – أرسلان، المصدر نفسه، ص١٥٣.

* بافيا مدينة تقع في الشمال الغربي من ايطاليا، جنوب ميلانو. فريد بك، مصدر سابق، ص٢٠٩.

٥ – اينالجيك، مرجع سابق، ص٥٧.

المساعدة منه[1]، فأرسلت رسالة إلى السلطان سليمان القانوني تطلب منه تقديم يد العون من أجل إطلاق سراح ابنها، ولكن فرانسوا الأول تمكن فيما بعد من أن يتخلص من الأسر بموجب معاهدة مدريد عام/٩٣٢هـ/١٥٢٦م/، ولكنه بقي ضمنياً مصراً على التحالف مع السلطان سليمان القانوني[2].

ويبدو أن هذه الهزيمة التي منيت بها فرنسا أخلت بالتوازن الدولي في أوروبة، وألقت الذعرمن جديد في قلوب الدول من تزايد نفوذ شارل الخامس(شارلكان) في أوروبة، فتألف حلف كونياك/٩٣٢هـ/١٥٢٦م/ لإعادة التوازن في أوروبة، وكان هذا الحلف مؤلفاً من البابا كلمنت السابع وفرانسوا الأول وسفورزا(وهومن الأسرة الحاكمة السابقة في ميلان) وإنجلترة والبندقية وكان هدف هذا الحلف الظاهري هو التأكيد على امتلاك سفورزا لميلان، عندها خشي شارل الخامس(شارلكان) من هذا التحالف القوي في وقت كان يعاني فيه من مشكلات داخلية، لأن جيشه قد تمرد بسبب تأخرالمرتبات وقلة المؤن، والسلطان سليمان القانوني كان آنذاك على أبواب المجر وعلى وشك الانتصار، كما بينت الطبقة الحاكمة في مدينة البندقية لشارل الخامس (شارلكان) أنها مستعدة أن تكون تابعة للأتراك على أن تكون تابعة له، كل هذه الأمور جعلت شارل الخامس(شارلكان) في موقف لا يحسد عليه[3].

فقرر شارل الخامس (شارلكان) أن يوكل أخيه فرديناند(وهو زوج أخت لويس ملك المجر) نيابة عنه في فيينا بغية الدفاع عن أوروبة أمام الزحف العثماني، وقد كان طموح فرديناند أن يصبح ملكاً على المجر وبوهيميا، أما شارل الخامس (شارلكان) فوجد نفسه أمام ثورة البلديات في اسبانيا ومجموعة الأحداث التي نتجت عن حركة الإصلاح الديني مما عرقل خطته بالقيام بحملة صليبية ضد العثمانيين[4].

---

١ – فريد بك، مصدر سابق، ص٢٠٩.

٢ – أرسلان، مصدر سابق، ص١٥٣–١٥٤.

٣– عبد العزيزرمضان، تاريخ أوروبا والعالم الحديث من ظهور البرجوازية إلى الحرب الباردة،٢ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م ، ج١، ص١٦٨.

٤– طقوش، مرجع سابق، ص١٨٠.

وبهذا استمرّ الصراع بين القوى الأوروبية والدولة العثمانية لفترة طويلة من الزمن، وكانت كل بلدان الشرق الأدنى ودول أوروبة نفسها معنية بهذه المواجهات[١].

أما فرنسا فقد حاولت بشكل دائم أن تكون حليفة للدولة العثمانية بحجة حمايتها من خطر الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وفي ذات الوقت كان ملوك فرنسا بحاجة للدولة العثمانية بسبب المواجهات الدائمة مع أوروبة، أما الدولة العثمانية فرأت أن وجود دولة أوروبية قوية تقف إلى جانبها في مواجهة التطورات في المنطقة لأنه يصب في مصلحة الدولة العثمانية حتى يعلم إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أن هناك دولتين متحالفتين ضده (الدولة العثمانية وفرنسا)، وبالتالي فمن مصلحة الدولة العثمانية أن من مصلحتها أن تبقى فرنسا مصدر تهديد لإسبانيا لكي لا تصعّد هذه الأخيرة حملاتها ضد مسلمي شمال أفريقيا وخاصة في الجزائر وغيرها من الولايات العثمانية، أما بالنسبة إلى المدن الإيطالية مثل جنوة والبندقية فكانتا مضطرتين إلى المواربة بين الطرفين، بينما كان أمراء ألمانيا يتأرجحون بين استغلال ما يفرضه الأتراك من توازن في مواجهة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبين رفضهم أحياناً الاستفادة من العروض العثمانية بوصفهم مسلمين[٢].

ولما كان من مصلحة فرنسا أن تبقى الدولة العثمانية إلى جانبها وأن تكسب دعمها، اتخذ الملك الفرنسي فرانسوا الأول خطوة كبيرة كان لها أبعاد مستقبلية خطيرة على الدولة العثمانية وتمثلت هذه الخطوة بعقد معاهدة بين سليمان القانوني وفرنسوا الأول عام/٩٤٢هـ/١٥٣٦م/ سميت (بمعاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية)[٣].

ومن أهم نصوصها:

١- لقد منحت هذه المعاهدة حرية التجول والاتجار والزيارة البحرية للسفن الفرنسية[٤].

٢- أجازت المبادلات الاقتصادية بين الطرفين بدون ضرائب.

---

١ - كلو، مرجع سابق، ص٥٣.

٢ - طقوش، مرجع سابق، ص١٨٠.

٣ - رفيق، مصدر سابق،ج٣، ص٢٥.

٤ - فريد بك، مصدر سابق،ص٢٢٣.

٣- لا يحق للدولة العثمانية أن تستخدم التجار الفرنسيين أو خدمهم أو سفنهم أو حتى اللوازم الموجودة فيها ، في خدمة السلطان العثماني إلا بموافقتهم، ودون إجبارهم على ذلك[١].

٣- كما صار للسفن الفرنسية الأحقية في أن ترسو في الموانئ العثمانية دون تفتيش إلا في أماكن معينة.

٤- أصبح من حق القنصل الفرنسي في الإسكندرية واستنبول أن ينظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون أطرافها من رعايا الملك الفرنسي.

٥- لا يحق للقاضي العثماني أن يحكم على التجار والرعايا الفرنسيين بناء على شكاوي الأهالي إلا بوجود الصدرالأعظم أو من يمثله .

٦ - لقد مُنِحَ ملك انكلترة والبابا حق الإستفادة من هذه المعاهدة عند الرغبة ولكن بعد أن يتم تصديقها من قبل فرنسا[٢].

٧- لقد منحت هذه المعاهدة للمقيمين على أراضيها من الأجانب الحرية الشخصية، إذ أعفتهم من دفع الجزية ومنحتهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية[٣].

وبعد قراءة نصوص هذه المعاهدة تبين لنا أن هذه الإمتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لفرنسا عام/٩٤٢هـ/١٥٣٦م/ عدت نقطة تحول هامة وخطيرة في تاريخ الدولة العثمانية على الصعيد الإقتصادي والإجتماعي والسياسي وحتى العسكري، لأنها فتحت الباب على مصراعيه لفرنسا والعديد من الدول الأخرى، كي تتوغل في جسد الدولة العثمانية وتتمكن فيما بعد من السيطرة عليها وشلّ حركة هذه الدولة واستنزاف خيراتها، والسؤال الذي يطرح نفسه هو:

ألم يدرك السلطان سليمان القانوني انطلاقاً من خبرته السياسية الواسعة مدى خطورة وأبعاد هذه الخطوة التي قام بها؟

١ - فريد بك، مصدر سابق، ص٢٢٦.

٢ - أحمد رفيق، مصدر سابق،ج٤، ص٣٥٨ .

3-Zeki Velidi Togan, Umumi Tarihi, Istanbul, 1981,s 98.

أم أنه أراد أن يلفت أنظار أوروبة إلى تحالفه مع فرنسا بغية مهاجمة فيينا حلمه الرئيسي.

أم أنه كان يرى أن الوقت قد حان لتعزيز قوة بلاده الاقتصادية على غرار القوة العسكرية التي تمتلكها دولته !

ولكن يبدو أن السلطان سليمان القانوني عندما وقع على هذه المعاهدة لم يكن مدركاً أبعاد هذه المعاهدة ونصوصها التي كانت تخدم بشكل كبيرالرعايا الأجانب وحكامهم على حساب السكان المحليين، لكن رضا نور يؤكد أن السلطان سليمان أراد من عقد المعاهدة مع فرنسا زيادة الانقسام الأوروبي، غيرأنه وقع في تصوراته التي اعتمد فيها على زوجته روكسلانه[1].

ويتبين لنا أيضاً أنه لم تكن هناك قراءة كافية لهذه المعاهدة ؟ ربما لأن السلطان وقتها قد بدأ يتخلّى عن واجباته بالإشراف المباشرعلى شؤون الدولة ليلقي بالمسؤولية على عاتق الصدرالأعظم الذي كان في أغلب الأحيان غير كفؤ بمنصبه، وإنما كان يستغله للقيام بالمؤامرات والمكائد، لتحقيق أهدافه بالتعاون مع نساء القصر أحياناً.

إذاً لقد أسهمت هذه الامتيازات في إثارة الفتن كما أنها أربكت الدولة العثمانية وشغلتها سنين طويلة، لهذا اتخذت الدول الأوروبية من هذه الامتيازات ذريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية رعاياها وبالتالي الإحتلال والسيطرة على أراضي الدولة العثمانية فيما بعد.

وأشار بعض المؤرخين الأتراك أمثال جودت وعطا باشا وغيرهم، أن السلطان سليمان لم يوقع الإمتيازات بناءً على دراسة وإنما بناءً على رغبة زوجته روكسلانه، لأن فرنسا في تلك المرحلة كانت تشدُّ الخناق على اليهود، وتذكر سجلات الديوان الهمايوني أن الوفد الفرنسي الذي زار استنبول سنة ١٥٣٥م لدى مقابلته للسلطان سليمان كانت روكسلانه حاضرة في المجلس، وقد سألت الوفد الفرنسي عن حالة اليهود بالفرنسية، والسلطان سليمان لم يكن يعرف

---

١ - نور، مصدر سابق، ج٦، ص٦١٥.

الفرنسية، وأرفقت سؤالها بضحكة أضاعت الصمت الذي حلَّ على القاعة، وقد فهم الوفد الفرنسي ما قصدته زوجة السلطان[1].

والملفت للأمر أن سجلات الديوان الهمايوني ذكرت لنا جزءاً من الحادثة ولم تسعفنا في إيضاح ردود الوفد الفرنسي، لكن ما يفهم أن اليهود توافدوا إلى استنبول بأعداد كثيرة مابين ١٥٣٥-١٥٤٠م، بحجة الحرب الأهلية التي تواجهها فرنسا، وقد أسكنهم السلطان سليمان منطقتي البك أوغلو ومنطقة السليماني.

---

[1] – أرشيف رئاسة الوزراء، سجلات الديوان الهمايوني، سجل رقم ٣٧٥،ص١٣.

٢- حياة السلطان سليمان القانوني:

ولد السلطان سليمان بن سليم الذي عرف بالأول أوالقانوني[١]، " في أول شعبان سنة /٩٠٠هـ/١٤٩٥م/[٢]، وتولى الحكم في ٤ شوال سنة /٩٢٦هـ/١٥٢٠م/[٣].

ومن المرجح أن ولادته كانت في مدينة طرابرظون* على ساحل البحر الأسود، التي تسلم فيها الأمير سليم مهامه كوالٍ لهذه المدينة التي تقع بين اليونان والقوقاز[٤].

لقد كانت طفولة سليمان القانوني تشبه الى حد كبير طفولة كل أمراء آل عثمان، فقد كان في المراحل الأولى من عمره تحت إشراف وعناية أمه والنساء القائمات على خدمتها، وقد عرف أن والدته الخاتون حفصة كانت ابنة خان التتر* إذ عرف عن الخانات أنهم يتزوجون من شركسيات، ولوحظ أن السلطان سليمان قد ورث الملامح الشركسية عن والدته التي كانت على قدر كبير من الجمال، وكانت أمه في السابعة عشرة من عمرها عندما أنجبت سليمان، وعندما بلغ سن السابعة من عمره أشرف على تربيته والده السلطان سليم الذي عرف بطباعه الحاد، حيث كان قاسياً وشديداً في تربية ابنه الذي لم يعش معه سوى فترة قصيرة في أثناء صغره نتيجة انشغاله بحملاته العسكرية، لقد تعلم سليمان القراءة والكتابة والقرآن والموسيقى

---

١ - زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، بيرق، دار الرائد العربي،١٩٨١م، ص٢٣٩.

٢ - فريد بك، مصدر سابق، ص ١٩٨.

٣ - حليم، مصدر سابق، ص٨٧.

* طرابرظون، مدينة في تركيا تطل على البحر الأسود، سيطر عليها السلطان محمد الثاني سنة /٨٦٤هـ/١٤٦٠م/. كلو، مرجع سابق، ص٤١.

٤ - كلو، المرجع السابق، ص١٧.

* غلب اسم التترعلى جميع الأتراك غيرالعثمانيين، وهذاهوإصطلاح الروس واصطلاح الكثير من الأوروبيين وذلك بأن يسموا أتراك السلطنة العثمانية تركاً والأتراك الذين في روسية الحالية تتراً . أرسلان، مصدرسابق، ص٤٥-٤٦.

والحساب، و أيضاً تدرب على الرماية بالقوس وتمارين رياضية تروض البدن كما أنه كان محباً للخيل حيث قضى ساعات طويلة برفقة الخيول في مزارع تربيتها[1].

وبعد ختانه في سن الحادية عشرة ترك سليمان الجناح المخصص للحريم وأمه وأصبح له منزل خاص ومزود بالخدم، وعندها بدأت مرحلة صقل شخصية سليمان الطفل، زُوِّد بالكثير من الكتب القيمة لكي تساعده على تنمية فكره، بالإضافة الى تعلمه العديد من اللغات مثل العربية، والفارسية .

وفي سن الخامسة عشرة عينه جده السلطان بيازيد والياً على ولاية قره حصار*، ولكن عمه أحمد الذي كان ولياً للعهد رفض هذا القرار وطالب بنقله الى مدينة بولي لكي يكون بعيداً عن مدينة أماسيا التي كانت عاصمة ولايته وتم له ذلك، و لكن يبدو أن عمه أبدى عدم رضاه أيضاً عن وجوده في مدينة بولي لأنه كان يعد سليمان منافساً له في الحكم، ولذلك أرسله أخيراً في عام /٩١٤هـ/١٥٠٩م/ والياً على مدينة كفا (ثيودوسيا) في بلاد القرم وبقي فيها ثلاث سنوات، ولما بلغ السابعة عشر من عمره عين من قبل والده والياً على استنبول وبعدها على مغنيسيا التي تقع على ساحل بحر إيجة، وبقي فيها إلى أن أصبح سلطاناً للبلاد[2].

لقد فاجأ الموت السلطان سليم الأول، وتم إخفاء الأمر لفترة قصيرة من قبل حاشيته تفادياً لأي تمرد قد ينتج عن الإنكشارية عند سماعهم الخبر إلى حين قدوم السلطان الجديد[3]، عندها أرسل كبير الحجاب بري باشا إلى سليمان القانوني رسالة يطلب منه القدوم بعد أن أخبره بوفاة والده وكان فحوى هذه الرسالة (أن سيف آل عثمان ينتظره في الضريح خارج المدينة) ولكن يبدو أن رجال سليمان ومستشاريه كانوا قد شككوا بهذه الرسالة وأنذروه بأنها قد تكون خدعة لجلبه إلى المدينة والقضاء عليه من قبل بعض المنافسين على الحكم من أقاربه، ولكن

---

١ - كلو، مرجع سابق، ص٤٢.

* قره حصار أو شنقره حصار، مدينة صغيرة تقع شمال الأناضول الأوسط على بعد ١٠٠كم من البحر الأسود . كلو، المرجع السابق، ص٤٢ .

٢ - كلو، المرجع السابق ، ص٤٢-٤٥.

٣- هارلود ترامب، سلطان الشرق العظيم سليمان القانوني، ت: شكري نديم، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٧م، ص١٦

الرسول كان قد أكد أنه تسلم هذه الرسالة من يد الصدر الأعظم بري باشا وعندما تأكد سليمان من صحة ما ورد، توجه نحو العاصمة، ليتسلم الحكم وكان عندها لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، ولما وصل إلى العاصمة استقبلته الجماهير وسط ترحاب كبير، وبهذا يكون سليمان قد تسلم الحكم في القرن السادس عشر الميلادي، القرن العاشر للهجرة وهو الحاكم العاشر من آل عثمان، ولكنه كان وحيداً بلا إخوة ولم يترك له والده أعماماً أحياء، بسبب قانون أسرتهم القاسي الذي سنه السلطان محمد الفاتح سنة/٨٦٥هـ/١٤٦١م/ الذي يخول السلطان الحاكم قتل جميع إخوته، وقد أرادوا من ذلك عدم قيام منافسة أسرية على العرش، ويبدو أن الفاتح بقراره هذا قد كسر عصا السلطان الحاكم وجسد المسألة الذئبية في بني عثمان[١].

أول إجراء اتخذه السلطان سليمان الأول بعد تسلمه عرش الإمبراطورية العثمانية هو وهب جند الإنكشارية المنحة المالية بمناسبة تسلمه الحكم، فضلاً عن إصداره عفواً بحق تجار مصريين سجنوا لأنهم أغضبوا والده السلطان سليم[٢].

وكان هدف السلطان سليمان من هذه الإجراءات أن يظهر للشعب أن حكمه سيقوم على العدل و التسامح[٣].

وبهذا تولى القانوني العرش وسط تسامح وتفاؤل كبيرين[٤].

وقد جاء في كتاب الأعلام لقطب الدين النهرواني نقلاً عن شكيب أرسلان يصف السلطان سليمان القانوني:

" كان سلطاناً سعيداً، ملكاً أيده الله بنصر الإسلام تأييداً، ولي السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان في سنة ست وعشرين وتسعمئة، وجلس على تخت السلطنة وما دمي أنف أحد، و لا أريق في ذلك محجمة من دم، ومولده سنة تسعمئة، واستمر في السلطنة تسعاً وأربعين سنة ، وهو سلطان غازٍ في سبيل الله، مجاهد لنصرة دين الله، ورغم أنوف عداه، بلسان سيفه

[١] - بجوى باشا، تاريخ بجوى،٦ أجزاء،استنبول،١٣٣٧هـ،ج١،ص٢٤.

٢- ترامب، مرجع سابق، ص١٧-٢٨.

٣ - كلو، مرجع سابق، ص٤٦.

٤- ترامب ، المرجع السابق، ص٤٦.

وسنان قناه، كان مؤيداً في حروبه ومغازيه، مسدداً في آرائه ومغازيه، مسعوداً في معانيه ومغانيه، مشهوداً في وقائعه ومراميه، أيان سلك ملك، وأين توجه فتح وفتك، وأين سافرسفر وسفك، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق والغرب، وافتتح البلدان الشاسعة والواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفاروالملاحدة بقوة الطعن والضرب، وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في القرن العاشر، مع الفضل الباه، والعلم الزاهر، و الأدب الغض، الذي يقصرعن شأوه كل أديب وشاعر، إن نظم فعقود الجواهر، أو نثر فمنثور الأزاهر، وإن نطق قلد الأعناق نفائس الدرالفاخر، له ديوان فائق بالتركي، وآخر عديم النظير بالفارسي، تداولهما بلغاء الزمان، وتعجز أن تنسج على منوالهما فضلاء الدوران" [1].

ولما وصل خبر تربع السلطان سليمان القانوني على عرش السلطنة العثمانية، اتفق ملوك أوروبه جميعاً والبابا ليون العاشر على" أن حملاً وديعاً قد خلف أسداً مفترساً، لأن سليمان شاب غير مجَرِّب، وكل شيء يدل على الطمأنينة " هذا ما ذكره الطبيب باولو جيوفيو الذي كان يحلل للبابا ليون العاشر الأحداث العالمية المهمة[2].

أما عن الصفات الجسدية والنفسية للسلطان سليمان، فكثيرة هي الوثائق التي وصفت السلطان سليمان، ومنها وثيقة وصفه فيها سفير البندقية في استنبول بركلوميوكونتاريني الذي قال عنه " كان سليمان طويل القد لكنه نحيل القامة، ضعيف البنية، وكان لأنفه بعض الفرط في الطول، ولملامح وجهه شئ من الرقة، فهو صغير الشارب، قصير اللحية، مليح العطاف مع قليل من الشحوب"[3].

---

[1]- أرسلان، مصدر سابق، ص١٦٧.

[2] - ترامب، مرجع سابق، ص٣٠.

[3]- مارينو سانوتو، أ.دياريي، البندقية، ١٨٨٩م. وثيقة منشورة في'سليمان القانوني'، كلو، مرجع سابق، ص٤٧.

كماعرف عنه أنه كان حاد الطباع ويحاول دائماً أن يخفي مزاجه الحاد بستار من الصمت، وكان نادراً ما يبتسم كما أنه كان جاداً ووقوراً يتكلم قليلاً وبشكل حاسم، وربما قد ورث طبعه هذا من والده السلطان سليم [١].

كما أنه كان رجلاً وقوراً، وصاحب إرادة[٢]، ويتأنى عند إصدار القرارات ولا يتراجع أبداً عن أي قرار يصدره [٣].

وفي وصف آخر لسفيرالإمبراطورالنمساوي فرديناند الذي يدعى أوجيرغيسلين دي بوسيك* يقول: " إذا سألتني ما هي صفات سليمان كرجل فأقول :إنه كرجال العهود القديمة، تقاطيع وجهه وهيكل جسمه يحملان طابع العظمة، يليق بالعظمة السياسية التي يتمتع بها، إنه مقتصد معتدل في مأكله ومشربه، وذلك منذ شبابه، رغم أنه كان يمكنه أن يأخذ لنفسه حرية عظمى حسب قوانين دينهم"[٤]، "ولكنه كان مغرماً بزوجته (روكسلانه)، وحبه المتزايد لها جعله يرضى بقتل ابنه مصطفى. وحتى هذه النقيصة تنسب عادة إلى غلبتها عليه بجمالها الخلاب وإكسير الحب"[٥]، ومن المؤكد أنه بعد أن اختارها لتكون الزوجة الشرعية ورغم جمالها فقد كان سليمان شهوانياً، لا يسأم عن معاشرة النساء، وكانت روكسلانه تعلم أخباره، لكنها لم تشأ أن تعاتبه فتركته يسرح ويمرح في لهوه، وحينما عاتبت نوربانو زوجها السلطان سليم الثاني

١- برنارد لويس، استانبول حضارة الخلافة الاسلامية، تعريب سيد رضوان علي، الدار السعودية، ط٢، ١٩٨٢م، ص٥٤.

2 - İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN,s248.

3- İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, S 307 .

* أوجيرغيسلين دي بوسيك، كان سفير أرشدوق النمسا فرديناند في بلاط السلطان سليمان في استنبول سنة/٩٦٢هـ/١٥٥٥م/ وبقي حتى عام /٩٦٩هـ/١٥٦٢م/، وتعتبرالرسائل الأربع التي كتبها خلال إقامته في الدولة العثمانية هي من أفضل الوثائق المعتمدة كون أنها كانت تعكس واقع الدولة العثمانية وبدقة في القرن السادس عشر،كلو، مرجع سابق، ص٢٨. وقد ألف كتاباً عن الدولة العثمانية ونظمها العسكرية والسياسية باللغة اللاتينية وطبع هذا الكتاب في ليدن ١٦٣٣م. لويس، مرجع سابق، ص٥٤.

4– İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, S 307 .

٥- أوجيرغيسلين بوسيك ، وثيقة منشورة، في" استانبول حضارة الخلافة الإسلامية"، لويس، المرجع السابق، ص٥٤-٥٥.

عن مجونه ولهوه، قال لها إن والدتي كانت رائعة الجمال ورغم ذلك فقد كان لوالدي العديد من المحظيات رغم أنفها، فهل تريدين أن أكون أقل منه شأناً " [1].

وفي وصف آخر للسلطان سليمان القانوني يقول براجادينو سفير البندقية في استنبول:

" كان السلطان سليمان دقيقاً في أمور البروتكول. حريصاً على أداء صلوات الجمعة في مسجد آيا صوفيا . وكان السلطان يركب حصانه الأبيض الذي تزينه الجواهر، ويخترق بموكبه المدينة إلى الجامع وسط حشود الأهالي. ويلبس السلطان سروالاً حريرياً زاهي الألوان ، يغطيه فرو الأرمين، وهو الفروالأبيض البالغ النعومة .

ويضع على رأسه عمة بيضاوية عريضة ثبتت فيها الجواهر حول ريشات الطاووس التي تحملها . وخدمه من حوله يعطرونه ويعطرون الطريق" [2].

لقد عرف عن السلطان سليمان أنه كان شاعراً وله ديوان كبير حمل اسم "مخلصه محبي"[3]، كما أنه حاول أن يلخص يومياته في دفتر مذكرات خاص به يدعى(سليمان نامه) ، كان يدون فيه القليل من الأحداث اليومية التي كان يعيشها، ويعبر عنها أحياناً بكلمة وأحياناً بجملة صغيرة .

ومن هذه المدونات :

٧ تموز وردت أنباء عن احتلال سباكس وقد وصلت المعسكرمائة رؤوس من جنود حاميتها لم ينجوا مع الآخرين.

٨ تموز وضعت هذه الرؤوس على خط الزحف ، على نهر سافا، يجب بناء جسر فوق مياه الفيضان .

---

[1] - فيردون تولينشتي، عشق السلاطين، بيروت ، دار الروائع، د.ت، ص ١٧٥-١٨٠.

[2] - حسين مؤنس، الجارية روكسلانة تتزوج السلطان سليمان القانوني، الإسكندرية، دار ومطابع المستقبل، د ت، ص٤١.

[3] - أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣٥٤.

٩ تموز هنا كان السلطان سليمان يتكلم عن نفسه "يسكن في كوخ ليعجل في بناء الجسر بحضوره . السلطان يظهر نفسه بإستمرار قرب الجسر"

١٨ تموز كمال الجسر، نهر سافا يرتفع إلى مستواه ملامساً الجسر.

١٩ تموز الماء يفيض فوق الجسر فيجعل العبور متعذراً، تصدرالأوامر للعبور بالقوارب المسطحة "[١].

ومن الجدير ذكره عدّ السلطان سليمان القانوني خبيراً في مجال الحقوق الآداب ومحباً للعلوم، فكان يستبدل النقود بالمخطوطات عوضاً عن دفع الجزية[٢] ، وكان يتحرى دائماً عن الفلاسفة البيزنطيين ليترجموا له كتب العلوم والجغرافية[٣]، كان خطاطاً وله خبرة بالأحجار الكريمة، واهتم بنشر الكثير من الكتب عن تاريخ الدولة العثمانية في أوروبه، على سبيل المثال سنة/٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م/ نشر ٥٦ كتاباً، و٥٩ كتاباً سنة/٩٣٩هـ/١٥٣٣م/ والكثير من الكتب الأخرى.

بالإضافة إلى ذلك كان السلطان سليمان القانوني داهية في النواحي الدبلوماسية وإدارة الدولة. حيث جاء بعد السلطان محمد الفاتح وأباه السلطان سليم من ناحية الدهاء العسكري، وصنف كحاكم نموذجي لا يقارن إلا بقليل من الشخصيات العالمية[٤]، وقد تحدث عنه الكثير من الكتاب الأجانب فقد قيل عنه" لا يوجد أي حاكم في عصره حصل على تعليم أفضل من سليمان القانوني ولا نشأ نشأة علمية لامعة في إدارة دولة عظمى مثله" [٥].

---

١ – ترامب، مرجع سابق، ص٦١–٦٠.

٢ – أحمد مراد، عثماني تاريخي،٦أجزاء، استنبول، ١٣٣٤هـ، ج٣،ص٢٧٠.

٣ – ترامب،المرجع السابق، ص٧٢.

٤– أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣٥٤.

5 - S.n.fisher , a history of the middle east, New York, 1959, p222.

وكتب عنه أيضاً " كانت شخصيته أعظم من شارل كونت*، طور الإمبراطورية العثمانية التي يحكمها وسلمها إلى خلفه بدرجة من التكامل، لا يمكن قياسها مع تكامل أي دولة أوروبية خلال المدة ذاتها "[١].

من الملفت للانتباه أنه أُطلق على السلطان سليمان الكثير من الألقاب، فأطلق عليه الأوروبيون لقب العظيم والكبير أما العثمانيون فقد أطلقوا عليه لقب القانوني، انطلاقاً من الإصلاحات التي تمت في عهده والدقة في تطبيق القوانين والتطورات التي انعكست على نظام الدولة[٢].

وقد قال عنه رضا نور" لا شك بأن القانوني كان رجلاً عظيماً، غير أن عصره تميز بالعظماء من الشخصيات العسكرية والمدنية التي وقفت إلى جانبه بشكل منحته ومنحت دولته عظمة قلما يعرف التاريخ لها مثيلاً "[٣]

ويبدو أن السلطان سليمان قد أطلق على نفسه أيضاً مجموعة لا بأس بها من الألقاب بصفته حاكماً للبلاد، ففي المناسبات وحتى في مراسلاته مع الملوك والحكام كان يصطنع لنفسه الألقاب، ففي إحدى المخطوطات لقب السلطان سليمان نفسه (خليفة رسول رب العالمين وحايز الإمامة العظمى وإرث الخلافة كابراً عن كابر) وعندما قام السلطان سليمان بإنشاء وقفية لينفق من ريعها على كسوة الكعبة والمدينة المنورة لقب نفسه (ظل الله في أرضه) ومن بين

---

*شارل كونت أو شارل الخامس، ولد هذا الملك سنة ١٥٠٠م، وورث ملك إسبانيا عن والدته جان ابنة فرديناند وايزابيلا من ملك إسبانيا، وانتخب أميراً لألمانيا بعد موت جده لأبيه الإمبراطور مكسميليان وقضى أيامه في محاربة فرانسوا الأول، وحارب خير الدين باشا أمير البحر العثماني الشهير بباربروس، وقصد الإستيلاء على مدينة الجزائر فلم يفلح واضطهد البروتستانت إلا أنه اضطر أخيراً في سنة ١٥٤٧م أن يمنحهم الحرية الدينية بعد أن حاربوه وانتصروا عليه،وفي سنة ١٥٥٦م سئم الملك فتنازل عن إسبانيا لإبنه فيليب الثاني وعن ألمانيا وما بها لأخيه فرديناند واعتزل في أحد الأديرة حتى توفي سنة ١٥٥٨م. فريد بك، مصدر سابق، ص٢٠٤.

1 –N.iorga, voyageurs français dans l'orient, p21.

٢– أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح السعداوي،٢ج، استنبول،مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول، ج١، ص٣٥.

٣ – نور، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٥٨.

ألقابه أيضاً التي عثر عليها في إحدى المخطوطات (ظل الظليل على كافة الأمم) بالإضافة إلى (المجاهد في إعلاء كلمة الله).

وفي مقدمة الرسالة التي أرسلها السلطان سليمان القانوني إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا سنة ١٥٣٣م كتب السلطان سليمان "من سلطان السلاطين وقيل الأقيال وموزع التيجان على ملوك المعمورة، من ظل الله على الأرض السلطان باديشاه خاقان البحرالأبيض والبحرالأسود والروملي والأناضول وقرمان وبلادالروم وذي القدر وديار بكر وكردستان وأذربيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة والقدس وجزيرة العرب كلها واليمن، وعديد من الأقطار الأخرى التي أخضعها بحد السلاح أسلافه الأمجاد وأجداده الأشاوس التي فتحتها أيضاً جلالته السنية بحسامها الوضاء وسيفها القاطع...."[١]

ويبدو من خلال هذه الألقاب التي تنسب إلى السلاطين العثمانيين أنها كانت تتناسب مع إنجازاتهم التي تمثلت بالسيادة والسيطرة، كما أنها كانت ترضي غرورهم خاصة بعد الانتصارات التي حققها السلاطين العثمانيون الأوائل، ومنهم السلطان سليمان القانوني، حيث بلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها، وربما كان هذا سبباً كافياً ليطلق العنان في تلقيب نفسه بألقابٍ مختلفة.

وتفيدنا المصادر العثمانية أن السلطان سليمان القانوني من أكثر سلاطين بني عثمان ألقاباً، لدرجة أن فرماناته حفلت بتلك الألقاب التي تؤكد هيبته الزمنية والدينية، وإذا كانت مساحة إمبراطوريته قد بلغت ١٤,٩٨٣,٠٠٠كم٢، فإن سكان تلك المساحة الأرضية كانوا باستمرار يرفعون أكف الضراعة إلى الله بدوام سلطانه وعزه، لأن فراماناته الموجهة إلى حكام الولايات كانت غالباً بمثابة تحذيرلمن قد يرتكب الظلم بحق رعية هو حاميها[٢].

١ – بركات، مرجع سابق، ص٤٦.

2 - İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN,s 480.

- عائلة السلطان سليمان :

أما بالنسبة لعائلة السلطان سليمان فقد رزق بعدد من الأولاد وهم :

ولي العهد شهرزاده* مصطفى/٩٢٨-٩٦٠ هـ/ /١٥٢١_ ١٥٥٣م/.

شهرزاده محمد/٩٢٨-٩٥٠هـ/ /١٥٢١_١٥٤٣م/.

مهرماه سلطان السلطانه/٩٢٨-٩٨٦هـ/ /١٥٢٢_١٥٧٨م/.

شهرزاده سليم الثاني /٩٣٠-٩٨٢هـ/ /١٥٢٤_١٥٧٤م/.

شهرزاده بايزيد /٩٣١-٩٦٩هـ/ /١٥٢٥_١٥٦٢م/.

شهرزاده جهانكير/٩٣٧-٩٦٠هـ/ /١٥٣١_١٥٥٣م/[١].

بالإضافة إلى شهرزاده مراد، أما بالنسبة لزوجات السلطان سليمان فقد تزوج السلطان من جارية جورجية تدعى مهدي إفران[٢] وقد سماها فيما بعد كلبهار أي "زهرة الربيع"[٣] و قد أنجبت له ولده البكر مصطفى، وتزوج أيضاً من فتاة بلغارية أنجبت له ولداً سماه مراداً و تزوج بعدها من فتاة يهودية ولدت في بولونيا ونشأت في روسيا واسمها روكسلانه وأطلق عليها السلطان سليمان فيما بعد اسم خرم (أي السعيدة) وقد أنجبت له سليماً وبيازيد ومهرماه، وقد حصل عليها السلطان سليمان من ملك القرم الذي قدمها إلى السلطان سليم فأعجبت حفصة والدته بخرم فزوجته إياها[٤].

---

* شهرزاده ، إن الأبناء الذكور من آل عثمان الذين ولدوا لإمهات من الخاصكيات واالجواري، ويطلق على الواحد منهم اسم شهرزاده، وكان الأمير يعرف حتى عهد مراد الثاني باسم جلبي، ثم جروا على إطلاق اسم شهرزاده . أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٥٧.

١- يلماز أزوتونا ، مرجع سابق،ج١، ص٣٤٨.

٢ – عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، ص١١٤.

٣– ترامب ، مرجع سابق، ص٣٣.

٤ – عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، ص١١٤.

أما عن أقرب الشخصيات إلى قلبه في القصر فقد كان إبراهيم باشا*، حيث كانا أصدقاء منذ الصبا، وعندما أصبح سليمان حاكماً للبلاد عين ابراهيم باشا قائداً للجيوش وتدرج هذا الأخير فيما بعد بالمناصب حتى أصبح صدراً أعظم[1].

ولكن يبدو أن قلب السلطان سليمان قد تعلق بروكسلانه فقد كان يحبها جداً، لدرجة أنه عندما كان يذهب للحرب كان يبقى على اتصال معها عن طريق الرسائل الملتهبة التي تعبر عن شوقه لها، وكانت هي بالمقابل تبعث برسائل الشوق والحنين المليئة بالعاطفة .

لقد كانت روكسلانه جميلة جداً، وعلى درجة كبيرة من الذكاء، إذ استطاعت أن تسخِّر حب السلطان سليمان لصالحها، فهي التي أقنعت السلطان سليمان أن تصبح قيادة الجيش من مسؤولية الصدرالأعظم، وهي التي زوجت ابنتها مهرماه من رستم باشا وعينته فيما بعد صدراً أعظم، وفي عام/٩٦٨هـ/١٥٦١م/ تمكنت روكسلانه بالاتفاق مع ابنها سليم وناسس اليهودي من قتل بيازيد لتصبح ساحة العرش خالية من أي منافس لابنها سليم[2].

لكن تعدد الزوجات لدى سلاطين آل عثمان أسفرعن مشكلة كبيرة، حيث أدى إلى إشاعة الغيرة والتنافس بينهن، إذ كانت كل أم ترغب في أن يكون ابنها ولياً للعهد، وعلى هذا تم تنفيذ الكثير من المؤامرات من قبل الأمهات اللواتي كن يتعاون مع الخصيان وفي بعض الأحيان كان الصدر الأعظم يتعاون معهن بدافع المصلحة المشتركة، وعادة تنتهي هذه المؤامرة بقتل ولي العهد الذي اختير من قبل والده[3].

وخير مثال على ذلك السلطان سليمان القانوني الذي لقبه الأوروبيون بالعظيم والكبير، ولكن يبدو أن هذا العظيم ارتكب أكبر خطأ في حياته وربما هي نقطة سوداء في مسيرته

---

* كان إبراهيم باشا مملوكاً صغيراً يوناني الأصل وكان يكبر السلطان بسنة واحدة ، وقد ولد مسيحياً في بلدة بارجا باليونان ، ثم إختطفه القراصنة وبيع عبداً للسلطان ، ثم تعلم اللغة والموسيقا والفلسفة ، وكان يتكلم اليونانية والتركية والعبرية والإيطالية والفارسية ، ثم انضم إلى حاشية السلطان سليم ، وعند تولي السلطان سليمان الحكم عام ١٥٢٠م جعل إبراهيم باشا وزيراً ، مؤنس، مرجع سابق، ص٢٣.

[1] – مؤنس ، المرجع السابق، ص٢٣.

[2] – عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، ص١١٤.

٣- طقوش، مرجع سابق، ص٥٧٠.

البيضاء، وخصوصاً عندما رضخ لأوامر زوجته روكسلانه التي حاكت مؤامرة مع الصدر الأعظم رستم باشا "زوج ابنتها" لكي يتم تعيين ابنها سليم سلطاناً للبلاد من بعد والده[1].

و هذا ما يؤكده المؤرخ صولاق باشا الذي يقول :

" كان من الغريب انتشار شائعات غير حميدة بين الجنود، كانت الخيام مملوءة بأقوال غير معقولة، وكان يقال في السر والعلن: إن السلطان قد تقدم كثيراً في العمر ونهك جسده، ولن يستطيع بعد الآن الخروج الى أي غزوة، لذا قام بتعيين رستم باشا قائداً للقواد في الأناضول، ويقال أن الأمير مصطفى كان يتهيأ للجلوس على عرش والده، ولكن رستم باشا حال دون ذلك، وكانت هذه الشائعات بدرجة التواتر، وكما قيل في المثل" الأقاويل لا تكون كذباً بل تكون خطأً "، والحقيقة أن الأمير مصطفى قد تجاوزالأربعين، وهو في مقدمة الأمراء من ناحية العلم والبطولة، كما أن الجيش والشعب يحبانه ويريدانه، وقام بعض الحمقى عن حسن نية وبعضهم عن سوء نية بإيصال هذه الأقاويل إليه وحاولوا دفعه الى مرحلة العصيان"[2].

وكانت بداية الفتنة على يد الصدرالأعظم رستم باشا حيث " انتهزهذا الوزير فرصة نشوب الحرب بين الدولة العثمانية ومملكة العجم في سنة/ ٩٦٠هـ/١٥٥٣م/ ووجود مصطفى ضمن قواد الجيش، وكتب الى أبيه بأن ولده يحرض الإنكشارية على عزله وتنصيبه"[3].

وما أن وصل هذا الخبر الى السلطان سليمان الذي كان يحتفل بعيد ميلاده حتى سار من ساعته وسار مباشرة إلى بلاد العجم، بعد أن كانت روكسلانه قد أوغرت صدره وملأته بالحقد اتجاه ابنه مصطفى، ولما وصل السلطان سليمان وقد استدعى معه مفتي الإسلام محمد أبو السعود الأفندي حيث استدعى القوات وضباطها ومن جملتهم مصطفى ابنه، فسأل السلطان سليمان محمد أبو السعود قائلاً له" ما رأيك يا مولانا بتاجر إئتمن عبده على مكانه وذهب سيده لقضاء الحج، وعندما عاد وجد عبده قد خانه، فما حكم الشرع عليه فأجابه يجب أن يرمى بالسهام، السهام إلى صدرمصطفى فصاح ماذا فعلت يا مولاي؟ ماذا فعلت يا أبي؟ " ، وبعد

---

١ – قازان، مرجع سابق، ص٥١.

٢ – صولاق باشا، مصدر سابق، ج٣، ص٥٢١-٥٢٢ .

٣- فريد بك، مصدرسابق، ص٢٤٦.

موته حمّله على حمار، وبُدأ التجول به ليكون عبرة لغيره، وما أن وصل استنبول سألته روكسلانه عن صحة الخبر فقال لها لقد تخلصت من الخائن[1].

وبما إن مصطفى الإبن البكر للسلطان سليمان القانوني كان محبوباً من قبل الإنكشارية فعند سماعهم خبر وفاته ثاروا وطالبوا بقتل رستم باشا الذي دبر هذه المؤامرة. [2].

وكنتيجة لضغط الإنكشارية قام السلطان سليمان القانوني بعزل رستم باشا إرضاء لهم وعين بدلاً عنه أحمد باشا، ولكن لم يهدأ بال روكسلانة (خرم) حتى أقنعت السلطان سليمان بقتل أحمد باشا وإرجاع رستم باشا إلى منصبه، لأنها تخوفت من أن يكشف السلطان ألاعيبها، ولم تكتف بذلك، بل بدأت تحيك المؤامرة لتعميق وجود اليهود في الدولة العثمانية[3].

لقد عد مقتل مصطفى من أبشع الأحداث التي جرت في عهد السلطان سليمان، لأن مصطفى كان ضابطاً متميزاً ومحبوباً من قبل الإنكشارية، فضلاً عن ذلك فقد أثرّ بشكل مباشر في فقدان ابن السلطان سليمان الصغير جهانكير الذي مات حزناً على أخيه مصطفى، وبهذا بقي للعرش وريثان كانا يتنافسان على الحكم وهما سليم وبيازيد، وستكون الخلافات كبيرة بينهما على العرش[4].

وفي خضم الحديث عن الجرائم التي ارتكبها السلطان سليمان بمن يحبهم يجب أن لا ننسى قتله لصديقه المقرّب الصدر الأعظم إبراهيم باشا وكان ذلك سنة/٩٤٢هـ/١٥٣٦م/[5] أي قبل مقتل ابنه مصطفى، حيث عثر على جثته في الغرفة التي ينام فيها كل ليلة بجوار غرفة السلطان سليمان القانوني، ويبدو أن قتل هذا الرجل وهو في أوج عزه أحدث ضجة كبيرة بين الأوساط الشعبية، إذ تسائل الناس عن الأسباب التي دفعت السلطان إلى القيام بمثل هذه الجريمة بحق أعز أصدقائه وأقربهم له.

---

١ – رفيق، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٧٠. جودت، مصدر سابق، ج٥،ص٣٢٤. وصولاق باشا، مصدر سابق، ج٢، ص ١١٤.

٢–عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص١٤٨.

٣– قازان، مرجع سابق، ص٥٢.

٤– أوزتونا ، مرجع سابق،ج١، ص٣٥٠.

٥ – مانتران ، مرجع سابق،ج١، ص٢١٧.

خاصة أنه لم يتم العثور على أسباب أو مسوغات سياسية تدفع السلطان لقتل إبراهيم باشا فهو لم يقم بأي خيانة اتجاه الدولة أو حاكمها[1]، ولكن من المؤكد أنها من تدبير زوجته روكسلانه التي كانت وراء هذه الجريمة، خاصة أن العلاقة قد ساءت إلى حد كبير بينهما للأسباب غير معروفة[2].

حيث كتبت روكسلانه مايلي:

"سيدي. لقد أشعل غيابك ناراً لا تطفأ في جوانبي، فأرحم معبودتك المعذبة، وعجل بخطاباتك، حتى أجد فيها على الأقل بعض السلوان.

سيدي . عندما تقرأ كلماتي ستتمنى لو كتبت لي للتعبير عن شوقك، فعندما قرأت خطابك الأخير، وكان ابنك محمد وابنتك مهرماه إلى جانبي تدفقت الدموع من عيونهما، وقد أصابتني دموعهما بالأسى، إنك تسأل لماذا أنا غاضبة من إبراهيم باشا؟ ، وبإذن الله عندما نجتمع معاً سأشرح لك، وستعرف السبب"[3].

لقد عرف عن إبراهيم باشا أنه كان شخصاً متعالياً وأن إسلامه لم يكن حقيقياً، ومن الأسباب التي أثارت سخط الشعب عليه، أنه لما عاد من بودا جلب معه ثلاثة أصنام قديمة زين بها ميدان السباق، وهذا دليل على أن إبراهيم باشا عدُ خارج عن تعاليم الدين الإسلامي، فتم اتهامه بالوثنية وهذا ما أغضب سكان استنبول إلى حد كبير.

فهجاه الشاعر فغاني جلبي قائلاً:" إن العالم عرف إبراهيمين: أحدهما قوّض الأصنام- ويقصد بذلك إبراهيم الخليل- والآخر رفعها " وهذا ما أغضب إبراهيم باشا و لذلك أمر بقتل فغاني جلبي بعد أن عذبه بطريقة مُذّلة[4].

كل هذه الأسباب أدت إلى نفور السلطان سليمان منه، ويبدو أن مصلحة الدولة بالنسبة للسلطان سليمان صارت تقضي بقتل هذا الرجل، وكما هو معلوم أن أبناء السلطان بيازيد

---

[1] – كلو، مرجع سابق، ص ١٢١.

[2] – مؤنس، مرجع سابق، ص ٤٨.

[3] – وثيقة منشورة من أرشيف السراي . مؤنس، المرجع نفسه، ص٤٩.

[4] – كلو، المرجع السابق، ص ١٢٢.

وسليم دفعا ثمن حياتهما لإنهما ثارا على والدهم، المتحكم برقاب رعاياه[١].

ولذلك قررالسلطان سليمان إنهاء حياته، فتم له ذلك[٢]، وبموت إبراهيم باشا تم الوصول إلى نقطة النهاية تقريباً في الحروب التوسعية للدولة العثمانية، ففي الغرب والشرق لن يتم الإستيلاء على فيينا واحتلال أذربيجان بشكل نهائي[٣].

والحق يقال إن الإدارة الحازمة التي قامت بتصريف أمورالدولة، إنما تؤكد على نجاح التعاون بين السلطان سليمان وصدره الأعظم إبراهيم باشا.

لتكون بذلك وفاة إبراهيم باشا والحملة المنهكة التي قادها السلطان سليمان على العراق إيذاناً بإنتهاء الفترة الأولى من عهد هذا السلطان.

وقبل أن تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي بدأ سليم وهو ابن السلطان سليمان من "خرَّم" يخطط لتسلم العرش من بعد والده لأنه كان يخشى أن يوصي السلطان سليمان بالحكم لإبنه بيازيد، فأتفق سليم مع لاله مصطفى باشا "مربي بيازيد"، حيث أغراه بالمال للتخلص من بيازيد، فكتب لاله مصطفى باشا إلى بيازيد يوضح له أن السلطان سليمان مصمم على تولية الحكم لسليم من بعده على الرغم من أن بيازيد له الحق في تسلم الحكم، عندئذ كتب بيازيد رسالة إلى أخيه سليم تعرض فيها لوالده السلطان سليمان، فما كان من سليم سوى أن أرسل هذه الرسالة إلى والده سليمان الذي بدوره أرسل بطلب ابنه الذي كان حاكماً على قونية آنذاك، ولكن بيازيد خاف غدر والده وبالتالي تمرد عليه، فردّ السلطان سليمان بإن أرسل جيشاً ضده لوضع حداً لتمرده[٤].

ولما انهزم بيازيد هرب مع أولاده إلى الشاه الصفوي طهماسب الذي أحسن استقبالهم في بداية الأمر، ثم أرسل الشاه طهماسب رسولاً من قبله إلى السلطان سليمان يطلب الشفاعة لبيازيد، فكان ردّ السلطان قاسياً مما أزعج الشاه وجعله يرمي بيازيد وأبنائه الأربعة في

---

1 –İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, s 420.

٢– مؤنس ، مرجع سابق، ص ٤٩.

٣ – مانتران، مرجع سابق،ج١، ص ٢٢٤.

٤– قازان ، مرجع سابق، ص٥٢-٥٣ .

السجن، وبعد فترة قصيرة وصل إلى البلاط الصفوي رسولان من قبل السلطان سليمان ومعهما رسالة يؤكدان فيها على استمرار صلح أماسية، كما طلب من خلالها استرداد ابنه بيازيد، فاستجاب الشاه طهماسب لرسالة السلطان سليمان تأكيداً منه على المحافظة على الصلح، ووافق على تسليم بيازيد وأبنائه لرسل السلطان سليمان لكنه اشترط أن تهدم قلعة قارص الحد الفاصل بين الدولتين، وبعد أخذ ورد بين الطرفين، تم الإتفاق على تسليم بيازيد وأبنائه إلى ممثلي السلطان سليمان مقابل الإبقاء على صلح أماسية وهدم قلعة قارص[١]، وبالفعل سلم الشاه الصفوي بيازيد وأبنائه للسلطان سليمان الذي قتلهم جميعاً سنة/٩٦٨هـ/١٥٦١م/، وهم بيازيد وأولاده أورخان وعبد الله وعثمان ومحمود وكان لبيازيد طفل صغير في مدينة بورصة تم قتله خنقاً [٢].

وهناك أبيات شعرية تم تبادلها بين الأب سليمان وابنه الأمير بيازيد، تلخص هذه المسألة، وتبدأ بأبيات أرسلها الأمير بيازيد باسم مستعار وهو "شاهي" [٣] ويقول فيها :

يا والدي السلطان سليمان ...سلطان العالم كله!

يا والدي الذي هو أحب إلي من نفسي !

أيطاوعك قلبك على إيذاء إبنك بيازيد ؟

الله يعلم أني بريء يا والدي السلطان .

فيجيبه والده السلطان بشعر رباعي أيضاً وتحت إسم مستعار هو " محبي "

يا ولدي الذي كثيراً ما رفع راية العصيان والطغيان

ما كنت أود أن أعلق فرماناً على عنقك

أكان قلبي يطاوعني ضدك يا ولدي بيازيد ؟

١- عبد الرضا هوشنك مهدوي، تاريخ روابط خارجي ايران، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، ١٣٦٩هـ.ش،ص٣٣-٣٤.

٢ - قازان، مرجع سابق، ص٥٣ .

٣ - أولياء جلبي، وقعة نويس، استنبول، ١٣١٨هـ، ص١٤٨.

لا تقل أني بريء تب على الأقل يا ولدي [1].

يتبادر إلى ذهن أي قارئ بعد ذكر أحداث هذه الجرائم المروعة عدة أسئلة تطرح نفسها، ترى أي دين أو قانون أو حتى عرف يبيح قتل السلطان لأولاده أو أخوته، هل هو القانون العثماني؟، هذا القانون الذي ابتدعوه بما يخدم مصالحهم وليس مصلحة الدولة كما يدّعون، ولكن يبدو أن سلاطين الدولة العثمانية قد جعلوا من مقولة الغاية تبرر الوسيلة شعاراً لهم وقانوناً لتحقيق أهدافهم .

ويلاحظ من جهة أخرى أن السلطان العثماني عندما اعتلى العرش أعلن أنه حامي الإسلام ولكن الإسلام لم يكن ليسمح بذلك لكنها شهوة الحكم، هذه النقطة الأولى أما النقطة الثانية لطالما عرف عن السلطان العثماني أنه كان قاسياً ومقاتلاً ولكن أن يكون ضعيفاً لهذه الدرجة أمام النساء فهذا يدعو للاستغراب !

وبالتالي فإن هناك تناقضاً كبيراً في شخصية السلطان العثماني سواء كان سليمان أو غيره من السلاطين الذين أتوا من بعده، وبما أن الحديث عن السلطان سليمان فيمكن القول أن السلطان قد دق أول مسمار في نعش الدولة العثمانية عندما بدأ يرضخ لزوجته المتآمرة روكسلانه(خرّم) التي استطاعت أن تسيطر على عقل وقلب السلطان سليمان.

وبالتالي سيطرت على مقاليد الحكم بشكل سري وبدأت تسيّر الأمور بما يخدم مصالحها والتي تمحورت بشكل رئيس حول جعل ابنها سليم حاكماً للبلاد من بعد السلطان سليمان[2].

ويمكن القول إن السلطان سليمان كان يبني ويعمر الدولة بيده اليمنى ويدمر بيده اليسرى، ففي الوقت الذي وصلت فيه جيوشه الجرارة إلى أبواب فيينا وتحدت العديد من الدول والجيوش سواء كان في الشرق أو في الغرب، كانت قراراته الصادرة عن زوجته قد أدت إلى دمار داخلي ممثلاً بالحروب الأهلية بين الأخوة والتي انتهت بالضعف الذي بدأ ينخر جسد الدولة العثمانية.

---

[1] - كوندز ، أوزتورك، مرجع سابق، ص٢٤٩.

[2] - مصطفى أوزجان، سليمان القانوني، استنبول، ١٣٣٤هـ، ص٢١٤.

٣- قوانين السلطان سليمان:

قانون نامه:

أما بالنسبة للتطورات الإدارية التي شهدتها الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان فقد تمثلت بإصدار (قانون نامة سلطان سليمان) وقد عدّ هذا القانون مكملاً لقانون السلطان محمد الفاتح الذي صدر سنة/٨٦٥هـ/ ١٤٦١م/[١].

وفي بداية الأمر لابد من الإشارة عن سبب وراء السلطان سليمان بالقانوني، تم إطلاق لقب القانوني على السلطان سليمان لقيامه بتطبيق القوانين على جميع الناس دون تمييز، و نجاحه في تدوين القوانين التي صدرت في عهد السلطان محمد الفاتح والسلطان بيازيد الثاني والسلطان سليم[٢]، هذه القوانين التي وضعت وفق لما خولته الشريعة الإسلامية[٣]، أما السلطان سليمان فكان أفضل من قام بتحريرها، بعد أن ضاف عليها الكثيرمن القوانين الأخرى، حيث وضعها مجموعة من الفقهاء والعلماء في عهده[٤].

لقد وضعت هذه القوانين التي أصدرها السلطان سليمان القانوني بالتعاون مع شيخ الإسلام محمد أبي السعود أفندي بما يتلائم مع الظروف الخاصة للولايات والمدن، ودون أن تتعارض مع أسس الفقه الحنفي[٥]، وقد بلغ عدد هذه القوانين التي صدرت في عهده حوالي مائتي قانون تقريباً[٦]، وتميزت هذه المواد القانونية بأنها كانت متقدمة جداً، وسابقة لعصرها، لأنها شملت مختلف أوجه الإدارة، كما وضعت حداً للولاة، وحذرت أياً منهم من ارتكاب مخالفات تضر بالعامة، أما السمة الرئيسية للقانون العثماني فإنها وضعت على أساس عسكري[٧]، ويستندعلى مبدأ رئيس وهو(أن الرعية والأرض تعود إلى السلطان)، إذ لا يحق

١- أوزتونا ، مرجع سابق،ج١، ص٣٥٥.

٢- أوزتورك، كوندز، مرجع سابق، ص٢٤٣-٢٤٤.

٣- عدنان العطار، الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط، دمشق، دار وحي القلم، ط١، ٢٠٠٦م،ص ١٨٤.

٤ - أوزتورك، كوندز ، المرجع السابق، ص٢٤٣-٢٤٤.

٥- أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص٣٥٥.

٦ - أوزتورك، كوندز ، المرجع السابق، ص٢٤٢.

٧ - حسون ، مرجع سابق، ص٤٠٤.

لأي شخص أن يمارس أي سلطة على الأرض دون موافقة السلطان، وهذا ما منح السلطان سيادة مطلقة في الدولة وفتح له المجال لوضع يده على كل القوانين في الولايات القديمة أو التي صدرت في عهده وإخضاعها لسيطرته إضافة إلا أن قسماً من هذه الصلاحية مستمدة أصلاً من أصول القبيلة وعاداتها[١]، وكان هدف السلطان من هذه الإجراءات هوالحيلولة دون قيام المسؤولين الإداريين والعسكريين الذين عرفوا (بأهل العرف) بإصدار عقوبات إعتباطية على الناس أو فرض ضرائب بشكل عشوائي، أي لضمان سيادة القانون، وقد جاء في إحدى القوانين المؤرخة في سنة /٩٤٧هـ/١٥٤٠م/ مايلي " وعلى أهل العرف أن يتجنبوا تجاوزهذا القانون، وينص هذا القانون أيضاً على ضرورة الرجوع إلى القانون في موضوع الغرامات المالية المقرر تحصيلها من المذنبين، وعدم تجاوز المقادير المحددة فيه"[٢].

كما سمح القانون للسلطان أن يقوم بمراقبة الأوقاف والملكيات الخاصة، وفي جانب آخر أدان القانون العثماني نظام السخرة وحدد لهذه الحالات بدلاً نقدياً، ليكون القانون العثماني بذلك قد نجح بإدخال نظام ضريبي أبسط من الأنظمة التي سبقته فيما يخص الخدمات[٣].

وقد اهتم القانون العثماني أيضاً بتحديد حجم الضريبة وكيفية جمعها مع وضع وقت محدد لها، كما منح القساوسة والأطفال والنساء والشيوخ إعفاء من دفع الضرائب[٤].

أما بالنسبة للقانون الجنائي فكان يعدّ مكمل للشريعة الإسلامية[٥]، حيث تضمن القانون على عقوبة الإعدام أو قطع يد المجرم المدان بجريمة قتل أو السرقة مع منع أي غرامة مالية كبديل عن تطبيق العقوبات[٦]، وخيرمثال على ذلك هذا النص القانوني الذي يضيء لنا جانباً من جوانب العدالة التي كانت مطبقة في المجتمع آنذاك "تطبق العقوبة الموضوعة بالنسبة للجرم المعترف به على الأشخاص الذين اقترفوها مهما كانت منزلتهم" (قانون نامه سلطان

١ – اينالجيك، مرجع سابق، ص ١١٦.

٢ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص ٤٤١.

3– İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI , KAUNAK GEÇEN, S.510.

٤ – اينالجيك، المرجع السابق، ص ١١٨.

٥ – العطار، مرجع سابق، ص١٨٥.

٦ – اينالجيك، المرجع السابق، ص ١١٨.

سليمان،الباب الأول،الفصل الأول)(1)، ويؤكد على ذلك النص القانوني التالي" تقطع يد من سرق دابة ويغرم مائتي أقجة إن تجاوز (أهل الحق) عن قطع يده" و"من قتل نفساً عمداً يقتل"(2) كما فرض القانون العقوبات أو الغرامات التي لم تكن واضحة في الشريعة الإسلامية، على سبيل المثال كان يعاقب سارق الخيل بقطع يده أو يدفع غرامة مالية قدرها خمس قطع ذهبية، وقد ورد في إحدى النصوص القانونية تأكيد لما ورد في السابق حيث يبين لنا هذا النص القانوني مايلي" من جرح بسهم أو سكين فاضطر الجريح أن يلازم الفراش، يغرم المعتدي إن كان غنياً يملك ألف أقجة أو أكثر من مائتي أقجة وإن كان متوسط الحال مائة أقجة وإن كان شديد الفقر خمسين أقجة* " (3).

أما فيما يتعلق بالأمور العسكرية فقد كان أفراد الطبقة العسكرية يحاكمون أمام المجلس السلطاني في العاصمة، وكانت تعقد هذه المجالس برئاسة قائد الفرقة التي ينتمون إليها .

وفيما يخص القضايا التي ترتبط بالنظام العام فقد كان بوسع السلطان أو وزرائه أو ولاته أن يصدروا الحكم دون أن يتقيدوا بقانون نامه، فضلاً عن ذلك اهتم القانون العثماني بمنح القضاة حرية التصرف، خاصة أن الفرامانات كانت هي التي ترشدهم إلى التصرف وفق للقانون الذي كان يطبق عادة في مثل تلك الحالات.

وقد ورد في قانون نامه سليمان " إذا كانت هناك حالة غير واردة في القانون نامه، يجب أن يرسلها بشكل رسمي إلى العاصمة، وحين يصل الأمر(من العاصمة) تحل القضية في ضوئه، ولابد أن يسجل هذا الحكم في السجل، وأن يستند إليها في الحالات المماثلة " (4).

1- أوزتونا، مرجع سابق، ج1، ص355.

2 - خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني(بحوث ووثائق وقوانين)، استنبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، 2000م، ص553-554.

3 - أوغلي، المرجع نفسه، ص552.

* الأقجة عثمانية ذهبية وفضية صكت سنة 1327م،في عهد أورخان، واستمرت حتى سنة 1687 وكان عيارها 75,5 قراط وفي عهد القانوني نقص عيارها إلى 3,40 .

Midhat Sert Oglu,Rseimli Osmanli Tarihi, Ankara,1983l,s.10.

4- اينالجيك، مرجع سابق، ص 118-119.

ومن الجدير ذكره أن العقوبة لا تطبق على أي متهم دون حكم خطي من قبل القاضي، حيث كان لا يستطيع الوالي أن يقوم بتطبيق أي حكم دون موافقة القاضي.

مع العلم أن الوالي كان يطالب بأن يتم إحضار المتهم أمام القاضي لكي يقرأ أمامه الحكم الصادر بحقه[1].وجد في الدولة العثمانية قضاة العسكر الذين عدّوا رؤساء الهيئة القضائية فكانت سلطتهم غير محصورة بالشؤون العسكرية بل تعدتها إلى الشؤون المدنية حيث كونوا ما يسمى بمحكمة الإستئناف العليا وبما أنها محكمة قوية فلا يحد من صلاحياتها سوى السلطان أو الصدر الأعظم.

أما من حيث المستوى فتم تقسيم القضاة إلى قسمين

١- كبار القضاة (ملاّ كبار) وهم قضاة عسكر الأناضول والروميللي.

٢- صغار القضاة (ملاّ صغار) وهم قضاة المدن العشر التي تأتي بالمرتبة الثانية كمثل مرعش وبغداد والبوسنة وصوفيا وبلغراد وعينتاب وكوتاهية وقونية وغيرها من المدن، وكان صغار القضاة يتولون إدارة الشؤون الإدارية والبلدية والقضائية بصفتهم رؤساء المناطق الموجودين فيها.

ومن جدير بالذكر أن من أولويات الدولة العثمانية بعد الإستيلاء على أي مدينة أو ولاية هو أن يتم مباشرة تعيين قاضياً عليها بغية حل النزاعات بين الناس وتحقيق العدالة، وكانت الهيئة القضائية العثمانية تتوزع على ثلاثة مناطق وهي الروملي والأناضول ومصر، وكان القضاة في منطقة الروملي تحت إدارة قاضي عسكر الروملي، أما القضاة في مصر والأناضول فكانوا تحت إدارة قاضي عسكر الأناضول[٢].

وبالتالي فإن قضاة العسكر منذ نشوء الدولة العثمانية وحتى أواخر القرن السادس عشر مخولين بمنح مناصب الهيئة العلمية، وعليه فإن كتب القوانين(قانون نامه) نصت بشكل واضح على مهام القاضي ومسؤولياته ويمكن توضيح ذلك من خلال هذا النص" إنهم يتولون تنفيذ

[1] – Yavuz bahadir oglu,kanuni sultan suleyman,Istanbul,2009,S177.

[٢] – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص ٢٩٥.

الأحكام الشرعية، ويتتبعون الأقوال المختلف فيها عن الإئمة الحنفية، ويعملون بالأصح منها، ويقومون على أمر تحرير السجلات والصكوك، وتزويج الصغار، وقسمة مواريث الرعايا، وضبط أموال اليتامى والمفقودين وعزل ونصب الوصي والنائب، وتحرير عقود النكاح، وتنفيذ الوصايا وسائر الأمور الشرعية " [1].

وبهذا يمكن القول إنه ومن خلال النظر إلى(قانون نامه سلطان سليمان)، الذي بقي ساري المفعول حتى القرن التاسع عشر[2]، تمتع الرعايا بحقوق متساوية، كما أنه أثبت نجاح السلطان سليمان القانوني في ترك بصماته على مظاهر التقدم الثقافي والسياسي، وذلك من خلال تطبيقه القوانين والتي شملت رجاله وحاشيته، ولم يضعف إلا أمام زوجته روكسلانه، علماً بأنه أسرف كثيراً في معاشرة النساء، ولكن أياً منهن لم تحظ بما حظيت هذه المرأة التي قال عنها رضا نور" لقد كانت عقد الحل والربط في دولة القانون"[3] ولهذا يمكننا القول إن قوة السلطان سليمان كانت بالرجال الذين يحيطون به.

٣- علاقة السلطان سليمان بالعلماء والمدرسين:

لقد أجرى السلطان سليمان تغييرات كثيرة لم تقتصر على القانون فحسب وإنما شملت أيضاً نظام الدولة، وقد طالت هذه التغييرات مختلف أوجه الحياة ولاسيما المدارس وطبقة العلماء والمدرسين، لأنه اعتقد أن قوة الدولة تنبثق من علمائها ومفكريها[4].

حيث شهد النظام المدرسي في الدولة العثمانية تغييراً كبيراً زمن السلطان سليمان القانوني[5]، إذ قام بتأسيس أربع مدارس عامة ومدرستين للدراسات المتخصصة حول جامع السليمانية، الأولى متخصصة في الطب والأخرى بالحديث، وذلك حول جامع السليمانية* الذي

---

١ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٠.

٢ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص ٣٥٥.

٣ – نور ، مصدر سابق، ج٣، ٤١٧.

٤ – عطا باشا، تاريخ عطا،٦أجزاء، استنبول، ١٣٠٣هـ، ج٣، ص١١٦.

٥– فريد بك، مصدر سابق، ص٢٥١.

* لقد كانت المدرسة السليمانية تشكل نقطة تحول هامة وكبيرة في الحياة العلمية عند العثمانيين، إذ كانت تمثل أرقى أنواع الجهاز التعليمي من حيث شكلها المعماري، ومن حيث إمكاناتها المادية التي تمتعت بها وغنى مكاتبها وبرامجها التعليمية. أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص ٢٩١.

قام ببنائه في استنبول خلال عامي/١٥٥٠-١٥٥٩م/، وعدت هذه المدارس من أرقى المدارس في الدولة العثمانية، بذلك أعطى السلطان سليمان الشكل النهائي للنظام المدرسي الذي استمر حتى نهاية الدولة العثمانية[١].

لقد نجح السلطان سليمان بتنظيم المدارس[٢]، حيث قسمها إلى اثنتي عشرة قسماً وأطلق على كل درجة اسمها الخاص، وكان على كل طالب أن يحصل على إجازة قبل أن ينتقل إلى المرحلة التي تليها، ففي المراحل التعليمية الأولى كان يطلق على الطالب المبتدئ في العلم تسمية (دانشمند)[٣]، وعندما يصل إلى المرحلة السادسة أوما يسمى بصحن الثمان(أي المرحلة الدراسية العليا)، يسمح له بأن يعمل مساعد مدرس (أي معيد)، حيث يعيد مع الطلاب ما أخذوه مع أساتذتهم، وفي هذه المرحلة لم يعد اسم الطالب صوفته(أي متحرق للعلم)، وإذا رغب الطالب في أن يحصل على مراتب عليا للوصول إلى النظام القضائي كان عليه أن يدرس المراحل الستة المتبقة، وفي هذه المرحلة يحق له أن يتابع دراسته وهو معيد وبذلك يصبح مدرساً، فقد كان من واجبه أن يدرّس في المراحل الدنيا ثم يصل تدريجياً نحو المراحل العليا، إذ كان عليه أن يجتاز المراحل التسع الأولى من أصل اثنتي عشرة درجة، ولايحق لهذا الطالب أن يصبح مؤهلاً لمنصب (الملا)* أو القاضي الكبير إلا بعد إجتيازه للمرحلة التاسعة من التدريس[٤].

وبالتالي يمكن القول إن المتخرجين من المدارس السليمانية يقسمون إلى ثلاثة فئات:

١ – الفئة العليا: وتشمل المدرسين الذين تخرجوا ابتداء من الدرجة التاسعة فما فوق، وهم مدرسو دار الحديث*[٥] وهي تعد من أهم مؤسسات التعليم العليا في الدولة العثمانية[٦].

١- اينالجيك، مرجع سابق، ص٢٥٩.

٢ – فريد بك، مصدر سابق، ص٢٥١.

٣ – حسون، مرجع سابق، ص٤٠٥.

*الملا، يطلق هذا اللقب على الشخصيات الدينية في العاصمة، وهم مرتبون في درجات ومراتب. لويس، مرجع سابق، ص ١٧٨.

٤ – أوغلو، مرجع سابق، ج٢، ص ٣١٢.

٥ – أوغلو، المرجع نفسه، ج٢، ص٣١٣.

*دار الحديث، أسسها السلطان مراد الثاني في أدرنة. اينالجيك، المرجع السابق، ص٢٥٧.

٦- اينا لجيك، المرجع السابق، ص٢٥٧.

٢ – الفئة الوسطى: وهم مدرسو الدرجات السادسة والسابعة والثامنة.

٣ – الفئة الدنيا: وهم المدرسون من ذوي الدرجة السادسة.

ولكن قلة من الدارسين تابعوا دراستهم في المراحل التعليمية العليا، لأن أكثرهم فضلوا الإنضمام إلى المدارس الملحقة بجامع السلطان بيازيد المختصة بدراسة الفقه، وعند تخرجهم يصبحون(ملازمين) أي مؤهلين لوظائف مثل نائب القاضي (نائب الملاّ) أو قاضي عادي أو مفتي صغير في إحدى الأقاليم، وبالتالي فإن خريجي مدارس بيازيد ليكونوا مؤهلين للتعيين يجب أن يلازموا أستاذ كبير، وإذا أرادوا أن يصبحوا وإذا أرادوا أن يصبحوا مدرسين كان عليهم أن يدرسوا سبع سنوات في المدارس العليا، وكان الحصول على الملازمة* أمراً صعباً، إذ كان لابد من وجود إهتمام ورعاية شخصية كبيرة في الهيئة العلمية للمؤهل للملازمة مثل مدرس في جامع السليمانية أو قاضي عسكر، وكانت أسماء هؤلاء الملازمين تسجل في سجل يسمى(مطلب)، والذي أوجد هذا النظام هو محمد أبو السعود أفندي قاضي عسكر الروملي[١].

وعليه فإن المدرسة في الدولة العثمانية هي عبارة عن مؤسسة وقفية، وتمثل جزءاً من مجمع يضم الجامع ومنشآت خيرية أخرى، كما أنها مؤسسة مستقلة بحد ذاتها، حيث كان يعين المدرس فيها وفق لمرسوم سلطاني، وتمركزت هذه المدارس في المدن الكبرى، فعلى سبيل المثال كان يوجد في مدينة أدرنة سنة/٩٣٥هـ/١٥٢٩م/حوالي أربع عشرة مدرسة[٢].

وفي الواقع لم تفرض الدولة العثمانية نظامها التعليمي على كل المؤسسات التعليمية في الولايات العربية إنما أبقت لها تقاليدها[٣]، حيث كان لكل مدينة رئيسية مسجد جامع يضم كبار المدرسين والطلبة والعلماء مثل الجامع الأموي في دمشق والأزهر في القاهرة، وكل العلماء

---

* الملازمة، نظام في التعليم التركي العثماني، يعني المرحلة التي تمر بين إنهاء الطالب دراسته وحصوله على إجازته من مدرسة من المدارس وبين تعيينه الفعلي في عمله، خلال هذه المرحلة يكتسب المرشحون للتدريس خبرة عملية، بحضورهم مجالس العلم، للعالم الكبير الذي يلازمونه ومنها مجالس قضاء العسكر، وغيرهم من كبار الهيئة العلمية، وهي الهيئة التي تضم كبار العلماء في التدريس والقضاء. أوغلو، مرجع سابق،ج١، ص ٣١٢.

[١] – أوغلو، المرجع السابق، ج٢،ص ٣١٣.

[٢] – اينالجيك، مرجع سابق، ص٢٥٩.

[٣] – أوغلو، المرجع السابق، ج٢،ص٣١٤.

كانوا خريجي تلك المدارس، وقد برزهؤلاء العلماء وأصبح لهم دوراً مهماً سواء كان في الجانب الإجتماعي أو حتى السياسي في الدولة العثمانية[١].

وكان في مقدمة هؤلاء العلماء مفتي استنبول(شيخ الإسلام) حيث عد الرجل الثالث بعد الصدرالأعظم في الدولة العثمانية حيث كانت تخضع له السلطات القضائية والدينية بعد السلطان[٢]، وكان يمارس دوراً مزدوجاً في تطبيق وتفسيرالقوانين، إذ كان المفتي مسؤول عن تطبيق الشريعة الإسلامية أي كانت أعلى المناصب الدينية والقضائية متاحة له [٣]، كما حصل أيضاً على مناصب تمنحه السلطة السياسية وخصوصاً عندما يطلب منه فتاوى ذات طابع سياسي مثل إعلان الحرب، لأن السلطان لا يتقدم على حرب دون أن يستصدر من شيخ الإسلام فتوى يقر فيها بأن هذه الحرب لا تتناقض مع الدين [٤]، وقد حرص السلطان سليمان على دعم منصب المفتي إلى حد كبير ففي عهده برزالكثير من العلماء الذين تولوا منصب الإفتاء بمباركة منه[٥].

لقد مارس الكثير من العلماء مهنة التدريس حيث درّسو في أرقى مدارس الدولة العثمانية، ومن أشهر العلماء الذين برزوا في عهد السلطان سليمان القانوني كان المولى عبد القادر الشهير بقادري شلبي الذي تدرج في المناصب حتى تولى منصب الإفتاء وكذلك الحال بالنسبة لسعد الله بن عيسى الذي تولى منصب الإفتاء أيضاً، أما سليمان الرومي فقد كان مدرساً بإحدى المدارس الشهيرة بأدرنة، وقد مات أثناء وجوده في مجلس خاص للعلماء وبوجود السلطان سليمان القانوني عندما كان يحتفل بختان أولاده، فضلاً عن معلم السلطان سليمان خيرالدين الذي حظي باهتمام كبير من قبله[٦]، وهناك المولى محي الدين محمد قطب الدين الذي عدَ من أشهر المعلمين زمن السلطان سليمان القانوني، و العالم الفاضل المولى محي الدين محمد بن الخطيب الذي كان من أشهر المدرسين في عهد السلطان سليمان، حيث

١- أوغلو، مرجع سابق،ج٢، ص ٢٥٩-٢٦٠.

٢ - حسون، مرجع سابق، ص٤٠٥.

٣ - لويس، مرجع سابق،ص ١٧٨.

٤ - أوغلو، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٥٩-٢٦٠.

٥ - حسون، المرجع السابق، ص٤٠٥.

٦ - أرسلان، مصدر سابق، ص١٦٩-١٧٤.

درس بمدرسة السلطان بيازيد ثم درس في إحدى المدارس التي بناها السلطان سليمان وقد عرف بخبرته في مجال التاريخ والحديث والتفسير وسائر العوم الرياضية والموسيقى(١)، وهناك عالم الرياضيات والهندسة علي بن ولي الذي أجرى أبحاثاً في علم أنساب الأعداد اللوغريتم وقد سبق بهذا المجال الأوروبيين بعقود عديدة.

والواقع أن المدارس في الدولة العثمانية أدت دوراً كبيراً شبيهاً بدور الجامعات في أوروبه طوال قرون عديدة، لأن الحياة الفكرية كانت منحصرة في تلك المدارس، وعلمائها حيث أنفقت الدولة عليهم أموالاً طائلة بالإضافة إلى أنهم كانوا يحظون بأرقى درجات الرعاية والإهتمام نتيجة لدورهم البارز والفعال في المجتمع (٢).

إذاً كان السلطان سليمان القانوني رجل إدارة متميز وقد أظهر براعته في الإدارة عندما وسع التشكيلات الإدارية التي كانت منذ عهد السلطان محمد الفاتح وأدخل عليها بعض التغييرات، كما بلغت التشكيلات الإدارية للمقاطعات والأقاليم درجة عالية من التنظيم والدقة وخير مثال على ذلك القوانين التي صدرت في عهده التي نظمت معظم شؤون الدولة، وقد سعى السلطان سليمان القانوني من خلال هذه القوانين إلى ترسيخ مبدأ العدالة، ويمكن القول: إن التطور الذي شمل المجتمع جعل من القرن السادس عشرعصر السلطان سليمان القانوني بكل جدارة(٣).

وبالمقابل صحيح أن السلطان سليمان القانوني كان له الفضل في إرساء دعائم الدولة وتوطيد أركانها من خلال العديد من الإنجازات التي سبق الحديث عن بعضها، ولكن والحق يقال كانت هناك بعض القرارات التي أُخِذَت عليه وكانت نتائجها وخيمة وقد انعكست بشكل سلبي على الدولة العثمانية .

وهذا ما أكد عليه كوجو بك وهو موظف مسؤول في البلاط العثماني من أصل بلقاني عندما قدّم عام/١٠٣٩هـ/١٦٣٠م/ مذكرة إلى السلطان مراد الرابع يوضح فيها نقاط ضعف

١ - طشكبيري زاده، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص١٥٢.

٢ - كلو، مرجع سابق، ص٣٣٣.

٣- أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٣٥.

الدولة العثمانية، والتي ظهرت في عهد السلطان سليمان القانوني على أمل أن يتفادى السلطان مراد الرابع هذه الأخطاء، لأنها كانت السبب في ضعف الدولة العثمانية وتراجعها، ومن بين هذه القرارات سماح السلطان سليمان للإنكشارية بأن تقاتل تحت إمرة الصدر الأعظم بدلاً عنه، وهذا ما سبب في تقاعس أغلب السلاطين الذين خلفوه عن الخروج للقتال، كما أنه سمح للإنكشارية بالزواج والإقامة خارج ثكناتهم مما أدى أيضاً إلى تقاعس الجنود عن الخروج للقتال، بالإضافة إلى كل هذا ألغى السلطان سليمان نظام الإشراف على أمور الدولة في ديوان الوزراء برئاسته، وأسند هذه المهمة إلى الصدر الأعظم والذي صار يعين في منصبه بناء على قربه من السلطان والقصر دون النظر إلى خبرته الإدارية وسيرته الذاتية، وهذا بدوره فتح الباب للدسائس والمكائد بين الصدور العظام[1].

وقد حمّل معظم الكتاب والمؤرخين مسؤولية فساد الانكشارية إلى السلطان سليمان، ولاسيما بعد أن أسند الصدارة العظمى إلى صهره رستم باشا التي وصفته المصادر العثمانية بالكرواتي الحقير، وتفيد بعض المصادر الأخرى أن رستم باشا كان يهودياً، ولهذا تمسكت به روكسلانه بشكل كبير جداً [2].

---

[1] - لويس، مرجع سابق، ص٢٠٨.

[2] - أوزجان، مرجع سابق، ص٣١١.

الفصل الثاني

الإدارة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني:

١ -مهام السلطان.

٢ -مهام الصدرالأعظم.

٣ -الجهازالإداري:

-الديوان

أ-قاضيا العسكر.

ب-الدفترارين.

ج-النشانجي.

د- مجموعة الكتبة والتذكرجية.

٤ -أوضاع القوى العسكرية في عهده:

أ-الإنكشارية.

ب- الأسطول.

الإدارة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني:

لقد كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي جمعت تحت إدارتها الشرق الأدنى فترة طويلة من الزمن، وهذا ما عجزت عنه الكثير من الدول وفي مقدمتها الدول الأوروبية التي احتلت معظم دول الشرق الأدنى فيما بعد[١].

وبما أن الدولة العثمانية كانت في حالة حرب شبه دائمة، هذا ما جعلها قد صبغت بصبغة عسكرية، ويبدو أنها حافظت على طابعها العسكري حتى النهاية[٢].

هذا وقد بلغت الحضارة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني أرقى درجاتها، إذ تحققت في عهده أعظم إنجازاتها، كما نجح السلطان سليمان في منح الحضارة العثمانية طابعها المتميز الخاص بها، مع الحفاظ على اتباع الشريعة الإسلامية في نظمها الإدارية مع بعض الإقتباس من النظم البيزنطية، والذي تجلى بشكل واضح في النظم العمرانية وخاصة القصور التي اهتم بها السلاطين العثمانيين بشكل كبير وفي مقدمتهم السلطان سليمان القانوني[٣].

ليثبت بذلك أنه لم يكن قائداً عسكرياً فحسب، بل كان منظماً ناجحاً طور المؤسسات التي أوجدها أسلافه بدقة متناهية[٤].

وجدير بالذكر أن جهاز الإدارة العثماني حقق أعظم إنجازاته بين القرن الخامس عشر والسابع عشر الميلاديين، وفق تنظيم يتصدره في مركز الدولة الديوان الهمايوني بالإضافة إلى الإدارات التابعة له بشكل مباشرأو غير مباشر، إذ كانوا يتناولون فيه كافة المسائل السياسية والقضائية والاقتصادية والإدارية المتعلقة بأمورالدولة الداخلية أو العلاقات الدولية، وكل ذلك كان يتم من خلال نظم وبرامج محددة تسير على وتيرة سريعة حتى يتم الوصول إلى النتيجة المرجوة بعد تصديق السلطان على تنفيذ الإجراء اللازم لها[٥].

---

١ – أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٢.

٢– ياغي، مرجع سابق، ص٧٧.

٣ – عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص٦٤.

٤ – بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٥٨.

٥ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٦٩.

بداية لابد من الإشارة إلى أن السلطة الفعلية للدولة العثمانية كانت تنبثق من القصر، والذي كان متمثلاً بالدرجة الأولى بالسلطان والصدر الأعظم ثم حاشية السلطان[1].

١- مهام السلطان:

خلال ستة قرون تربع على عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثين سلطاناً، وبموجب التقاليد الإسلامية يجب أن يكون السلطان ذكراً وفي سن الرشد وأن يتمتع بعقل سليم[2]، كما يشترط على السلطان الذي يتولى العرش أن يكون من البيت العثماني الحاكم[3].

وقد تلقب السلطان العثماني بالعديد من الألقاب التي كانت تدل على عظمة وقوة وشجاعة صاحبها، وكان السلطان سليمان القانوني واحداً منهم، فكان لايبخل على نفسه بهذه الألقاب[4]، ففي مقدمة قانون نامه للسلطان سليمان القانوني يصف السلطان نفسه(بسلطان العرب والعجم والروم)، إذ يبدو أنه ادعى السيادة العليا على ثلاثة من أكبر الشعوب آنذاك، ثم يلاحظ أنه استبدل في القانون ذاته لقب سلطان الروم بلقب بادشاه إسلام(حاكم الإسلام)[5]، واتخذ السلطان سليمان أيضاً لقب خاقان لأنه عد نفسه أكبر حاكم للأتراك، ولقب سلطان لأنه حكم مصر[6]، بالإضافة إلى أن كلمة سلطان كثر ذكرها في القرآن والحديث، مما جعل السلطان سليمان يعتبر لقب سلطان من أكثر الألقاب ذات الصفة الإسلامية[7]، ولابد من ذكر أن السلطان حمل أهم التيجان الملكية نتيجة خضوع العديد من المدن تحت سيطرته مثل(المجر وصربيا وبلغاريا واليمن وتونس والجزائر)[8].

---

١ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص٦٦.

٢- اينالجيك، مرجع سابق، ص٥٥.

٣ - طقوش، مرجع سابق، ص٥٥٧.

٤ - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧١.

٥ - لويس، مرجع سابق، ص٦٩.

٦ - أوزتونا، المرجع السابق، ج٢، ص٢٧١.

٧ - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٤٩.

٨- أوزتونا، المرجع السابق، ج٢، ص٢٧١.

وبالنتيجة كل هذا مهد له السبيل في أن يجمع في شخصه العديد من التيجان والألقاب التي تتناسب مع وضعه كحاكم للعديد من الشعوب في العالم.

يتبع السلطان حكاماً كثيرون خاضعين له بشكل طوعي[١]، خاصة أن السلطان كان يلجأ عادة إلى تعيين أولاده كأمراء على مناطق الدولة وكان الهدف من ذلك تدريبهم على الحكم والتعامل مع الموظفين، وهذا ما جاء في واقع الحال بنتائج سلبية على السلطان[٢]، برزت فيها فيها طموحات وأطماع الأولاد وتطلعاتهم إلى السلطة، وهذا ما أضعف ثقة السلطان بأقرب الناس إليه[٣]، والأمثلة كثيرة عن الأمراء الذين طمعوا بالسلطة مما دفعهم إلى خيانة أقرب الناس إليهم، ومنهم الأمير سليم الثاني ابن السلطان سليمان القانوني، الذي لجأ إلى التآمر للوصول إلى السلطة[٤]، وكل ذلك تم بالتعاون مع والدته روكسلانه[٥].

وهذا ما دفع بالسلطان محمد الفاتح إلى أن يصدر قانوناً يعد قاسي على المستوى الإنساني، عندما سمح لخلفائه من السلاطين بقتل إخوتهم، حتى لا ينازعهم أحد على السلطة[٦]، إذ قال" يسر الله السلطنة لكل واحد من أولادي، ولأجل تأمين نظام العالم فإن قتل الأخوة مناسب، حتى أن أكثر العلماء أجازوه فليعمل به"[٧]، وقد تمسك السلاطين الذين خلفوه بهذا القانون والتزموا به حتى أواخر القرن السادس عشر[٨].

ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك ونقصد بذلك السلطان سليمان القانوني الذي قتل اثنين من أولاده أولهما مصطفى والثاني بيازيد، وقتله لهم كان ظلماً كبيراً، لأنهم وقعوا ضحية دسائس ومؤامرات زوجته روكسلانه التي استطاعت أن تنتزع السلطة لابنها سليم الثاني، وهنا

---

١ - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٣.

٢ - علي محمد إبراهيم، النظم الإدارية في الدولة العثمانية ١٥٢٠-١٦٨٧م (دراسة وثائقية تحليلية)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ الدولة العثمانية، إشراف أ د محمود علي عامر، ٢٠٠٧م ، ص ٤٤.

٣ - .قازان، مرجع سابق، ص٩.

٤ - اينالجيك، مرجع سابق، ص٥٥.

٥ - قازان، المرجع السابق، ص٥١.

٦ - اينالجيك، المرجع السابق،ص٩٦.

٧ - كوندز،أوزتورك، مرجع سابق، ص١٢٩.

٨ - قازان، المرجع السابق، ص٩.

تظهر المفارقة العجيبة والمتمثلة بأم تحرض على القتل من أجل وصول ابنها إلى السلطة، وأب يقتل أولاده خشية من ضياع كرسي السلطنة والجاه منه.

من ناحية أخرى عد السلطان سليمان القانوني رأس الهرم في التنظيم العسكري والإداري، وصاحب الكلمة الأولى كما أنه العقدة التي تنتظم عبرها شتى مراكز السلطة[١]، فهو رئيس الدولة القائد الأعلى للقوات المسلحة فضلاً عن كونه رئيساً للهيئة الحاكمة(الدينية والمدنية)[٢].

" فهوالذي يعين الوزراء ويفصلهم ويوجه الرتب والمأمورين ويثبت رؤساء الولايات المقررة لهم بحسب الإمتيازات المقررة لهم ويصك النقود وتقام الصلاة باسمه في الجوامع ويعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية ويشهرالحرب ويعقد الصلح ويقود جيوش البر والبحر ويأمربالحركات العسكرية وينفذ الشرع الشريف"[٣]، وكانت له الهيمنة على رؤساء الملل المختلفة غير المسلمة في الدولة العثمانية، بالإضافة إلى عده حامي الشريعة الإسلامية ومنقذها [٤].

" إن حضرة السلطان هو حامي الدين الإسلامي وحاكم جميع التبعة العثمانية وسلطانها " [٥].

على الرغم من أن السلطان سليمان لم تحد من صلاحياته وجود طبقة أرستقراطية ذات امتيازات أوحتى قانون مدني، إلا أنه لم يكن باستطاعته أن يتجاهل حدود الشريعة الإسلامية[٦]، وقد كان مدركاً لهذا الأمر، فصحيح أنه كان يتمتع بالسلطتين التنفيذية والتشريعية والتشريعية إلا أن قراراته(فرماناته) كانت تأتي في المرتبة الرابعة بعد القرآن والسنة والمذاهب الأربعة، وقد كانت الفرمانات التي يصدرها السلطان التي كانت تتعلق بالمسائل الدينية والمدنية التي لم تنص عليها المصادر الأساسية مثل القرآن والسنة تسمى (قانون نامه)

---

١ -حسن الضيقة، الدولة العثمانية الثقافة المجتمع والسلطة، بيروت، دارالمنتخب العربي،ط١، ١٩٩٧م،ص٧٢.

٢ - طقوش، مرجع سابق، ص٥٥٧.

٣ - أمين الخوري، القانون الأساسي، بيروت، مطبعة الآداب، ١٩٠٨م،ص٤-٥.

٤ - طقوش، المرجع السابق، ص٥٥٧.

٥ - الخوري، مصدرسابق، ص٤.

٦ - ياغي، مرجع سابق، ص٧٨.

أي كتاب قوانين، وقد نجح السلطان محمد الفاتح ومن بعده السلطان سليمان القانوني في وضع القواعد الأساسية(إدارياً واجتماعياً وسياسياً) التي قامت عليها الإمبراطورية العثمانية[١].

هذا بالإضافة إلى القواعد العرفية الثابتة التي كانت أيضاً تحد من تصرفات السلطان، ولابد من ذكر أن آداب البلاط والكثير من القيود التي كان يفرضها المجتمع كانت تحول دون تحقيق رغبات السلطان لاسيما في حياتهم اليومية[٢].

فعلى سبيل المثال عندما كان السلطان سليمان يقوم بزيارة طفله النائم بجوار والدته(كلبهار)، كان عليه أن يلتزم بعادات القصر الصارمة، فقد كان يشغل العبيد الأفارقة البكم مواقعهم حول غرفة النوم في الحرم، وترسل النساء الأخريات بعيداً خارج مدى السمع، وكان عليه عندما يترك زوجته وابنه أن يتسلل عائداً إلى غرفة نومه الخارجية، وهناك كان على الغلمان أن يديروا رؤوسهم بسرعة، وفيما عدا ذلك كان لا يرى زوجته كلبهار مطلقاً[٣]، إلا أن الأمر كان مختلفاً نوعاً مع روكسلانه التي انتهزت حريقاً قام في القصر السلطاني وكان ذلك سنة١٥٤١م، وقد سبب هذا الحريق بدمار غرفتها، مما جعلها تطالب بأن تكون غرفتها بالقرب من غرفة نوم السلطان سليمان، وقد تحقق لها ذلك فلم تعد تسير مسافة طويلة للوصول إلى غرفة نوم السلطان[٤].

وفي الواقع كان للسلطان سليمان الحق في ممارسة كافة الصلاحيات وعلى مختلف الأصعدة، وأن الفرامانات الإدارية والتنظيمية لا تصدر إلا إذا كانت محررة بتوقيعه[٥]، والتي والتي كان يطلق عليها الطغراء*[٦]، فكل القرارات التي تعرض عليه يتم دراستها في الديوان فإذا صادق عليها تتحول إلى فرمان الذي حمل طابع الإلزام، ولهذه القرارات أو الأوامر

---

١ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص١٠٧.

٢ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص ١٥١.

٣ – ترامب ، مرجع سابق، ص٣٥.

٤ – مؤنس، مرجع سابق، ص٥٣.

٥ – كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص٥٩٦.

* الطغراء هي علامة ترسم على الوثائق والمسكوكات السلطانية.كلو، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

٦ عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص٦٧.

التحريرية الصادرة من السلطان عدة مسميات ومنها(فرمان- براءة - منشور)[١]، وللسلطان الحق في عزل وتعيين جميع الموظفين مهما علت مراتبهم الإدارية[٢]، مثل الصدرالأعظم وكبار موظفي الدولة، بالإضافة إلى كل الصلاحيات السابقة، فإن للسلطان صلاحيات قضائية، حيث وقف على رأس السلطة القضائية[٣].

وبالمقابل لم يكن السلطان سليمان يتدخل بالشؤون الدينية لأنها كانت من اختصاص المفتي، الذي كان يعمل على مساعدة السلطان في الأمور الدينية وبعض الأمورالإدارية أيضاً[٤].

وهذا ما أكده المفتي أبو السعود أفندي في بعض الفتاوى المتعلقة في إدارة الدولة بقوله" لا يصح الأمر السلطاني فيما لا يقره الشرع"[٥].

ومن الواضح أن سلاطين الدولة العثمانية وفي مقدمتهم السلطان سليمان القانوني قد استغلوا هذه الصلاحيات وعملوا على تسخيرها في سبيل الحصول على الولاء الديني والسياسي[٦]، وقد كان من مصلحة السلاطين وللحفاظ على حكمهم أن يكسبو ود الإنكشارية، ويبدو أنه لم ينجح بالسيطرة عليهم بشكل فعلي سوى السلاطين الأقوياء[٧]، لأن الإنكشارية لم تكن لتتجرأ على شق عصا الطاعة إذا كان السلطان قوياً[٨]، مثل السلطان سليم وابنه السلطان سليمان القانوني[٩] الذي سعى للظهور أمام الشعب على أنه حامي الشريعة الإسلامية والحرمين الشرفين وطرق الحج وبالطبع حماية دار الإسلام وتوسيعها، بالإضافة إلى سعيه

---

١ - كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص٥٩٦.

٢ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٦٧.

٣ - كوندز، أوزتورك، المرجع السابق، ص٥٩٦.

٤ - ياغي، مرجع سابق، ص ٧٩.

٥ - جودت، مصدر سابق، ج٣، ص٢٨٥.

٦ - عباس الصباغ ، العلاقات العثمانية الصفوية ٩٠٧-١١٤٨هـ/١٥٠١-١٧٣٦م، رسالة أعدت لنيل شهادة شهادة الدكتوراة، إشراف د حسان حلاق، بيروت، ١٩٩٦م،ص٣٤٣.

٧ - اينالجيك، مرجع سابق، ص١٠١.

٨ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٦٧.

٩ - اينالجيك، المرجع السابق، ص١٠١.

لبناء المؤسسات الدينية ودعم القائمين عليها، وهذا ما أكسب السلاطين العثمانيين بشكل عام والسلطان سليمان بشكل خاص شرعية تاريخية ومعنوية كبيرة[١].

فنرى السلطان سليمان يقوم ببناء جامع حمل اسمه أي (السليماني) ويعدّ من أكبر الجوامع وأجملها وكان يحيط به مجمع كبير من المستشفيات والمدارس ومأوى للعجزة ومؤسسات خيرية، كما أمر السلطان ببناء الشاهزاد جامع (جامع الأمراء) إحياء لذكرى ابنيه محمد وجهانكير، ويمكن القول إنه في عام /٩٢٧هـ/١٥٥٠م/ بلغ عدد الجوامع في مدينة استنبول وحدها حوالي ٣٠٠ جامع[٢].

عمل في خدمة السلطان سليمان طبيب خاص يدعى رئيس الأطباء بالإضافة إلى مجموعة من الأطباء بإختصاصات متنوعة، اندرج هؤلاء تحت اسم الغرفة الخاصة للبادشاه، وأيضاً هناك السلاحدار ومهمته إعلام السلطان عن كل الأمور التي تحدث في الدولة صغيرة كانت أو كبيرة[٣].

أما بالنسبة لمرافقي السلطان فأطلق عليهم اسم جاووش حيث قاموا بأمور التشريفات، وفي أغلب الأوقات كان يتم إرسالهم إلى الدول الأخرى بصفتهم سفراء، لأنهم يجيدون عدة لغات[٤]، وإذا خرج السلطان سليمان في موكب، كان يرافقه حامل المفاتيح والأختام وحامل السيف ورئيس خزانة الملابس، وحامل معطف المطر كان يحمل نهاية ثوبه عدد من العبيد[٥].

العبيد[٥].

إما إذا خرج السلطان للقتال فقد أحيط به عدد كبير من الحرس والحاشية، فيسير خلفه ثلاثة مماليك يتبعونه كظله ويحملون له الماء والأسلحة، بالإضافة إلى الفرسان الذين

١ – الصباغ ، مرجع سابق،ص٣٤٣.
٢ – كلو، مرجع سابق، ص٢٣٨.
٣ – عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص٦٧-٦٨.
٤ – أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص ٣١٨.
٥ – مؤنس، مرجع سابق، ص٤١.

كانوايحملون الأسلحة النارية وخلف هؤلاء الفرسان رجال المدفعية، الذين كانوا يلازمون مدافعهم الثقيلة ويعانون من نقلها من مكان لآخر [١].

وقد كان ولاء هؤلاء الجنود للسلطان سليمان مطلقاً لا يعرف حداً إذ كانوا على استعداد تام لفداء السلطان بأرواحهم، حيث أحاطوا به مكونين سوراً منيعاً لا يمكن اختراقه، وبالمقابل ولكي يبرهن السلطان سليمان على الصلة الروحية التي تربطه بكتيبته المفضلة، سجل اسمه في قائمة اسمائهم على أنه جندي مثلهم [٢].

وبالنسبة لدخل السلطان سليمان فلابد من الإشارة إلى أن للسلطان سلطة مطلقة على جميع موارد الدولة [٣]، وقد كان دخل السلطان بشكل عام ضخماً جداً، مصادرهذه الدخول متنوعة، وبمجملها تذهب إلى خزانة الأندرون المعروفة في القصر باسم (الخزانة الداخلية) [٤]، وأهم هذه الدخول كان يأتي من الضرائب [٥]، ومن الإقطاعات المعروفة باسم (مالكانه) أي الأملاك و(خاص) ومن الحدائق السلطانية، وهناك أيضاً العوائد التي تأتي من مصرأي خراجها السنوي [٦].

لقد أولى السلطان سليمان القانوني باشوية مصر عناية خاصة [٧]، وانصب على وجه الخصوص بالسويس والإسكندرية ودمياط، لإنها تعد الأبواب التي يتم منها الدخول إلى مصر [٨].

وقد عدَّ السلطان سليمان القانوني نفسه المالك الوحيد لأرض مصر، إلا أنه لم يحرم الفلاحين من حقوقهم في الأراضي فكانوا يتمتعون بنصيبهم منها، ولكنهم كانوا ملزمين بالعمل فيها دون أن يكون لهم الحق في التصرف بها [٩].

---

١ – مؤنس، المرجع نفسه، ص٢٤.

٢ – كلو، مرجع سابق، ص٣٠.

٣ – حسون، مرجع سابق، ص٣٩٦.

٤ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٥١.

٥ – حسون، المرجع السابق، ص٣٩٦.

٦ – أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص١٥١.

٧ – جرجي زيدان، مصر العثمانية، تحقيق د. محمد حرب، دار الهلال، بيروت، ١٩٩٤م، ص١١٣

٨ – زيدان، المصدر السابق، ص١١٧.

لقد اهتم السلطان سليمان بتنظيم إدارة مصر، حيث طبق عليها نظاماً إدارياً دقيقاً، وذلك بإنشائه ديوانين أحدهما يدعى بالديوان الصغير والآخر بالديوان الكبير، ومن واجبات الديوان الكبير النظر والإقرار على الأمور والأشغال العامة التي لا تتعلق إدارتها بالباب العالي(الوزارة) مباشرة، أما الديوان الصغير فكانت جلساته تنعقد يومياً وكانت مهمته النظر في الحوادث اليومية[٢].

ويبقى أن نؤكد أن غنى السلطان سليمان القانوني كان أكبر من أن يوصف، حيث وجد الذهب والفضة في كل أنحاء قصوره، كما كان السلطان سليمان لا يلبس ملابسه مهما ارتفعت قيمتها مرتين، فضلاً عن ذلك كانت المائدة والأطباق المجهزة في غرفة الطعام مصنوعة من الفضة أيضاً ومرصعة بالجواهر[٣].

وبعد أن اطمأن السلطان سليمان القانوني إلى قوة ملكه، انصرف إلى حياة اللهو والترف، حيث بنى أجنحة في قصرالطوب قابي، وزاد عدد العاملين فيه إلى ٤٨٨عاملاً، وأصبح القصر يضم حوالي ١٣٧٠ شخصاً، يتقاضون رواتب مقدارها ٢٥٣٦ أقجة سنوياً، وقد ارتفع عدد العاملين في قصر السلطان سليمان بين عامي /١٥٣٩-١٥٤٠م/ إلى ٢٠ ألف عامل وكان على القصر أن يقدم الطعام والشراب لهم، هذا وقد ارتفعت مصاريف القصر من ٢٠ ألف أقجة ذهبية إلى ٥٠ ألف أقجة ذهبية أي ما يعادل ضريبة مصر السنوية[٤].

مما سبق يمكن القول أن مركز السلطان وما يختص به من موقع متميز داخل السلطنة العثمانية، هوجزءلا يتجزأ من كيان الدولة العثمانية، كما أن عملية انتقال الكثيرمن الصلاحيات التي كان يملكها السلطان وتوزيعها على أطراف أخرى في جهاز الدولة العثمانية، أدى إلى انتقال السلطان من موقع المتحكم بالحراك السياسي لقوى المجتمع إلى موقع المستهلك للسلطة ثم للمجتمع[٥].

---

١ - المصدر نفسه، ص١١٨.
٢ - زيدان، مصدرسابق، ص١١٥.
٣ - مؤنس، مرجع سابق، ص٤١.
٤ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٩٩-١٠٠.
٥ - الضيقة، مرجع سابق، ص ٨٤.

٢-مهام الصدر الأعظم:

هو الرجل الثاني في هرم السلطة في الدولة العثمانية، وهو الوزير الأول[١]، بالإضافة إلى ذلك أنه كان رئيس الديوان والمسيطر على شؤون الجيش حيث قاد المعارك الحربية عند الضرورة، وترأس المحكمة العليا بالاشتراك مع قضاة الشريعة الإسلامية[٢].

أي إنه رئيس الحكومة في الإمبراطورية العثمانية وهو الذي يدير شؤون الدولة نيابة عن السلطان، مع العلم أن منصب الصدر الأعظم لم يكن موجوداً خلال فترة السلاطين الأوائل، إنما كان يدعى نائب السلطان بالوزير[٣]، وغالباً كان الوزراء من العلماء[٤].

ويمكن إجمال الصفات الواجب توفرها ليصل الشخص إلى مرتبة الصدر الأعظم بالتالي:

أولاً: أن يكون مسلماً.

ثانياً: أن يتقن اللغة العثمانية.

ثالثاً: أن يكون قد تدرَّج في مناصب الدولة حتى وصل إلى منصبه هذا.

رابعاً: يتم تعيينه من قبل السلطان (بادشاه) بصورة رسمية[٥].

ويقيد الصدر الأعظم بشرطين في تنفيذ صلاحياته المفوض بها:

أولاً: عرض خلاصة إجراءات التعيين وأمور الدولة المهمة على السلطان سليمان، ويقوم باقي الموظفين بعرض كل أعمالهم على الصدر الأعظم، وفي حال غياب السلطان يحق للصدر

---

١ - إبراهيم، المرجع السابق ،ص ٨٩.

٢ - ياغي، مرجع سابق، ص ٨٠.

٣ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص٦٩.

٤ - اينالجيك، مرجع سابق، ص١٠٣.

٥ - أوزتونا، مرجع سابق،ج٢، ص٣٣٤.

الأعظم أن يمارس صلاحياته، وإذا كان هناك ما يجب طرحه على السلطان من قبل موظف كبير أو وزير، فهذا الطرح أو العرض يجب أن يتم عن طريق الصدر الأعظم.

ثانياً: يجب على الصدر الأعظم أن يلتزم بالأحكام الشرعية والقوانين أثناء ممارسته لهذه الصلاحيات[١].

وقد بين لطفي باشا*الصدر الأعظم للسلطان سليمان القانوني واجبات الصدر الأعظم والأمور الواجب الالتزام بها في كتابه (آصف نامه)[٢].

ويعدُ لطفي باشا من الشخصيات المميزة في عهد السلطان سليمان القانوني، وقد كان له مكانة خاصة عند السلطان لأنه صهره (أي زوج أخته)[٣]، حيث اشترك لطفي باشا في العديد من الحملات مع السلطان سليم الأول ثم مع السلطان سليمان القانوني، وخاصة حملاته في أوروبه، تم تعيينه صدراً أعظم سنة/٩٤٦هـ/١٥٣٩م/، وظل في منصبه حتى أقيل منه عام/٩٤٨هـ/١٥٤١م/، لوقوع خلاف مع زوجته، فاستقر بعدها في ضيعة تدعى ديميتوقة* فتفرغ للبحث وكتابة التاريخ، ولكن عندما مارس لطفي باشا صلاحيات الصدر الأعظم في الدولة العثمانية، وجد أن الديوان السلطاني يعاني من الفوضى وعدم التنظيم، وهذا ما جعله يبذل جهداً كبيراً خلال السبع سنوات التي قضاها في الوزارة لتنظيم شؤونها[٤].

لكن بعد إقالته تفرغ لكتابه(آصف نامة) الذي عرض من خلاله النصائح والتوجيهات الواجب اتباعها في هذا المنصب الكبير، مبيناً من خلاله الصفات المطلوبة في الصدر الأعظم، وكتب كل ذلك من خلال تجربته، فيقول" من المهم قبل كل شيء أنه ينبغي ألا تكون للصدر

---

١ - كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص٦٢٠.

* لطفي باشا، من أصل ألباني، جند في الخدمة العثمانية عن طريق الدفشيرمة، تخرج من مدرسة القصر إلى خدمة القصر، حيث كان على التوالي جوقة دار (حامل الملابس) ومتفرقة وهم كبار الضباط من أبناء المماليك، ورئيس حراس الباب وحامل راية السلطانية. لويس، مرجع سابق، ص ١١٧.

٢ - كوندز، أوزتورك، المرجع السابق، ص٦٢٠.

٣ - لويس، المرجع السابق، ص١١٧.

* ديميتوقة، وتقع بالقرب من مدينة أدرنة، ولاتزال ضمن الدولة التركية ولكن في القسم الأوروبي منها. لويس، المرجع السابق، ص١١٨.

٤ - لويس، المرجع السابق، ص١١٨-١١٩.

الأعظم أهداف وغايات شخصية، ويجب أن يكون كل ما يفعله لله، وفي الله، ولوجه الله، لأنه ليس فوق هذا(أي رضا الله)، منصب يطمح إليه، كما ينبغي أن يصدق السلطان دون خوف أو تستر، وإن الأسرار التي يشترك فيها الوزيرالأعظم مع السلطان يجب أن تحفظ ليس من الرجال من الخارج فحسب بل من الوزراء الآخرين أيضاً"[١].

ولعل من أهم واجبات الصدرالأعظم إضافة إلى ما ذكر سابقاً، هو تأمين نظام السلطنة وتنفيذ أحكام الحبس والنفي والإعدام وسماع الدعاوى، وتطبيق الأحكام الشرعية والعرفية وإدارة البلاد ورفع الظلم[٢]، وعندما يتسلم الصدرالأعظم قيادة الجيش يطلق عليه آنذاك لقب (سردار أكرم)*.

وجدير بالذكر أن خروج الصدرالأعظم كقائد للجيش في عهد السلطان سليمان القانوني قد أصبح شبه دائم، بعد أن تنصل السلطان من قيادة الجيش والخروج للمعارك، وفيما بعد أصبحت هذه الخطوة التي اتخذها السلطان سليمان عادة اقتدى بها كافة السلاطين من بعده.

ويبدو أنه من تاريخ فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح /٨٥٧هـ/١٤٥٣م/[٣] حتى أواسط القرن السابع عشر، كان يتم اختيارالصدورالعظام من رجال الدفشيرمة (الدفشرمة) باستثناء وزير أو وزيرين، لأن عناصر الدفشرمة عرف عنهم الطاعة العمياء، نتيجة للتربية العسكرية الصارمة التي تربوا عليها[٤]، وقد كانت عملية انتقال مركز الصدرالأعظم إلى طبقة الدفشيرمة بمثابة تحويل هذا المنصب من وزير تفويض إلى وزير تنفيذ[٥]، وقد عرف عن الصدرالأعظم حتى منتصف القرن السادس عشر أنه شخصية قوية،

---

١ – لويس،مرجع سابق، ص١٢٠.

٢ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٨.

* سردار أكرم، مصطلح فارسي عربي وتعني القائد الأكرم. الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، ص ٢٥٠.

٣ – الضيقة، مرجع سابق، ص٨٧.

٤ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٧.

٥ – الضيقة، المرجع السابق، ص٨٨.

واسع التجربة في شؤون الدولة، وخصوصاً بعد أن أدى السلطان دوراً هاماً في اختيار وتعيين الصدور العظام ذوي الكفاءة العالية[1].

وعندما تولى السلطان سليمان القانوني خرق هذه القاعدة عندما عين إبراهيم باشا صدراً أعظم وهو الذي كان رئيس غرفته الخاصة، ومنذ ذلك الوقت حذا خلفاؤه حذوه في تنصيب من يرغبون من الرجال في هذا المنصب، وهدف السلطان سليمان من ذلك هو ضمان ولاء وطاعة هؤلاء الرجال[2].

ولابد من التوضيح أنه قام أيضاً بتعيين رستم باشا صدراً أعظم فقط تنفيذاً لرغبة زوجته روكسلانه، على الرغم من قلة خبرته وسوء سلوكه.

لقد عد الصدر الأعظم الوكيل المطلق للسلطان، وكانت بيده صلاحيات واسعة، إلا أنه لم يكن بإمكانه أن يغير أحكام القاضي، إلا إذا كانت هذه القرارات تتعلق بأمن الدولة[3]، هذا وقد كان للصدر الأعظم نظام التشريفات الخاص به[4]، والتي كانت محددة بدقة ولو أنها لم تكن بدرجة تشريفات السلطان[5]، فكان جميع الموظفين يقبلون يد الصدر الأعظم، باستثناء الوزراء والقضاة العسكريين فكانوا يقبلون رداءه، أما بالنسبة لذوي المراتب الصغيرة فكانوا يقبلون يده، ما عدا الوزراء والقضاة العسكريين كبار السن فكانوا لا يقبلون يد الصدر الأعظم إنما يعانقونه فقط[6].

كما كان الصدر الأعظم يتكلم باسم السلطان في كثيرمن الأمور التي تخص الدولة سواء على الصعيد الداخلي أوالخارجي[7]، وكثيراً ما كان يترك السلطان سليمان الصدر الأعظم إبراهيم باشا في العاصمة استنبول ليدير أمور الدولة في غيابه، وقد عرف عن إبراهيم باشا أنه كان يحب الهدايا كثيراً فكان يصرعلى ألا ينهي أمراً قبل أن ينال نصيبه من الهدايا،

١ – أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص١٧٧.
٢ – طقوش، مرجع سابق، ص٥٦٥.
٣ – أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٤.
٤ – بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٧٤.
٥ – أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٥.
٦ – أوزتونا، المرجع نفسه، ج٢، ص٣٣٦.
٧ – الصباغ، مرجع سابق، ص٢٥٠.

وذهب إلى أبعد من ذلك، إذ كان يمنع ممثلي الدول القادمين لزيارة السلطان سليمان القانوني، من مقابلته قبل ان يقابلوه ثم يقبلوا يده ويقدموا له الهدايا[1].

أما عند غياب الصدر الأعظم فكان يكلف مكانه أحد الوزراء، وكان يطلق على الوزير اسم قائم مقام* ليقوم بمهام الصدر الأعظم[2]، وتزداد صلاحيات الصدر الأعظم ومسؤولياته عندما يقوم بعمليات التفتيش التي تعد أحد أهم الأعمال التي يقوم بها والتي بقي معمولاً بها حتى القرن الثامن عشر، إذ كان يخرج الصدر الأعظم على رأس حاشية كبيرة، كان في مقدمتها قاضي استنبول وذلك لتفقد أحوال الخلق، وللاستطلاع عن أمورهم وأوضاعهم[3]، فيتجول في الأسواق[4]، ومحال البيع والشراء ويراقب أرباب الصنايع والتجار ويحرص على ضبط الأسعار، وكان يعاقب المذنبين مباشرة مما كان له تأثير كبير في باقي الفئات[5] وأكثر شيء كان يشغل الصدر الأعظم شؤون التعيين، لأن الوظائف كانت محددة بمدة معينة، ولذلك إذا جددت مدة الوظيفة عند نهايتها أطلق عليها اسم مقرر أو إبقاء*، ولكن في حال تم تسليم هذا المنصب إلى شخص آخر أطلق عليه اسم توجيه*، وكانت التعيينات تجري عقب عيد الفطر أي في أوئل شهر شوال، لتشمل:

١- الوزراء وأمراء السناجق والبكلربكية.

٢- رجال الدولة.

٣- الإنكشارية.

٤- كتاب الديوان الهمايوني.

---

[1] - مؤنس، مرجع سابق، ص٤٧.

* قائم مقام مصطلح عربي الأصل تركي الصورة ويعني النائب. الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين" ، ص ٢٥١.

[2] - الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، ص ٢٥١.

[3] - جودت، مصدر سابق،ج٦، ص٢٩٤.

[4] - طقوش، مرجع سابق، ص٥٦٥.

[5] - جودت، المصدر السابق،ج٦، ص٢٩٤.

* لقد كانت الوظائف محددة بمدة معينة، فإذا تم تجديد مدة الوظيفة عند نهايتها أطلقوا عليها اسم (إبقا) أو(مقرر)، إما إذا تم منح هذه الوظيفة لشخص آخر أطلقوا عيه اسم (توجيه). أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص ١٧٩.

وبهذا يقوم الصدر الأعظم بإعداد قائمتين، إحداهما تضم أسماء الإبقا، والأخرى تضم أسماء التوجيه، ثم يقدمها للسلطان للحصول على موافقته وتصديقه(١).

أما عن موارد ونفقات الصدر الأعظم فقد كانت ضخمة، وقد عرف عنهم أنهم كانوا ذوي دخول عالية حيث تقاضوا مخصصات كبيرة(٢).

أما عند التقاعد فقد نص قانون نامه فاتح على أن يحصل الصدر الأعظم على ١٥٠٠٠٠أقجة سنوياً(٣).

وعلى الرغم من الدخل الكبير الذي يتقاضاه الصدر الأعظم إلا أنه بالمقابل كان عليه نفقات باهظة أيضاً، يأتي في مقدمتها هذه النفقات ما كان يصرفه على دائرته ورواتب العاملين فيها، حيث عمل تحت إمرته حوالي خمسمائة موظف، وبالتالي كان عليه أن ينفق مبالغ طائلة على هؤلاء الموظفين(٤).

وقد تطرق الصدر الأعظم لطفي باشا إلى الوضع المادي للصدر الأعظم قائلاً " إن القائم بمنصب الوزير الأعظم يملك إقطاعاً يدر عليه دخل ١٢٠٠٠٠٠ أقجة وله ثياب وخيول بقيمة مئتين ألف أو ثلاثمائة ألف أقجة من قبل الأمراء الأكراد، وغيرهم من الأمراء الأقوياء. وهكذا فلابد أن يكون دخله السنوي العام حوالي مليونين وأربعمائة ألف أقجة، وهذا بفضل الله العلي القدير منحة كافية من الدولة العثمانية، وكنت أنفق أنا شخصياً مليون ونصف مليون أقجة سنوياً على مطبخي وموظفي، ونصف مليون في الصدقات، وأوفر أربعمائة أوخمسمائة ألف الأخرى في خزينتي، إن الطمع طريق الشر، ولانهاية له، والقناعة كنز لا يفنى."(٥)

ولكن رغم هذه الصلاحيات التي تمتع بها الصدر الأعظم، إلا أنه في السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان القانوني صار خاضعاً لدسائس ومؤامرات نساء القصر، وأكبر مثال

---

١ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٩.
٢ – أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٥.
٣– أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص١٨٢.
4 – Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN,S179.
٥ – لويس، مرجع سابق، ص١٢٠.

على ذلك سيطرة روكسلانه على الصدورالعظام، سواء كان ذلك برضا السلطان أو بدون رضاه.

وخير مثال على ذلك الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي اغتيل سنة /٩٤٢هـ/١٥٣٦م/ بأمر من صديقه السلطان سليمان القانوني وبتحريض من زوجته روكسلانه، ويضاف إلى ذلك الصدر الأعظم الكرواتي الأصل رستم باشا، الذي كانت له اليد في مقتل مصطفى ابن السلطان سليمان القانوني وتم ذلك بالتعاون بين رستم باشا وروكسلانه، مع العلم أن رستم باشا تولى منصب الصدر الأعظم بمساعدة روكسلانه التي زوجته ابنتها مهرماه[١]، ويبدو أن السلطان سليمان قد ترك تصريف أمور الدولة له، ولم يعد يداوم على الظهور في المجالس الرسمية، وجدير بالذكر أنه عندما توفي الصدر الأعظم رستم باشا، ترك وراءه ٨١٥ ضيعة، و٤٧٦ طاحونة، ١٧٠٠ عبد، والكثير من الكتب والملابس والذهب[٢].

لقد حفل تاريخ الدولة العثمانية بهذا النوع من الصدورالعظام، الذين وصلوا بطريقة غير شرعية إلى منصبهم ، فمنهم من كان خادماً في القصر أو مربياً، للسلطان أو لأولاده.

وقد حامت الشبهات حول نزاهة الكثيرمنهم، فمنهم من استغل نفوذه في ابتداع وسائل غير مشروعة لكسب الغنى السريع ونذكر على سبيل المثال، صوقللي محمد باشا الذي شغل منصب الصدر الأعظم في أواخر عهد السلطان سليمان القانوني[٣]، وظل في هذا المنصب حوالي خمسة عشر عاماً حتى قتل سنة/ ٩٨٧هـ/١٥٧٩م/ في عهد السلطان مراد الثالث، وعلى الرغم من أنه كان صادقاً مع نفسه وكان موضع احترام في الدولة[٤]، إلا أنه كان داهية عرف كيف يجنب نفسه المخاطر التي أطاحت بالصدر الأعظم إبراهيم باشا من قبله، وقدعرف عنه أنه كان بخيلاً يقبل الهدايا الفخمة مما زاد في دخله وجعله واسع الثراء[٥]، فقد فرض على حكام الولايات شراء مناصبهم كل عام، وكانت عملية الشراء تتم بتقديم الهدايا

---

[١] – عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها،ص١١٤.

[٢] – مؤنس، مرجع سابق،ص٥٩.

[3]-Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN,S180.

[٤] – طقوش، مرجع سابق، ص٥٦٦.

[٥] – بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٧٤.

له[1]، وإذا توفي الوالي كان الصدر الأعظم صوقللي باشا يعين من يدفع أعلى ثمن للمنصب[2].

وقد نوهً الصدر الأعظم لطفي باشا إلى مثل تلك الطرق الملتوية والتي كان يلجأ إليها كل من الصدر الأعظم والوالي أو الموظف الذي يطمح إلى الترقية، محذراً من عواقب هذا المسلك الذي ستكون نهايته الدمار والفشل.

" يجب أن يقوم الوزير الأعظم بأداء الصلوات الخمس جماعة مع أصحابه في بيته، ويجب أن يكون بابه مفتوحاً (للجميع) بحيث يسهل على الناس مقابلته وعليه أن يرضيهم في حدود الإمكان، وينبغي الانتباه إلى أنه لا يحق له أن يسمح للمحتالين، والسارقين بأن يشتروا طرقهم (لإرضائه) بالهدايا، لأن الفساد في موظفي الدولة داء ليس دواء حاذروا حذاراً من الفساد، حفظنا الله منه"[3].

كما أكد لطفي باشا على أنه من واجبات الصدر الأعظم أن تكون هناك مراقبة دقيقة فيما يخص التعيينات والترقيات في وظائف الحكومة، التي يجب أن تقوم على أساس الاستحقاق فقط، مع احترام قانون الأقدمية والأسبقية، وألا يخضع للتأثير أو الضغط الخارجي، مع العلم أن المسؤولية الأولى والأخيرة تكون للسلطان[4].

إذاً يتبين لنا أن السلطة السياسية كانت قد انحصرت فترة طويلة من الزمن عملياً بيد السلطان، ولكن يبدو أن منصب الصدر الأعظم (الوزير) لم يكن في بادئ الأمر سوى المستشار الأول للسلطان ثم ما لبث أن أصبح بحكم نمو الإمبراطورية العثمانية السريع إلى منصباً خطيراً، تعاظمت خطورته وأهميته مع الزمن.

٣-الجهاز الإداري في عهد السلطان سليمان القانوني

---

[1] – طقوش، مرجع سابق، ص٥٧٦.

[2] – بروكلمان، المرجع السابق، ص٤٧٤.

[3] – لويس، مرجع سابق، ص١٢٠.

[4] – لويس، المرجع نفسه، ص١٢١.

-الديوان:

إن الديوان منذ نشأته حتى القرن السابع عشر كان يشكل قمة الإدارة المركزية في الدولة العثمانية، فهو الذي يهيمن على المكاتب التي تشكل بمجموعها الإدارة المركزية للدولة العثمانية[1]، وهوالمجلس الأعلى المخول بأعلى السلطات في النظام الإداري داخل الدولة العثمانية[2]، ويقصد بالديوان الهمايوني مجلس الوزراء لدى الدولة العثمانية، ويعني أيضاً المجلس الإمبراطوري العثماني أي بمعنى آخر هو يمثل الحكومة العثمانية[3]، ويعد الديوان بمثابة مجلس استشاري للسلطان، وكان يجتمع في هذا الديوان السلطان مع أركان دولته للنظر في أمور الدولة[4]، إلا أنه منذ عهد السلطان محمد الفاتح صار السلطان ينصت إلى مداولات الديوان من وراء الستار[5]، حتى عهد السلطان سليمان القانوني الذي امتنع عن حضور مداولات الديوان وترك رئاسة هذا المجلس للصدرالأعظم، الذي بدأ بالظهور كشخصية مسيطرة على حكومة الدولة العثمانية[6].

كان يتم اجتماع الديوان في المبنى المسمى باسم(قبة آلتي) أي تحت القبة، وهو يقع على يسار الباحة الثانية من سراي طوب قابي والذي شيد من قبل الصدر الأعظم إبراهيم باشا زمن السلطان سليمان القانوني، وكان يجلس أعضاء الديوان في القاعة الأساسية بالقبة الأولى، وتوجد فيها أريكة يجلس عليها الصدرالأعظم وبالقرب من هذه الأريكة كانت توجد نافذة خشبية تطل على دائرة الحريم وتعرف باسم المقصورة(القفص)، التي كان يأتي إليها السلطان أحياناً، وفي أوقات غير معلومة ليستمع إلى مذاكرات الديوان، وقد يتدخل أحياناً، وحصل أن تدخل السلطان سليمان في حكم صدر بحق رجل واعظ من قبل قاضيي العسكر[7].

---

١ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص١١٠-١١١.

٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٠.

٣ - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٩.

٤ - إبراهيم، المرجع السابق ،ص٧٦.

٥ - عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص١١٠.

٦ - لويس، مرجع سابق، ص١١٦.

٧ - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٣.

كان يدعى أعضاء الديوان بأركان الدولة، وهم[١]:

أ- **قاضيا العسكر:**

وكان أحدهما من الروملي والآخر من الأناضول[٢]، ومع أن رتبتهما متساوية إلا أن مقام قاضي عسكر روملي كان متقدماً على قاضي عسكر الأناضول، كانا المعاونان لشيخ الإسلام الذي لم يكن عضواً في الديوان، كما كانا يعدان من صنف العلماء وترتيبهم بعد شيخ الإسلام، يضاف إلى ذلك أنهما كانا المرجعين لكل الموضوعات التي تخص وزارة العدل والتربية والأوقاف والثقافة وحتى الأمورالدينية، وكانا يترأسان السلك القضائي، ولُقّبا بأفندي كبقية علماء الدين[٣].

ومنصب قضاة العسكر من المناصب ذات الجهاز المتشعب والمعقد، ومن أكثر الأمور التي ينشغل بها قضاة العسكر مشاكل أجهزة القضاء والتدريس الواقعة في شتى أنحاء البلاد ابتداءً من العاصمة نفسها، وحتى أصغر التجمعات السكانية، وبماأن قضاة العسكر كانوا ذوي نفوذ في الديوان الهمايوني الذي يمثل أكبرالأجهزة صاحبة القرار في الإمبراطورية، ولأنهم من الأعضاء الأساسيين في الديوان، كل هذه الأمور ضاعفت من صلاحياتهم ومسؤولياتهم[٤].

ب-**الدفتردارين:**

أي وزير المالية كان أحدهما من الروميللي والآخر من الأناضول[٥]، ويعد الدفتردارأكبر موظف مالي في الدولة العثمانية، أنشئ هذا المنصب بموجب الفرمان السلطاني الذي أصدره

---

١ - بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٧٦.

٢- كلو، مرجع سابق، ص٣٦٦.

٣ - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢،ص٣٤١.

٤ - إبراهيم، مرجع سابق،ص١٠٤.

٥- كلو، مرجع سابق، ص٣٦٦.

محمد الفاتح سنة ١٤٧١م[١].

ويدعى بالباشا أو الأفندي ناظر المالية، وكان له مستشارون يحيطون بهم[٢]، وعدّ كل دفتردار مسؤول في وزارته عن تنظيم إداري كبير ومتشعب فيه عدة مكاتب وكثير التفرع، وكل مكتب مختص بميدان معين، كما تتجلى مهمتهم بتلقي محاصيل الجباية والإشراف على النفقات[٣]، ودفع مرتبات الجنود، وجباية الأموال[٤].

ج- **النشانجي**: (نيشانجي أفندي أو باشا)[٥]، كان يذكر أحياناً عند العثمانيين باسم الطغرائي أو التوقيعي، وكان آخر الأركان الأصلية الأربعة في الديوان الهمايوني، ويحتل مكانه ضمن التشكيلات المركزية العثمانية[٦].

وعدّ النشانجي رئيس ديوان الرسائل وهو الذي يرسم الوثائق، ومن مهامه الإشراف والتأكد من الأوامر والتعليمات الصادرة عن الديوان بما يتماشى مع الشرع المعمول به في البلاد، ثم يوقع على ما يصدرعن الديوان بطغراء السلطان[٧]، ويعد النشانجي من الكتّاب ويحتل مرتبة وزير، وحتى عام١٥٦٠م كان بمثابة ناظر للخارجية (أي المسؤول عن السياسة الخارجية للدولة)[٨]، ومن المهام الأخرى التي تناط بالنشانجي اضطلاعه بترجمة الرسائل العربية والفارسية القادمة من الدول الإسلامية الأخرى وتقديمها، و حتى عام ١٥٩٩م رافق النشانجي السلطان عند خروجه إلى الحرب[٩]، وبعد عام ١٥٦٠ اقتصرت مهمته (بناظر الختم الختم الخاص) أي بالعربية توقيع همايون أي طغراء الباديشاه[١٠].

---

١ - مدحت سرت أوغلو، مرجع سابق، ص٧٣.

٢ - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢،ص٣٤١.

٣ - كلو، المرجع السابق، ص٣٦٦.

٤ - لويس، مرجع سابق، ص١١٢.

٥ - أوزتونا، المرجع السابق، ج٢،ص٣٤١.

٦ - إبراهيم، مرجع سابق، ص١٠٧.

٧ - كلو، المرجع السابق، ص٣٦٦.

٨ - أوزتونا، المرجع السابق، ج٢، ص٣٤١.

٩ - إبراهيم، مرجع سابق، ص١٠٩.

١٠ - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤١.

د-**مجموعة الكتبة والتذكرجية:**

وكان يترأسهم رئيس الكتّاب[1]، الذي عدّ الساعد الأيمن للنشانجي أي السكرتير العام للخارجية، فهو رئيس دائرة المراسلات مع الدول الخارجية بمعنى آخر وبمصطلح الوقت الحاضر كان وزيرالخارجية، وهو دائم الحضور في اجتماعات الديوان ولكن لم يكن له حق التصويت فيه[2].

كان للمحررين ومجموعة الكتبة دور كبير وهام في إنجاز الأعمال الكثيرة للديوان والتي عدت في غاية الأهمية مع ضرورة الحفاظ على انضباط هذه الأعمال، وكانوا مكلفين بإعداد برامج عمل الديوان الهمايوني وإعداد السجلات والأوراق لضمان سرعة مناقشة الموضوعات المقترحة في هذا الإجتماع[3].

تعد وظيفة كاتب الديوان خطوة مهمة للترقي والتدرج في وظائف الدولة، وكان يتم اختيار كاتب الديوان بدقة وعناية، إذ كان لابد من أن يكون من ذوي الشرف والكفاءة وعلى درجة كافية من الذكاء[4].

ويضاف إلى الموظفين السابقين، مجموعة من الرجال المسؤولين عن ضبط الأمن وتنظيم دخول وخروج القادمين إلى الديوان، والقيام بالإجراءات التنفيذية، وكان يحضر جلسات الديوان آغا الإنكشارية بصفته ممثلاً عن الجيش، وكان لكل من حاكمي آسيا وأوروبة دور فعال في الديوان، فكان لهم التأثير الفعال في إدارة الولايات[5]، وفي حال غياب الصدرالأعظم الصدرالأعظم كان يترأس الديوان نيابة عنه وزيران، وفي حال طال غياب الصدرالأعظم نتيجة قيادته لحملة عسكرية أو مرضه، كان يعين بدلاً عنه وكيلاً لرئيس الوزراء ويدعى(صدارت قائمقامي) ويتم اختياره من الوزراء[6].

---

[1] - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٤.
[2] - أوزتونا، المرجع السابق، ج٢،ص٣٤١.
[3] - أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص١٧٤.
[4] - أوزتونا، المرجع السابق، ج٢،ص٣٤٢.
[5] - بروكلمان، مرجع سابق، ص ٤٧٦-٤٧٧.
[6] - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٠.

هؤلاء هم الأعضاءالأساسيون، والمفوضون باتخاذ القرارات وإبداء الرأي وإصدارالأحكام[1]، ثم أصبح القبودان باشا(القائد الأعلى للأسطول) وعندما أصبح الريس خيرالدين باربروس القائد للأسطول زمن السلطان سليمان القانوني سمح له بحضور إجتماعات الديوان يحضر اجتماعات الديوان [2].

من المؤكد أن الديوان كان ديواناً سلطانياً، وقد حافظ على هذه الصفة أو الهوية حتى النهاية، ولأجل هذا كان السلاطين العثمانيون يترأسون اجتماعات هذا الديوان بأنفسهم في بعض الأوقات الحرجة والحساسة أو الأحداث المهمة[3].

ابتداءً من القرن السادس عشر وبعد أن كان يجتمع الديوان بشكل يومي انخفض عدد الأيام التي يجتمع فيها الديوان إلى أربعة أيام في الأسبوع[4] وهي السبت والأحد والإثنين والثلاثاء[5]، أما الأيام التي تعرض فيها القرارات على السلطان[6] فكانت يومي الآحد والثلاثاء[7].

تبدأ اجتماعات الديوان بعد صلاة الفجر مع شروق الشمس، ثم ينفض الاجتماع عقب تناول طعام الغداء[8]، وعلى اعتبار أن الديوان كان يمثل مجلس الوزراء، فقد ترتب عليه مهمات كبيرة لا حد لها، فكل المسائل السياسية والعسكرية والإدارية والقضائية، كان مسؤولاً عنها ويناقشها، ويصادق على القرارات التي تخصها، فهو محور الدولة، لذلك كان يشرف

---

[1] - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٤.

[2] - كلو، مرجع سابق، ص٣٦٦.

[3] - أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص١٧٢.

[4] - حسون، مرجع سابق، ص٣٩٨.

[5] - أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص١٧٢.

[6] - حسون، المرجع السابق، ص٣٩٨.

[7] - أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص١٧٢

[8] - أوغلو، المرجع نفسه، ج١، ص١٧٣.

على كل مؤسساتها[1]، كما كان يُعقد الديوان بمناسبة استقبال أحد السفراء الأجانب أو لتوزيع علوفات (رواتب) الانكشارية كل ثلاثة أشهر أو لحدث طارئ وبوجود السلطان[2].

ومن مهام الصدر الأعظم الكثيرة في الديوان، النظر في شؤون الدولة وبالدعاوى المتعلقة بالتيمار(أي الأراضي والإقطاعات الممنوحة من الدولة)[3]، إذ كان كل شيء ينطلق من الصدر الأعظم ويعود إليه، ابتداء من آلاف الموظفين والكتبة الذين كانوا يسيرون الدولة العثمانية، إضافة إلى إشرافه على الجهاز الإداري والعسكري والقضائي في كل ولايات الدولة العثمانية[4] .

وإذا كان الموضوع متعلقاً بالقانون المدني فكان يحال إلى قضاة العسكر، وإذا متعلقاً بالحسابات المالية فكان يحال إلى الدفتردار[5]، كما اهتم الديوان بالإشراف على شؤون كبار الكتّاب في الخزانة المالية، وحفظ القوانين وإصدار قرارات السلطان، ودراسة كل القضايا الهامة التي تخص الدولة[6].

والواقع أنه كان من أهم واجبات الديوان النظر في الشكاوى المقدمة وردُّ المظالم الكثيرة والمختلفة، والاستماع بشكل مباشر إلى الشكاوى المقدمة ضد الموظفين الكبار[7]، ويضاف إلى كل هذه المهام النظر في المسائل الخارجية وعروض السفراء الأجانب، ويتم النظر أيضاً بالرسائل القادمة من أمراء الولايات(بكلربكي) وأمراء الثغور، كما أنه كان مخولاً بإقرار السياسة الرئيسية للدولة، ووضع حدود ومبادئ أساسية في علاقاتها مع الدول الأخرى، مع قبول السفراء والنظر في طلباتهم، ووضع شروط الحرب والسلم وإصدار القرارات الخاصة بالمهمات العسكرية وبتوفير المؤن[8].

١- كلو، مرجع سابق، ص٣٦٧.
٢ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٣.
٣ – أوغلو، المرجع نفسه، ج١، ص١٧٤.
٤ – كلو، المرجع السابق، ص٣٦٧
٥ – لويس، مرجع سابق، ص١١٣.
٦ – ياغي، مرجع سابق، ص ٨١.
٧ – اينالجيك، مرجع سابق، ص١٤٧.
٨ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٤-١٧٥.

كانت القرارت التي يقرها الديوان لا تنفذ إلا بعد موافقة السلطان عليها، وأغلب الأحيان كان يوافق السلطان عليها، إلا فيما يتعلق بتعيين القضاة، فكان يستشير الصدرالأعظم والمفتي(١).

وعلى الرغم من أن السلطان سليمان لم يكن يحضر جلسات الديوان، إلا أنه لم يكن من المسموح أن يعقد الديوان جلساته، إذا كان السلطان خارج مدينة استنبول(٢)، والغالب على أسلوب عمل الديوان أن تنظر الدعاوى فيه بسرعة كبيرة، مثال على ذلك أن أحكام الإعدام التي يصادق عليها السلطان كانت تنفذ بالحال، مما يثبت الدقة والالتزام في عمل الديوان(٣).

ولابد من التأكيد أيضاً أن دورَ الديوان فاعلٌ في تحقيق الأمن والاستقرار بين كافة المواطنين(المسلمين وغير المسلمين)، ومحاولته تنسيق العلاقة بين المزارعين والسباهية المسؤولين عنهم، في إطار من الانسجام والحفاظ على التوازن في العلاقات بين مركز السلطة وفروعها خارج العاصمة(٤).

يبقى أن نذكر أن هناك عملية (الدخول للعرض)* حتى يشرف السلطان على أهم القرارات والنتائج التي توصل إليها الديوان، وللحصول على موافقته عليها، وفي كثير من الأحيان كان السلاطين يرفضون كثيراً من القرارات ويردون عليها بشدة، وجدير بالذكر أن عملية العرض قد خصص لها يومين في الأسبوع ثم تقلص إلى يوم واحد وكان ذلك يوم الأحد(٥).

---

١ - إبراهيم، مرجع سابق،ص٨٧.

٢ - جودت، مصدر سابق، ج٦، ص٤٧١.

٣ - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٥.

4– Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN, S177.

* كانت تتم عملية العرض بدخول السلطان أولاً ثم يدخل آغا الإنكشارية وهو قائد مماليك السلطان ودخوله وراء السلطان هو للدلالة على مدى إعتماد الدولة العثمانية على الجيش واهتمامها به، ثم يتم دخول قاضي العسكر من بعده وهو ممثل عن القانون والشرع الشريف ودخوله خلف آغا الإنكشارية إنما هو للدلالة على مدى تمسك الدولة العثمانية بالدين الإسلامي، ثم يتم دخول الصدرالأعظم والوزراء والدفتردار من بعد ذلك، وهم الذين يمثلون الإدارة والمال والخزانة. أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص١٧٦-١٧٧.

٥ - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص١٧٦.

طالما أن الغرض الأساسي للحكم هو إقرار العدل، فيمكن عدّ الديوان في جوهره بمثابة محكمة عليا، إلا أنه في الدولة العثمانية كان يقوم أيضاً بدور الحكومة التي تنظر في شؤون الدولة، فهو الذي يتخذ القرارات والتعيينات، ويناقش كل القضايا الحكومية(١).

٤-أوضاع القوى العسكرية في عهده

إن تاريخ الجيش العثماني هو تاريخ الشعب العثماني الذي يمتد إلى أغوار التاريخ، فمنذ عام/٩٢٣هـ/١٥١٧م/ وحتى عام/١٠٩٤هـ/١٦٨٣م/، كان الجيش العثماني يعادل مجموع جيوش العالم قوة، وكذلك بالنسبة للأسطول.

وهذا ما لاحظه الأوروبيون، الذين رأوا أن هذا التفوق العسكري يعود إلى عوامل عديدة أهمها النظام التكنولوجي، ويضاف إلى ذلك العامل الهام المتمثل بالوضع الاقتصادي (المالي) الذي كان الداعم الأساسي للجيش(٢).

ومنذ القرن الخامس عشر، بدأت تسعى الدول الأجنبية إلى استقدام ضباط ومدفعيها، و كانت تدفع لهم رواتب ضخمة، وقد وافقت الدولة العثمانية على ضوء مصالحها، على إرسال ضباطها إلى الدول الأجنبية، الذين أثبتوا جدارتهم في هذا المجال(٣)، وأكد على ذلك كثير من الكتاب الغربيين، فمنهم من قال" كان السلطان سليمان على رأس جيش، يسبق كل جيوش العالم الأخرى بأربعة عصور من حيث تأسيسه وأسلحته"، ويؤكد على ذلك الماريشال كونت مونتيولي أحد أكبر القادة العسكريين في أوروبه خلال القرن السابع عشر، والذي قال" إن الدولة العثمانية إمبراطورية مقتدرة وقوية إلى درجة أن جيشها المكون من جنود لا يحصى عددهم والمدربين بشكل ممتاز، مستعدون للقتال في أي لحظة، إن الخدع التي يستعملونها في

١ - اينالجيك، مرجع سابق، ص ١٤٩.

٢- أوزتونا، مرجع سابق،ج٢، ص١٧٣-٣٧٤.

3 - DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE, ARMIES OF THE OTTOMAN TURKS 1300-1724,p8.

حرب ما لا تشبه سابقتها، ينظمون الحرب ويعدون لها بشكل ممتاز، إن نظام حرب روما كان كذلك، يحفرون الخنادق ويجهزون الاستحكامات بشكل فائق" [١].

أ-الإنكشارية:

جرى تشكيل الإنكشارية كفرقة عسكرية عقب السيطرة على أدرنة زمن السلطان مراد الأول بجهود وزيره جاندرلي قره خليل[٢]، وقد جرى تزويد هذه الفرقة بالرجال وفقاً لثلاث مراحل[٣]:

المرحلة الأولى من أسرى الحرب طبقاً لقانون الخمس(بنجيك)[٤]، إذ كان يمر الجندي بمرحلة تدريب قصيرة ثم ينضم إلى سلك الإنكشارية[٥].

المرحلة الثانية وهي تسليم الأسرى لعائلات من الفلاحين العثمانيين، لكي يعملوا مع هذه العائلة لفترة قصيرة ثم ينضموا إلى سلك الإنكشارية .

أما المرحلة الثالثة فينقل فيها هؤلاء الأسرى والدفشيرمة من العائلات العثمانية إلى أوجاق* العجمية* فيجري تدريبهم ثم يتم نقلهم إلى أوجاق الإنكشارية[٦].

---

١ - أوزتونا، مرجع سابق،ج٢، ص٣٨٤-٣٨٥.

2 - DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE,op.cit.p 8.

٣ - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٣٨٤.

٤ - الحويري، مرجع سابق، ص٢٤٨.

٥ - إيرينا بيتروسيان، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر بالمركز، دبي مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، ٢٠٠٦م، ص٢٩.

* أوجاق تعني الموقد أو المجمع. عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص٢٧٥.

* أوجاق العجمية، أطلق هذا المصطلح على العناصر المسيحية التي كان يتم جلبهم من بلاد الصرب والبوسنة والهرسك بموجب قانون (بنجيك قانوني) أي قانون الخمس، وكان يجري إلحاق تلك العناصر بالإنكشارية، إلا أنها لاتخضع بالعادة لما تخضع له الإنكشارية، التي جمعت وفق لنظام الدوشيرمة، وكانت عناصر أوجاق العجمية تتكلف بالإضافة إلى الأعمال العسكرية بأعمال زراعية. جودت، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٠.

٦- أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص٣٨٤.

لقد كان أوجاق الإنكشارية في القرن السادس عشر، عبارة عن فرقة خاصة واحدة ثقيلة، وكان يشكل جزءاً هاماً من الجيش العثماني[١]، فهو يعتبر القوة الحقيقية لهذا الجيش[٢]، وقد بلغ عدد الإنكشارية زمن السلطان سليمان القانوني حوالي ١٢٠٠٠ جندي، وجدير بالذكر أنهم لم يكونوا يمثلون كل الجيش العثماني[٣]، كما أن الإنتصارات العسكرية التي حققها الجيش العثماني لم يحققها الإنكشاريون فحسب بل حققها السباهية والآقينجي(المغاوير)[٤]، لأن دور الإنكشارية كان يقتصر على الدخول إلى القتال بعد أن يكون العدو قد واجه الفرسان والجنود غير النظاميين، وقوات المدفعية، فيكون حينئذ لفيلقهم القرار الحاسم في مصير المعركة .

وقد خضع فيلق الإنكشارية لنظام صارم إذ كانوا ملزمين العزوبية، وكانوا يستعملون الأسلحة بمهارة فائقة، وقد أكد على ذلك بوسيك أثناء زيارته للسلطان سليمان القانوني، فقال عنهم " أنهم يشبهون الرهبان المطيعين"، ويضاف إلى ذلك أن غالبيتهم كانوا من أصل مسيحي وخاصة في القرن السادس عشر[٥]، وكانوا ينتدبون عن طريق الدوشيرمة(الدفشيرم)[٦]، ويبدو ويبدو أن الدفشيرمة في عهد السلطان سليمان القانوني وخلفائه، كانوا يوفرون للسلطان كتائب ممتازة، بالإضافة إلى الموظفين المدنيين بما فيهم الصدر الأعظم، وعلى الرغم من احتجاجات الأتراك الأصليين إلا أن نظام الدفشيرمة قد بلغ أوج قوته وتطوره زمن السلطان سليمان القانوني، الذي كان كل وزرائه بلا استثناء مسيحيين اعتنقوا الإسلام[٧]، وقد وصف السفير الإيطالي برناردو فادجيرو في إحدى رسائله إلى مجلس الشيوخ سنة/ ٩٦٠هـ/١٥٥٣م/ عملية انتقاء الصبية للفيلق الإنكشاري، فأفاد أن عامل التجميع كان يأتي إلى القرية أو المدينة، والذي كان بدوره يستدعي رؤساء الضواحي الذين كان عليهم استدعاء أرباب الأسر مع أبنائهم إلى

---

١ – أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩٠.

٢ – قازان، مرجع سابق، ص٧.

٣ – كلو، مرجع سابق، ص٢٩.

4 – DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE, op.cit,p 9.

٥ – كلو، المرجع السابق، ص٣٠.

٦ – لويس، مرجع سابق، ص٨٨.

٧ – كلو، المرجع السابق، ص٣١.

مكان وجود عمال التجميع، وفي حال مخالفة إحدى الأسر للأوامر وعدم قدومها كانت تعاقب، بعد ذلك يقوم عامل التجميع والكاتب في انتقاء الصبية الجيدين والصالحين، وكانوا غالباً بين سن ١٢و١٥، ويتميزون بصحة جسدية جيدة، وكان على عامل التجميع أن يختار من بين ٥ أو ٤ صبية، صبياً واحداً[١].

وتفيدنا المصادر العثمانية أن عناصر القابي قول* كانت قد حظيت باهتمام كبير من قبل كل من السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني[٢]، إذ كانوا من أشهر فيالق الجيش العثماني، فكانوا يشكلون الإنكشارية وسباهية الباب(الخيالة)[٣]، وقد عهد إلى القابي قول قيادة قيادة المنظومة العسكرية[٤]، أما العناصر الرئيسية فكان يتم انتقاؤها من قبل السلطان، ثم تسلم تسلم إلى آغا القابي قول الذي كان يوزعهم حسب اختصاصاتهم على أربعة أقسام، ومنها فرقة تفرز في القصر لحراسة النساء(الحرملك) وكان يطلق عليها اسم العناصرالرسمية، أما الذين يتمتعون بأجسام ضخمة وطويلة فكانوا يفرزون إلى الركاب الهمايوني[٥]، بشكل دائم لاسيما في أوقات الصيد[٦].

وقد خضع عناصرالقابي القول(عبيد الباب)الذين كلفوا بحماية السلطان والحريم السلطاني، لنظام قاسٍ وشديد، فأي خطأ يرتكب من قبل عناصره كان مصيره الإعدام[٧].

بالإضافة إلى القابي قول كانت فرقة السباهية قد نالت إهتماماً كبيراً في عهد السلطان سليمان القانوني،

---

١ – بيتروسيان، مرجع سابق، ص٣١.

* قابي قول، أي عبيد الباب، وهناك فرقة من الإنكشارية تحمل ذات الإسم، وهي مختصة بحراسة القصور، وتأتمر بأمر من السلطان بشكل خاص. عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص٢٧٩.

١– عامر، المرجع السابق، ص٢٧٩.

٣ – كلو، مرجع سابق، ص٢٩.

٤ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص١٢٣.

٥ – التر، مرجع سابق،ج١، ص١٣٠.

٦ – إبراهيم، مرجع سابق ،ص٢١.

7 – Medhat Sert Oglu, KAUNAK GEÇEN , s250.

وقد أكد ذلك اللورد باول ريكوت* بقوله:

" تيمارلي سباهي، هو أحسن أقسام الجيش العثماني، إن الذي فتح القسم الكبير نسبياً من الكرة الأرضية، هو هذا الجيش الخيال" [١].

وكان سباهية*التيمار*هم المتصرفين بأراضي الدولة، وعرفوا باسم(صاحب الأرض)، وعندما تتعرض الدولة للخطر يطلب يطلب منهم عدداً من الخيالة[٢] بما يتناسب مع حجم الدخل السنوي للإقطاعات الممنوحة لهم[٣]، وكان ضباط السباهية ذوو المراتب العالية[٤]، مسؤولين عن ضبط الأمن في الأراضي التي يديرونها وقت السلم[٥]، وفي أوقات الحرب كان على كل سباهي عند إبلاغه بالتأهب للحرب أن يذهب إلى المكان الذي يوجد فيه الزعيم* بكامل تجهيزاته[٦]، وعند بدأ الحرب يكون السباهي الحرب تحت قيادة أمير الآلاي (آلاي بكى) أي (آمر الكتيبة)[٧]، وأمراء الكتائب يأخذون جنودهم إلى السنجق بك أي(آمراللواء)

---

١ - أوغلو، مرجع سابق، ج١،ص٣٩٩.

* اللورد باول ريكوت، وهو دبلوماسي عاش في الدولة العثمانية مدة ٢٠سنة. أوزتونا، مرجع سابق، ج٢،ص٣٩٩.

* سباهي، كلمة فارسية وتعني خيال. أوزتونا، المرجع السابق، ج٢،ص ٣١٧.

* التيمار، هو استمرار لنظام الإقطاع الذي كان معروفاً في الدول الإسلامية السابقة، وتشكل أيام السلطان مراد الأول، وهو الذي يضمن فلاحة الأرض من جهة وتزويد الدولة بما تحتاجه من جنود من جهة أخرى. أوغلو، مرجع سابق، ج١،ص٣٩٩.

٢ - أوغلو، المرجع السابق، ج١،ص٣٩٩.

٣- الشناوي، مرجع سابق، ج١، ص١٣٠.

٤ - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٧.

٥ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٢٧.

* الزعيم، كانت الدولة العثمانية تعطي تيمارلي سباهي بدلاً من الراتب الشهري قطع أرض تسمى ديرليك(بالعربية إقطاع)، وإذا كانت ديرليك صغيرة تسمى (تيمار)، وإذا كانت كبيرة كانت تدعى (زعامت)، وكان أصحاب هذه الزعامت يدعون بزعيم. أوزتونا، المرجع السابق، ج٢، ص٣٨٨.

٦ - الحويري، مرجع سابق، ص٢٥٣.

٧ - أوغلو، المرجع السابق، ج١،ص٣٩٩.

الذي يرسلهم بدوره إلى البكلربك(الفريق) الذي يأخذهم بدوره أيضاً إلى السرعسكرأي(قائد رئيس أركان الجيش) وبذلك يكون قد تم تجميع الجيش[١].

أما السباهي الذي يتخلف للانضمام إلى الجيش أوقات الحرب يؤخذ منه الإقطاع ويمنح إلى من بذل جهداً في الحرب وأثبت قوته وجدارته[٢].

وإذا مات السباهي صاحب التيمار تمنح هذه الأرض لابنه وإذا لم يكن لديه وريث[٣]، وجب على أميرالآلاي إخبار الدولة بذلك فيتم منح التيمار(الأرض) لشخص آخر تراه الدولة مناسباً من بين العساكر[٤]، لم يطبق هذا النظام في كل الولايات العثمانية[٥]، إنما كان في الأناضول التي شكلت نواة الإمبراطورية العثمانية وسورية والروملي، وبالمقابل لم يكن موجوداً في أي ولاية أفريقية أو في اليمن أو بغداد[٦]، ويبدو أن هذه العملية الوراثية للأرض قد أوجدت طبقة أرستقراطية زراعية قوية، مسيطرة على أغلب الأراضي الزراعية[٧].

لقد بلغت التشكيلات السباهية ذات التيمارات أرفع مستوياتها في عهد السلطان سليمان القانوني أواسط القرن السادس عشر، إذ كلما اتسعت أراضي الدولة العثمانية ازداد عدد السباهية ذوي التيمار، ويبدو أن الحروب التي وقعت في عهد السلطان سليمان القانوني كانت عاملاً هاماً في زيادة الامتيازات التي تمتع بها السباهية[٨].

على سبيل المثال كان عدد السباهية في عهد السلطان سليمان القانوني حوالي ١٦٦٢٠٠ سباهي، موزّعين بين ولايتي الروملي والأناضول، ولكنهم كانوا يدخلون في الحرب على شكل جناحين منفصلين[٩].

---

١ – أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ٣٨٨.

2 – DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE,op.cit .p11.

٣ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص١٢٧.

٤ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٠.

٥ – عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص١٢٨.

٦ – أوزتونا، المرجع السابق، ج٢،ص٣٨٧.

٧ – أوغلو، المرجع السابق، ج١،ص٣٩٩.

8 – DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE,op.cit.p13.

٩– أوزتونا، المرجع السابق، ج٢،ص٣٨٨.

لكن يبدو أن هذا الصنف من الجيش بدأ بالتدهور أواخر القرن السادس عشر، نتيجةانضمام الجنود المخالفين للقانون إليها، وتعيين المنخرطين فيها بالرشوة[١]، واستمر بالتدهور حتى أواخر سنة /١٢٦٥هـ/١٨٢٦م/[٢].

واهتم السلطان سليمان القانوني بالجيش، وخصوصاً المدفعية حيث لاحظ الأهمية الكبيرة التي أخذت تتمتع بها المدفعية في عهده[٣]، فوجه اهتمامه لها وسعى لتطويرها[٤]، لذا شيد مصنعاً كبيراً لصناعة المدافع وأمر ببناء ثكنة لجنود المدفعية بجواره[٥]، وقد جهزهذه الثكنة ودعمها بكل مستلزماتها حتى تصمد أمام أعدائه خصوصاً الإمبراطورية النمساوية، وقد وجه المماليك للانضمام إلى فرق المدفعية، وسمح أيضاً للأتراك بالانضمام إليها، ومنحوا مرتبات ضخمة[٦].

وكان لكل حامية ٦ ضباط برتبة لواء:

١- القائد الأعلى للحامية(طوبجيباشي) قائد المدفعية.

٢- رئيس السباكين (دوكمجيباشي) وهو مهندس، وكان آمر(رئيس) أكبر معمل أسلحة ثقيلة في العالم آنذاك.

٣- طوبجيلر كتخداسي أو(أوده باشي) وهو معاون القائد.

٤- أفنديسي (طوبجي كاتبي) وهوجنرال مالي أو المسؤول المالي، ويليه معاون السباكين وأمين الطوبخانة، ويبقى أن نذكر أن مرتبات جنود المدفعية كانت كبيرة، حيث تتراوح بين ٦إلى ٨ أقجة يومياً[٧].

بالإضافة إلى ذلك ضم السلطان سليمان، فرق الخيالة والتي اختلفت عن الإنكشارية وغيرهم من فرق المشاة، بسبب عدم وجود ثكنات خاصة بهم، إذ كانوا يعيشون في

---

1 – Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN,S179.

٢ – أوزتونا، مرجع سابق، ج٢،ص٣٨٨.

٣ – مؤنس، مرجع سابق، ص٢٤.

٤ – بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٦٧ .

٥ – أوزتونا، المرجع السابق، ج٢،ص٣٩٨.

٦ – مؤنس، المرجع السابق، ص٢٤.

٧ – أوزتونا، المرجع السابق، ج٢،ص٣٩٨-٣٩٩.

قرى قريبة من العاصمة، وقد بلغ عددهم في عهده ما بين ١٠٠٠٠إلى ٢٠٠٠٠ خيال، يضاف إليهم الأتباع وكانوا من الرق وقد وصل عددهم ما بين ٤٠٠٠٠إلى ٥٠٠٠٠ مقاتل مما جعلهم أكثر عدداً من الإنكشارية[١].

والواقع أن انضباط جيش السلطان سليمان القانوني كان أرهب الغرب، وخصوصاً عندما حمل الجندي العثماني صفات الشجاعة والصرامة التي جعلت الجيش العثماني جيشاً لا يقهر[٢].

وقد ذكر ذلك السفيرغيسلان دي بوسيك، فيما كتبه من رسائل، قائلاً " عندما يخرج الجنود الأتراك للقتال يتناولون مرة أو مرتين في اليوم، مشروباً يتكون من ماء يضعون فيه بضع ملاعق من الدقيق، وشيئاً من الزبدة والتوابل، وقطعة من الخبز أو نصيباً من البسكويت إذا وجد، والبعض منهم كانت معه سلة صغيرة فيها لحم بقرمجفف ومطحون يستعملونه كما يستعملون الدقيق، وأحياناً يأكلون لحوم خيولهم الميتة، كل هذا يبين لكم بأي مقدار من الصبر والقناعة والإقتصاد يواجه الأتراك الصعاب وينتظرون تحسن الأوضاع، وكم يختلف عنهم جنودنا الذين يحتقرون عندما يخرجون للقتال الطعام العادي، ويطالبون بأكلات لذيذة كالسمنة وعصفورالتين وأطعمة مستحضرة في المطبخ، وإذا لم يعطوا تمردوا وذهبوا ضحايا أنفسهم، وحتى إذا أعطوا فإنهم يكونون كذلك ضحايا أنفسهم، لأن كل امرئ هو أشد الأعداء على نفسه، وليس له على نفسه عدوّ أخطرمن عدم اعتداله في المأكل والمشرب، فهو الذي يقتله إذا لم يقتله العدو، إن فرائصي ترتعد مما سيسلطه علينا المستقبل عندما أقارن النظام التركي بنظامنا" [٣].

كما يبين لنا المؤرخ الإيطالي باولو جيوفو* رأيه في الجندي التركي، بقوله" إن نظامهم العسكري هو الانضباط والصرامة بحيث يفوق بسهولة نظام قدماء اليونان والرومان،

١- عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص١٢٥.

2 – DAVID NICOLLE,op.cit , ,p13.

٣ – أوجير غيسلان دي بوسيك، وثيقة منشورة في "سليمان القانوني"، كلو، مرجع سابق، ص٣٠.

* باولو جيوفيو، مؤرخ إيطالي معاصر للسلطان سليمان القانوني له كتاب حمل اسم" تقييدات في الشؤون التركية"، صدر في روما سنة ١٥٣١م. كلو، المرجع السابق، ص٣١

إن جنود الأتراك أفضل من جنودنا لأسباب ثلاثة: أنهم يطيعون أوامر قادتهم بسرعة، ولا يهتمون أبداً بحياتهم في المعركة، ويستطيعون العيش طويلاً دون خبز ولا خمر، قانعين بقليل من الشعير والماء"[١].

وبالمقابل كان تأثير الإنكشارية من الناحية السياسية ثقيل الوزن في الدولة العثمانية[٢]، فقد كانوا يرعبون سكان العاصمة استنبول، حينما ينتشرون كعصابات في حي من الأحياء، إذ كان التجار يسارعون لإغلاق دكاكينهم، وعند دخولهم المعركة كان من المستحيل منعهم من نهب أي مدينة بعد استسلامها، فهم الذين عاثوا فساداً وخراباً في كل من رودس سنة /٩٢٧هـ/١٥٢١م/، وبودا سنة /٩٣٥هـ/١٥٢٩م/، على الرغم من القرارت الصادرة من قبل السلطان سليمان والتي تردعهم عن مثل هذه التصرفات[٣].

وعند اندلاع الحرب كانت فرقة المدفعية ومصلحي الأسلحة يتقدمون الجيش، وكان الإنكشارية يرافقون طليعة الجيش، ويأتي من بعدهم آغاواتهم واثنان من قضاة العسكر والمحاسبون[٤]، وبعدهم كان يأتي موكب السلطان سليمان ويرتفع وراءه بيرق الحرب أي علم الدولة العثمانية والألوية الستة الخاصة بفرق الجيش المختلفة[٥]، أما قلب الجيش فكان يستقله الصدرالأعظم والوزراء مع حاشيتهم الضخمة، ويأتي من بعدهم باشا الروميللي وباشا الأناضول ومجموعة من الفرسان الإقطاعيين، وكان باشا الروميللي يتقدم زميله في الحملات الأوروبية في حين كان التقدم لباشا الأناضول في الحملات المتوجهة نحو آسيا، أما في مؤخرة الجيش فكانت فوجدت قوافل العتاد والمؤن[٦].

وكان أكثر ما يرهق الجيش العثماني، أثناء توغلها في بلاد العجم(فارس)، أو في المجر هو اصطحاب قوافل كبيرة محملة بالذخائر والمؤن، على سبيل المثال اصطحب الجيش العثماني معه أثناء حصار فيينا سنة /٩٣٥هـ/١٥٢٩م/ ما لا يقل عن ٢٢٠٠٠ بعير محمل

١ – كلو، مرجع سابق، ص٣١.

2 – DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE, op.cit, ,p 17.

٣ – كلو، المرجع السابق، ص٣٠.

٤ – بروكلمان، مرجع سابق، ص ٤٦٨.

٥ – التر، مرجع سابق، ج١، ص١٣١.

٦ – بروكلمان، مرجع السابق، ص ٤٦٨.

بالدقيق وليس هذا فحسب بل اصطحب معه مثل هذا العدد من البغال، وكانت العناية بهذه الأمور من اختصاص فرقة تدعى (وينسوق) والتي تتألف من الفلاحين البلغار، الذين كانوا لا يتقاضون أجورهم، لأن خدمتهم في الجيش العثماني تقابل إعفائهم من الجزية[1].

ب-الأسطول:

تم انشاء الأسطول العثماني بقصد مواجهة أسطول البندقية، ثم ما لبث أن تطور وأصبح يخدم السياسة العثمانية في البحر الأسود والمتوسط والأحمر والمحيط الهندي[2].

ثم بدأ اهتمام العثمانيين بالبحر بعد إلحاقهم للإمارات الأناضولية الساحلية، حيث أدرك السلطان يلدرم بيازيد أهمية مضيق الدردنيل آنذاك، مما دفعه لإقامة ترسانة وقاعدة بحرية وذلك سنة/٧٩٢هـ/١٣٩٠م/، كما قام بتشكيل فرقة بحرية تسمى (العزب)*، وذلك للعمل في السفن[3]، ومنذ عام/٧٩٢هـ/١٣٩٠م/، غدت البحرية العثمانية قوة لا يستهان بها[4].

وفي الواقع وجدت الدولة العثمانية أن البحرية لها أهمية عظيمة وخاصة في دولة لها أراضٍ في أوروبة وآسيه[5]، ولما سيطر العثمانيون على استنبول ازداد اهتمامهم بالقوة البحرية، فنجحوا بالاستيلاء على قسم كبير من جزر بحر ايجة بذلك عززوا أمن السواحل في غرب الأناضول[6]، إلا أن التطور الحقيقي للأسطول العثماني كان في عهد السلطان بيازيد الثاني/٨٨٦هـ/١٤٨١م/، إذ وصلت قوته البحرية إلى ضعفي قوة أسطول البندقية، الذي كان من أقوى الأساطيل البحرية آنذاك[7].

---

[1] - بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٦٧.

[2] - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص١٢٨.

* العزب وهي فرقة من الشبان غير المتزوجين تعمل في السفن وقد عرفت هذه الفرقة باسم (قوات العزب). أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٤١٥.

[3] - أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص٤١٥.

[4] - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢،ص٤٢١.

[5]- DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE,op.cit ,p 21.

[6] - أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص٤١٥-٤١٦.

[7] - أوزتونا، المرجع السابق، ج٢،ص٤٢٢.

كما اهتم السلطان سليم الأول بالأسطول[١]، فقام بتوسيع ترسانة القرن الذهبي التي بنيت في عهد السلطان محمد الفاتح[٢]، وقام بتعزيزها بإنشاء سفن جديدة[٣]، إلى أن خلفه ابنه السلطان سليمان القانوني، الذي اهتم بالأسطول العثماني لاهتمامه بالجيش، حتى إنه في بعض السنوات كان اهتمامه بالأسطول قد شغله أكثر من الجيش، فأصبحت القوة البحرية العثمانية تتفوق على باقي الأساطيل البحرية في العالم آنذاك[٤]، حيث وصل عدد سفن الأسطول العثماني نحو ثلاثمائة سفينة[٥]،وعند انضمام الريس خيرالدين باربروس إلى الأسطول العثماني[٦] أدى إلى ارتقائه وازدياد قوته الذي بلغ الذروة في عهده [٧].

والواقع أن خيرالدين باربروس استطاع أن يحول البحرالمتوسط إلى بحيرة عثمانية و استمرهذا النشاط البحري الملفت، على أيام طورغوت رئيس وبياله باشا وقلج علي باشا الذين نشأوا في مدرسة باربروس[٨]، وفضلاً عن الريس سلمان الذي سعى إلى طرد البرتغاليين من من المياه الإسلامية، وآيدن ريس الذي حارب الإسبان في غرب المتوسط[٩].

وقد نجح السلطان سليمان القانوني في السيطرة على جزيرة رودس/٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م/ وسنة /٩٥٨هـ/١٥٥١م/ تمكن من طرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس الغرب، بالإضافة إلى ذلك الغارات المتكررة التي شنها الأسطول العثماني على السواحل الإسبانية والإيطالية، ويبدو أنه لم تخلُ سنة دون القيام بعمليات بحرية[١٠].

---

١ - حسون، مرجع سابق، ص ٣٩٥.

٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٤١٦.

٣ - بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٦٩.

٤ - أوزتونا، المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٢.

٥ - ياغي، مرجع سابق، ص٩٢.

٦ - التر، مرجع سابق، ج١، ص١٨١.

٧ - فريد بك، مصدر سابق، ص٢٢٢.

٨ - أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص٤١٦.

٩ - أوزتونا، المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٢.

١٠ - عامر، الدولة العثمانية دراسات تاريخية وإجتماعية، ص٥٢.

وبعد سيطرة الدولة العثمانية على المجر[١]، تم إنشاء أسطول للعمل في نهر الطونة وأطلق عليه الأسطول الخفيف، فضلاً عن وجود أسطول آخراً في نهر الفرات، وعدة تراسانات أخرى تتولى صناعة السفن على سواحل البحر الأسود والبحر المتوسط وبحرايجة[٢].

وبحرايجة[٢].

وبعد نجاح الدولة العثمانية بإنشاء هذه الأساطيل، تبين أنها طبق الأصل عن الأساطيل الإيطالية[٣].

ويعود الفضل في بناء هذه الترسانات والأساطيل إلى الثروة المادية الضخمة التي امتلكتها الدولة العثمانية، والمتمثلة بالغابات المطلة على شواطئ البحر الأسود، والتي مدتها بالخشب اللازم لصناعة السفن، أما الأقمشة التي استخدمت لصناعة الأشرعة فكانت تستورد من فرنسا، أما المعادن تم جلبها من مناجم البغدان والأفلاق[٤].

ومن الجدير ذكره أن العاملين في الترسانة مثل القبطان ورئيس العزب(عزب رئيسي) وعامل الدفة (دومنجي) وعامل الشراع (يلكنجي) والنجار (دولكَر) والمدفعي (طوبجي) والحارس(varديان) وغيرهم، كانوا يتقاضون أجوراً مقابل خدماتهم، وتتم ترقية عامل الدفة إلى رتبة رئيس بلوك العزب(عزب بلوكباشي)، وكانت تضم هذه البلوكات عدداً من الضباط مثل الريس أي الربان ورئيس الحراس(varديان باشي) وآمر الغرفة(أوضه باشي) ورئيس الطباخين(آشجي باشي) وغيرهم، وقد بلغ عدد العاملين في الترسانة الواحدة في أواسط القرن السادس عشر حوالي ١٨٠٠عامل[٥].

وفي أغلب الأحيان كان الإشراف على بناء السفن في أيدي البنادقة، حيث وجد اليونانيين، الذين تم استخدامهم وقت الحاجة، أما الملاحون فكانوا من اليونان أو

---

١ – كوليس، مرجع سابق، ص٨٦.

٢ – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٤١٧.

٣ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٢٩.

٤– بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٦٩.

٥ – أوغلو، المرجع السابق، ج١، ص٤١٦–٤١٧.

الإيطاليين[1]، أما بالنسبة للسفن فقد كانت إبان قيام الدولة العثمانية صغيرة ومتواضعة، لدرجة أنها لم تكن تقوى على التصدي لأسطول البندقية الضخم والقوي، ولكن مع مرور الزمن حذت الدولة العثمانية حذو الدول البحرية وسعت إلى تقوية أسطولها، وقد نجحت بالفعل في ذلك من خلال تحويلها للبحر الأسود والمتوسط إلى بحيرتين داخليتين[2].

ومن أكثر السفن الحربية استخداماً زمن السلطان سليمان القانوني هي القادس، واختلفت تسمية السفن الحربية باختلاف عدد المصاطب المعدة لجلوس الجدافين[3].

وأهم هذه السفن هي:

١- كاليتا وفيها٢٠ -٢٤ مقعداً، في كل مجداف من ٣ إلى ٤ جدافين، وعدد الجدافين كان بين ١٢ إلى ١٩٠ جدافاً.

٢- قادرعة وفيها٢٥ مقعداً، في كل مجداف ٤ جدافين، وعدد الجدافين كان ٢٠٠ جداف[4].

٣- باشتاردا وكانت مستخدمة لحمل السلطان أو لقيادة الأسطول[5]، وكان فيها من ٢٦ إلى إلى ٣٦ مقعداً [6].

وفي كل مجداف كان هناك من ٥ إلى ٧ جدافين، وكان عدد الجدافين يتراوح بين ٢٦٠ إلى ٥٠٤ جداف.

أما السفينة الأعرض والأعلى من الباشتاردا فكانت تسمى (ماعونة)[7]، وكانت تستعمل إما لحمل العتاد أوللتجارة، وكان يجلس على كل مصطبة ٣رجال، ولكن في

---

١ - بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٦٩.

٢ - أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٩٨٦م، ص ٦٥٨.

٣ - كلو، مرجع سابق، ص٣٧٠.

٤ - أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣٧.

٥ - كلو، المرجع السابق، ص٣٧٠.

6 – Medhat Sert Oglu , KAUNAK GEÇEN,s34.

٧- أوزتونا، المرجع السابق، ج٢، ص٤٣٧.

عام/٩٦٧هـ/١٥٦٠م/ قامت الدولة العثمانية بتشكيل مجموعات، وكانت كل مجموعة تضم ٣ جدافين وكان ثلاثتهم يحرك مجدافاً واحداً [1].

يمكن أن نجزم أن البحرية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني(أي على امتداد القرن السادس عشر) كانت تفوق مثيلاتها، وبلغت ذروة تقدمها وقوتها زمن خيرالدين بارباروس، واستمرهذا التفوق أيام تلامذته وهم بياله باشا وقلج علي باشا أيضاً.

ويبقى أن نذكر أنه تم وضع العديد من الخرائط البحرية، كما أنه تم تأليف كتب بحرية كثيرة، قام بتأليفها بحارين كبار مثل سيدي علي ريس وبيري ريس[2]، أما عن العوامل التي أدت إلى تفوق البحرية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني فيمكن إجمالها بالتالي:

١- سرعتها وقدرتها على الحركة والدوران، بالإضافة إلى عدم استعمال السفن التي كانت مصنوعة بغرض إظهار العظمة بشكل مبالغ فيه، لأنها لم تكن مناسبة في الحروب.
٢- ظهور البراعة في صناعة المدافع البحرية* التي يسرت للسفن العثمانية أن تضرب سفن الأعداء من على بعد دون أن تصاب هي.
٣- كان النظام عند البحارة العثمانيين دقيقاً يفوق النظام الأوروبي من كل النواحي، إلى أن تعرض هذا النظام إلى التدهور في القرن الثامن عشر[3].

[1] – كلو، مرجع سابق، ص٣٧٠.

[2] – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٤٢١.

* قام كمال رئيس بصنع المدافع بعيدة المدى في الأسطول قبل عام ١٥٠٠م. أوزتونا، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣٨.

[3] – أوزتونا، المرجع السابق، ج٢، ص٤٣٨.

يمكن القول إن روح النظام والانضباط التي كانت سائدة في الأسطول والجيش العثماني، كانت مضرب المثل في كل أصقاع العالم آنذاك، فهي التي ساعدت على تحقيق كثير من الانتصارات المشرفة للدولة العثمانية، وعلى الرغم من الجوانب السلبية التي كانت عند الجنود العثمانيين والمتمثلة باستباحة المدن التي يدخلونها، وغيرها من التصرفات العشوائية التي تعكس الجانب الفوضوي وإن صح القول الهمجي عند الجندي العثماني، كانت لها مبرراتها، فيجب ألاننسى أن معظم هؤلاء الجنود انتزعوا من عائلاتهم وفق نظام (الدفشيرمة) أي ليس لهم أهل ولايحق لهم الزواج، بالإضافة إلى التربية العسكرية الصارمة التي خضعوا لها والتي كانت بعيدة كل البعد عن الجانب الإنساني، مما أدى إلى تحويل الجندي العثماني إلى آله لاتتحرك إلا إذا تم إمدادها بالطاقة اللازمة دون النظر، أو الأخذ بعين الاعتبار للطريقة التي سيحصل فيها على هذه الطاقة.

وبالتالي كانت هذه القيود هي التي جعلت هؤلاء الجنود ينطلقون بنهم إلى ملذات الحياة التي تصادفهم، لا بل يتشبثون بها، ولكن يبقى إن نقول أن العثمانيين لم يكونوا سوى عساكر في دولة حرب.

الفصل الثالث:

حروب السلطان سليمان وتوسعاته:

١-حروبه في أوروبة:

أ-السيطرة على بلغراد.

ب-معركة موهاكس وإخفاق العثمانيين أمام اسوار فيينا.

ج-تجدد الصراع مع النمسا.

د-حصار جزيرة مالطة.

هـ-السيطرة على سيجستوار.

٢-صراعه مع البرتغاليين:

أ-تصدي السلطان سليمان للخطر البرتغالي.

ب-الحملة البحرية الثانية اتجاه الهند.

ج-حملاته على اليمن للتصدي للبرتغاليين.

حروب السلطان سليمان في أوروبة :

لعل من أهم الأهداف التي ارتكزت عليها الدولة العثمانية في عملياتها التوسعية في أوروبه هو دعم قوتها الإقتصادية، وذلك من خلال إحكام السيطرة على الطرق البحرية والبرية للتجارة العالمية بين الشرق والغرب، وهذا ما فرض على الدولة العثمانية التصدي للبرتغاليين وكسر حصارهم البحري للشواطئ العربية وحماية الإمبراطورية العثمانية من الخطر الأوروبي(١) وخطر الدولة الصفوية الصاعدة، التي كانت تسعى بدورها للسيطرة على العالم العربي(٢).

وبالتالي فإن هذه الأهداف خدمت الدولة العثمانية من الناحية الإستراتيجية والمتمثلة بالتوسع في أوروبة وتكوين إمبراطورية عثمانية تسيطر على الشرق والغرب، ولما سيطر السلطان سليم ومن بعده سليمان على المشرق العربي كان لابد من الانتقال من النطاق الإقليمي الى النطاق العالمي في عملية التوسع العثماني(٣) .

وخلال فترة التوسع العثماني بدأت الحروب بين الطرفين (العثماني والأوروبي) فتراها بين مد وجزر أحياناً تتصاعد وتزداد حدة القتال وأحياناً أخرى يسود هدوء نسبي بين الطرفين(٤)، لأن هذه الحروب بشكل ارتبطت إلى حد ما بالوضع الاقتصادي لكلا الطرفين، وإذا اعتبرنا أن المجتمع الأوروبي في القرن السادس عشر كان يشبه نوعاً ما المجتمع العربي (الإسلامي) حيث يلاحظ وجود فترات من الإزدهار النسبي لكلا الثقافتين وبالمقابل كانت هناك أيضاً فترات من الركود الاقتصادي، بالإضافة إلى انشغال كلا الطرفين في بعض الأحيان بالصراعات الدينية والطائفية والصراعات بين الأسر الحاكمة (٥).

١- محمود مصطفى، مرجع سابق، ص١٦٦.

٢ – هريدي، مرجع سابق، ص٦٣.

٣- محمود مصطفى، المرجع السابق، ص١٦٦.

٤ – كلو، مرجع سابق، ص٥٣.

٥- كوليس، مرجع سابق، ص ٨٠.

قد يلاحظ ارتفاع حدة الحروب البحرية في البحرالأبيض المتوسط[1] التي ستؤدي إلى استئناف الزحف العثماني في أوروبة لتصل الى الدانوب، وبهذا سيمتد الهجوم العثماني إلى أوروبة الشرقية وهنغاريا براً وبحراً إلى سواحل وجزر البحرالمتوسط[2] .

وقد اتخذت سياسة السلطان سليمان القانوني الخارجية منذ بداية حكمه، إتجاهاً مغايراً عن الاتجاه الذي سار عليه والده السلطان سليم، ففي الوقت الذي أخضع فيه السلطان سليم كل شيء لقتال الشاه الصفوي، رأى السلطان سليمان أنه من الحكمة توجيه الجيش ضد خصوم آخرين ويقصد بالآخرين الأوروبيين، ولكن دون إهمال الشأن الصفوي، إذ لجأ السلطان سليمان إلى تهدئة الأوضاع لفترة من الزمن لحين تحقيق أهدافه في أوروبة[3].

١-السيطرة على بلغراد:

برزت المجر في أوروبة الشرقية كعدو تقليدي للدولة العثمانية، حيث شكلت سوراً منيعاً ضد دخول القوات العثمانية إلى أوروبة[4].

لذا كان السلطان سليمان القانوني بحاجة إلى ذريعة لإعلان الحرب على المجر والسيطرة عليها، وقد جاءت الفرصة المناسبة، وذلك عندما وصله خبر أن السفير العثماني الذي أرسل إلى لويس الثاني ملك المجر ليبلغه بوصول السلطان سليمان إلى الحكم تم قتله، فضلاً عن ذلك إعلان الملك لويس الثاني بأنه غير ملتزم بأي تعهدات قد أعطيت للعثمانيين سابقاً، خاصة أن خليفة السلطان سليم صغيرالسن ولا يمتلك خبرة الملك، وهذا ما أثار حفيظة السلطان سليمان القانوني فأعلن الحرب عليهم، بعد أن تأكد أن الظروف كانت ملائمة لإعلان الحرب ضد المجر التي كانت تعاني من مشكلات داخلية عميقة، تمثلت بالقتال المستمر بين الجماعات الأرستقراطية، فضلاً عن وجود القلاقل الكثيرة بين

---

١ - أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٣٦.

٢- كوليس، مرجع سابق، ص٨٠.

٣ - مانتران، مرجع سابق،ج١ ، ص٢١٧.

٤ - طقوش، مرجع سابق، ص١٨١.

الفلاحين الفقراء، كل هذه العوامل أسهمت إلى حد ما في فتح الطريق أمام قوات السلطان سليمان القانوني[١].

عندها تحرك السلطان سليمان بجيوشه باتجاه هنغارية في عام/٩٢٨هـ/١٥٢١م/[٢]، ولم يمض على وفاة والده السلطان سليم سوى ثمانية أشهر[٣]، وكان هدفه قلعة بلغراد وهي عبارة عن حصن كبير يقع عند التقاء الدانوب الأوسط وروافده من الأنهار، فضلاً على أنها البوابة المؤدية إلى ما وراء نهرالدانوب ومفتاح أوروبة الوسطى[٤]، وبسقوط هذه القلعة التي تبعد حوالي٢٠كم عن الحدود العثمانية يصبح الطريق إلى فيينا مفتوحاً، خاصة أنها كانت تعد من أقوى القلاع على الحدود العثمانية، التي حاصرها العثمانيين سابقاً ثلاث مرات، وقد أصيب السلطان محمد الفاتح في الحملة الثانية، ومات أيضاً هنيادي جانوس أحد أبرز القادة المدافعين عن هذه القلعة وعلى الرغم من ذلك لم تسقط القلعة، وقد كان هذا بحد ذاته دافعاً قوياً للسلطان سليمان لكي يضع حداً لهذه القلعة وقادتها ولكي يثبت نجاحه بالسيطرة على هذه القلعة التي فشل السلطان محمد الفاتح سابقاً في السيطرة عليها، ولذلك عندما علم ملك المجر بزحف الجيش العثماني الجرارالذي كان مصحوباً ب ٣٠٠٠جمل محمل بالبارود والرصاص وسفينة محملة ب٤٠٠ حصان على نهرالطونة و٥٠ سفينة حربية وغيرها من المعدات الحربية الضخمة[٥] وهذا اثبات بأن العثمانيين لم يكونوا سوى دولة عسكر وأن دولتهم كانت قائمة على الحروب، وعلى الرغم من أن ملك المجر استنجد بالأوروبيين إلا أنه لم يجد أي مساعدة تذكر[٦]، لعدَة أسباب منها : أن البندقية كانت على وشك توقيع معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية، أما البابا فكان مشغولاً بالمشاكل الداخلية التي تعاني منها بلاده[٧] بالإضافة إلى المشكلات

---

١ – كوليس، مرجع سابق، ص٨٤-٨٥.

2-Mehrdad Kia,The Ottoman Empire,London,2008,p.23.

٣ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص ٢٦١.

٤ – طقوش، مرجع سابق، ص١٨١.

٥ – أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص٢٦١-٢٦٢.

٦ – طقوش، المرجع السابق، ص ١٨١.

٧ – كوليس، المرجع السابق، ص ٨٤.

الكبيرة التي كان يعاني منها شارلكان، الذي نصح بدوره ملك المجر بأن يقوم بتوقيع هدنة مع السلطان بهدف تهدئة الأوضاع وكسب الوقت .

ولكن هذه النصيحة جاءت متأخرة لأن القوات العثمانية كانت قد بدأت بتنفيذ الخطة التي وضعها السلطان سليمان لمحاصرة القلعة، فتوجه جيشه نحو الشمال على ثلاثة محاور منطلقة من مدينة أدرنة :

١ – محورشابتس– بلغراد وكان بقيادة أحمد باشا.

٢ – محور صوفيا– بلغراد بقيادة بيري باشا الصدرالأعظم.

٣ – محور ترانسلفانيا– بلغراد بقيادة محمد مغال أوغلو[١].

وبعد ذلك سيلحق السلطان سليمان بهم، ولم تمض فترة قصيرة حتى تمكنت القوات العثمانية من الاستيلاء على عدة حصون وقلاع مثل(بوغرلدن– وزملين)[٢]، ثم قام السلطان سليمان نفسه بفرض حصار على بلغراد دام حوالي شهرين ونصف[٣]، ونتيجة لهذه الإنتصارات، وبعد هجوم متكرر وغارات عنيفة سقطت مدينة بلغراد بيد العثمانيين سنة/٩٢٨هـ/١٥٢١م/ وتحقق النصر للعثمانيين[٤]، فأعلن السلطان سليمان القانوني بدوره عن هذا الانتصار الباهر لجميع ملوك أوروبة والولاة العثمانيين[٥]، وبعد أن تمت السيطرة التامة على بلغراد تم إلحاقها إلحاقها بولاية البوسنة ثم قام السلطان سليمان القانوني بعد ذلك بدخول مدينة بلغراد وبتحويل أهم كنيسة فيها إلى مسجد صلّى فيه[٦]، و قرربعدها العودة إلى بلاده[٧].

أما بالنسبة لغيسلين دي بوسيك سفير فرديناند في استنبول والملاحظ أنه ثاقب النظر من خلال قوله" إن استيلاء الأتراك على بلغراد هو المتسبب في الوضع المأساوي الذي

---

١ – طقوش، مرجع سابق، ص١٨١.

٢ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٦٢.

٣ – سرهنك، مصدر سابق، ص٧٦.

٤ – كوليس، مرجع سابق، ص٨٦.

٥ – فريد بك، مصدر سابق، ص٢٠٢.

٦ – سرهنك، المصدرالسابق، ص٧٦-٧٧.

٧ – حليم، مصدرسابق، ص٨٧.

باتت المجرتتخبط فيه فيما بعد. وهو المتسبب أيضاً في مقتل الملك لويس وفي سقوط بودابست واحتلال ترانسلفانيا وانهيار مملكة مزدهرة وتخوف الأمم المجاورة من أن تلقى نفس المصير..........

يجب أن تكون هذه الأحداث عبرة للأمراء المسيحيين الذين بات عليهم أن يعرفوا، إذا كانوا يرفضون الفناء، كيف يحصنون استحكاماتهم ومعاقلهم لحمايتها من العدو، إن الجيوش العثمانية كسيول قوية طمتها الأمطار، فإذا استطاعت أن تتسرب عبر السدود التي تصدها فإنها ستتدفق من خلال الثغرات وتحدث خراباً لا حدَّ له، كذلك العثمانيون، فإنهم إذا دمروا الحواجز التي تمنعهم، انقضوا وأحدثوا خراباً لا يتصوره العقل" [1].

وبعد سقوط بلغراد التي كانت من أكثر المدن قوة، ومن أكثر الحصون المجرية مناعة، أمام تقدم القوات العثمانية، فقد تحولت بعد سقوطها إلى أكبر مساعد لها للوصول إلى بلاد ما وراء نهر الدانوب، وبالتالي أثبتت الدولة العثمانية لكل دول أوروبة، مدى قوة هذه الدولة الفتية الصاعدة، التي ستترك بصمة واضحة لها على الساحة الدولية.

٢- معركة موهاكس وإخفاق العثمانيين أمام أسوار فيينا ١٥٢٩م:

بعد عودة السلطان سليمان من رودس اتخذ قراراً ستمتد آثاره لسنوات طويلة، حيث أعفى الصدرالأعظم بيري باشا من منصبه وقدم له الشكر على خدماته الجليلة للدولة العثمانية، وعين بدلاً عنه صديقه إبراهيم باشا الذي كان يتمتع بحظوة كبيرة عند السلطان سليمان، والدليل على ذلك أن الفترة التي تولى فيها إبراهيم باشا منصبه كصدرأعظم عدت فترة ذهبية عاشتها الدولة العثمانية [2]، وجاء ذلك بعد قرارالسلطان سليمان غزو بلاد المجر حيث كانت الظروف الدولية مناسبة آنذاك [3]، لأن العلاقات مع البندقية بقيت جيدة منذ السيطرة على رودس [4]، أما الشاه طهماسب الذي تحالف مع شارل الخامس(شارلكان) ضده

---

[1] – دي بوسيك، وثيقة منشورة في كتاب "سليمان القانوني"، كلو، مرجع سابق، ص ٥٧.

[2] – مانتران، مرجع سابق،ج١، ص ٢١٨.

[3] – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٦٩.

[4] – رمضان، مرجع سابق، ص١٦٨.

كان عاجزاً في ذلك الوقت عن الدخول في الحرب معه، أما الإمبراطور شارل الخامس(شارلكان) فقد انشغل آنذاك بعصبة المعارضين في كونياك* مما حال دون تدخله[١].

وبالمقابل كان السلطان سليمان على علم بأن المجر كانت مقسمة ومفككة[٢]، فكان المزارعون يعيشون في بؤس شديد، ويترقبون دخول الأتراك كمنقذين لهم[٣]، وبهذا تهيأت الظروف للقيام بحملة عسكرية ضد المجر وذلك في عام/٩٣٢هـ/١٥٢٦م/ [٤].

لقد كانت حملة بلغراد قبل عدة سنوات على المجر متواضعة من حيث الإعداد والتجهيز لها، إذ كان هدفها آنذاك فتح القلعة التي كانت تعدّ مفتاح أوروبة الوسطى، بينما حملة المجرهذه المرة عدت حرباً شاملة كان الهدف منها القضاء على الملكية الكبرى التي تمثلت باتحاد ملكيتي (المجر وبوهيميا)، الخاضعتين لسيطرة ألمانيا وشارل الخامس (شارلكان)، والتي كانت تعاني من تمزُّق عميق في المجتمع كما ذكر سابقاً مما أدى إلى تدهور الوضع بشكل كبير [٥].

وبالمقابل كانت القوات الهنغارية قد أعدت نفسها لمواجهة القوات العثمانية التي تحركت من استنبول بتعداد وصل عدده نحو ستين ألف جندي[٦]، وعندما وصل الجيش العثماني إلى المجر تمكن بداية من الاستيلاء على قلعة بترفارادين بعد أن قاومت مدة ثلاثة عشر يوماً [٧]، ثم عبر الجيش العثماني نهر الطونة ليصل إلى صحراء موهاكس* التي حولتها الأمطار التي

---

* كونياك ، مدينة تقع في مقاطعة شارنت بالجنوب الغربي الفرنسي وهي مشهورة بخمورها، وأثناء الحروب الدينية التي أحدثتها الثورة الإصلاحية على كنيسة روما كانت كونياك إحدى (المدن الأمان الأربع) التي منح فيها البروتستانت حق العيش وممارسة طقوسهم الجديدة بدون مضايقة. كلو، مرجع سابق، ص٧٨

١ – كلو، مرجع سابق، ص٧٨.

٢ – كوليس، مرجع سابق، ص٨٤.

٣ – طقوش، مرجع سابق، ص١٨٧.

٤– أوزتونا، مرجع سابق، ج١،ص٢٦٩.

٥– كوليس، المرجع السابق، ص٧٦.

٦– حرب، مرجع سابق، ص٩٢.

٧– أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٦٩.

*صحراء موهاكس، تقع على مسافة ١٨٥كم شمال غربي بلغراد و١٧٠ كم جنوب بودابست.أوزتونا ، المرجع السابق،ج١، ص ٢٧٠.

تساقطت بغزارة منذ شهور إلى مستنقعات متناثرة[١]، وهناك تمت المواجهة مع القوات المجرية التي كانت بقيادة الملك لويس الثاني، أما القوات العثمانية فكانت بقيادة السلطان سليمان القانوني والصدر الأعظم إبراهيم باشا وبعد أن دار القتال بين الطرفين[٢]، انتهت هذه المعركة بعد أن استمرت حوالي ساعتين بانتصارعثماني سريع وكبير [٣]، بفضل وجود السلطان سليمان القانوني والفرق الإنكشارية التي شكلت عماد الجيش العثماني آنذاك[٤]، هذه الفرق استطاعت أن تثبت قوتها أمام أقوى الجيوش الأوروبية، وخصوصاً الجيش المجري الذي اشتهر بفرسانه المدرعين[٥]، بالإضافة إلى اهتمام السلطان سليمان باستخدام المدافع الثقيلة التي كان يحرص على وجودها في كل المعارك، وقد كان عددها في هذه المعركة يفوق عدد مدافع الطرف الآخر[٦]، هذه المدافع أدت دوراً مهماً في تحقيق هذا النصر السريع والخاطف على الأعداء[٧]، والواقع أن الانتصارالذي تم إحرازه في موهاكس كان قد زاد من هيبة الصدرالأعظم إبراهيم باشا لدى السلطان سليمان، ويؤكد ذلك المؤرخ كمال شهرزاده* الذي يقول:" إن الظفر بهذا النصر المبين وهو أعظم ما عضد الله به الإسلام وخل به ملة الكفرمن الانتصارات، يعود فيه الفضل إلى الأمير الباسل الوزير الحصيف إبراهيم باشا، الذي كان رمحه كمنقار الصقر شدة، وسيفه المضرج بالدماء كمخلب الأسد ضراوة "[٨].

1- Assemblea di Wikimedia di italia, Guerra ottoman-asburgica, Pistoia, 20,marzo,2010.

2- Impero ottoman, all about turkey – burak sansal, 2010,s 2.

٣- مؤنس، مرجع سابق، ص٢٧.

٤- كوليس، مرجع سابق، ص٧٦.

٥- حرب ، مرجع سابق، ص٩٢.

٦- عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٩٠.

٦- حرب ، المرجع السابق، ص٩٢.

* كمال شهرزادة، وهو الذي شغل حتى عام ١٥٣٤م منصب شيخ الإسلام من جهابذة العلم في عصره، وكان أسلوبه المليء بالمبالغات والصورالجرئية، من أحسن نماذج النثر في عصره، ذاك النثر المتميز بالحيوية والتلوين. كلو، مرجع سابق، ص٨٢.

٨- كلو، المرجع السابق، ص٨٣.

لقد نتج عن هذه المعركة موت الكثير من الجنود المجريين كما هرب الكثير منهم، بالإضافة إلى موت الملك الهنغاري لويس الثاني مع سبعة من أساقفته، وعدد كبير من كبار القادة مما أدى إلى انعدام المقاومة في وجه السلطان سليمان، وهذا ما فتح الباب لتقدم القوات العثمانية إلى مدينة بودا*، حيث حاصروها لعدَّة أيام ثم تمكنوا من السيطرة عليها سنة١٥٢٦[١]، بعد أن طلب قائد حامية مدينة بودا أن يتم تسليم هذه المدينة وقلاعها شرط عدم التعرض لهم خصوصاً من قبل الإنكشارية، وبالفعل وافق السلطان على طلبهم وضمن لهم الحماية، ولكن يبدو أنه فور خروج أفراد الحامية من مدينتهم، هجم الإنكشارية عليهم ودخلوا المدينة[٢] بعد أن استباحوها لأنفسهم وعاثوا فيها فساداً[٣].

وبالتالي تم إخضاع المجر للسيطرة العثمانية وجعلها ولاية عثمانية لمدة ١٤٠عاماً[٤]، وبموت الملك لويس الثاني أصبح عرش المجر خالياً ولذلك قام بعض الأرستقراطيين الباقين في المجر بانتخاب رجل عرف باسم زابوليا، وفي نفس الوقت كان فرديناند(شقيق الإمبراطور شارلكان) في النمسا قد طالب بالعرش المجري، خاصة أنه استند إلى أنه سليل أعظم أسرة أوروبية، وأنه من خلال تسلمه الحكم سيتمكن من استعادة هنغاريا من أيدي العثمانيين[٥]، وبالفعل قامت قوات الهابسبورغ بطرد زابوليا /٩٣٤هـ/١٥٢٧م/، الذي لجأ بدوره إلى السلطان سليمان طالباً المساعدة منه[٦].

لبى السلطان سليمان المساعدة لأنه أراد أن يجعل من زابوليا ألعوبة بيده، يستطيع من خلاله أن يحصل على مورد ضخم من المال متمثل بالجزية التي تدفع للإمبراطورية العثمانية

* بودا، هو القسم القديم من عاصمة المجر الواقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب، وأصبح منذ القرن الرابع عاصمة البلاط الملكي. كلو، مرجع سابق، ص٨٠.

١ – سرهنك ، مصدر سابق، ص ٨٠.

٢ – فريد بك ، مصدر سابق، ص٢١٥.

٣ – كوليس، مرجع سابق، ص ٧٦.

٤ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٩٠.

٥ – كوليس، المرجع السابق، ص٨٧ .

٦ – سعيد أحمد برجاوي ، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م، ص١٠٩.

هذا من جهة[١]، ومن جهة أخرى كان السلطان سليمان يفضل أن يعتلي العرش ملك ضعيف خاضع له، على أن يكون الملك من أسرة هابسبورغ ومدعوماً من قبل كل بلدان الإمبراطورية الرومانية المقدسة برجالها وعتادها[٢].

ونتيجة للصراع الذي نشب بين فرديناند وزابوليا تمكن جيش فرديناند من السيطرة على مدينة بودا سنة/٩٣٧هـ/١٥٣١م/[٣]، وبعد ذلك أرسل فرديناند بعثة دبلوماسية إلى السلطان سليمان القانوني عرض فيها رئيس الوفد مطالبه على السلطان سليمان القانوني وهي إرجاع كل الأراضي التي سيطر عليها العثمانيون بما فيها مدينة بلغراد[٤]، وهذا ما أغضب السلطان سليمان الذي قرر تجهيز جيشٍ جرَّارٍ بهدف إعادة تنصيب زابوليا ملكاً على بودا واحتلال فيينا عاصمة فرديناند[٥].

لقد كان وضع السلطان سليمان قوياً من الناحية الدبلوماسية لأنه كان على علم بأن أوروبة كانت منقسمة أكثر من أي وقت مضى، وكان مطلعاً على الوضع الديني في ألمانيا الذي تمثل بثورة البروتستانت سنة/٩٣٤هـ/١٥٢٩م/ ومدى تأثير هذه النزاعات الدينية على الأوضاع السياسية في أوروبة[٦]، فكانت النتيجة أن تمكنت القوات العثمانية من استرجاع بودا[٧]، بعد أن فرضوا عليها حصاراً مركزاً فلم يتمكن فرديناند من الصمود طويلاً أمام الضغط العثماني، بالإضافة إلى أنه حاول أن يتجنب عاقبة كعاقبة موهاكس، فما كان منه سوى أن هرب إلى مدينة فيينا، أما السلطان سليمان فقد قام بتعيين زابوليا حاكماً على بودا وكان ذلك سنة/٩٣٥هـ/١٥٢٩م/، على أن يدفع جزية سنوية للدولة العثمانية، وأن يوافق على بقاء فرقة من الإنكشارية في قلعة المدينة، ثم تابع السلطان مسيره نحو (فيينا) عاصمة آل هابسبورغ[٨]، هابسبورغ[٨]، وقد اصطحب معه زابوليا، أما فرديناند فقد انسحب من المدينة وأخلى سكانها

١- كوليس، مرجع سابق، ص٨٧.

٢ – كلو، مرجع سابق، ص٨٦.

٣ – اينالجيك، مرجع سابق، ص٥٨.

٤ – طقوش، مرجع سابق، ص١٩٠.

٥ – برجاوي، المرجع السابق، ص١١٠.

٦ – طقوش، المرجع السابق، ص١٩٠.

7- İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN ,s520.

٨– اينالجيك، المرجع السابق، ص ٥٨.

مدينتهم أيضاً وبقيت في مدينة (ويانة)* فيينا القوات العسكرية التي تولت مهمة الدفاع والتصدي ضد العثمانيين[1]، عندها نجح السلطان سليمان بالتوغل إلى قلب القارة الأوروبية ودبَّ الذعر في قلوب الأوروبيين لأنهم أدركوا عندها أن الخطر لا يتعلق هذه المرة ببلاد المجر والدانوب فحسب بل بكل أوروبة، الأمر الذي حتم عليهم تجنيد كل قواهم في سبيل التصدي لهذا السلطان القوي وجيوشه الجرارة [2]، حتى إن فرنسا التي استطاعت بفضل مساعدة الدولة العثمانية أن تتخلص من تسلط آل هابسبورغ دخلت في هذا الحلف الأوروبي ضد الدولة العثمانية، كما وقف البروتستانت ضد العثمانيين أيضاً[3]، هذا وقد كان وضع الملك فرديناند آنذاك يائساً، لأنه طلب عدة مرات النجدة من الإمبراطور شارل الخامس (شارلكان) دون جدوى، ولكنه اتفق مع البابا لكي يمنحه جزءاً من أموال الكنيسة لتمويل نفقات الحرب، فقام بترميم الأسوار وهدم البيوت من حولها وسدَّ كل أبواب المدينة، وقد دام حصار فيينا حوالي تسعة عشر يوماً حاول العثمانيون فيها اقتحام المدينة أربع مرات ولكنهم فشلوا في ذلك[4]، لعدة أسباب منها: قدوم فصل الشتاء القاسي المحمل بالثلوج، بالإضافة إلى أن السلطان لم يكن ينوي احتلال فيينا إنما أراد أن يلقّن الجيش الألماني درساً لما فعلوه في بودا وحاكمها زابوليا، كما أنه لم يجلب معه المدافع الثقيلة التي كانت بنظره كفيلة بالسيطرة على فيينا آنذاك[5]، والمواد الغذائية كانت قد بدأت تنفذ من الجيش العثماني[6]،إضافة إلى كل ما ذكر سابقاً لابد من الإشارة أيضاً إلى أن من أبرزأسباب هزيمة الجيش العثماني في اقتحام فيينا هي أن الجيش العثماني كان مرهقاً من هذه الحملة الطويلة والشاقة إذ إنه لم يكن معتاداً على اجتياز مثل هذه المسافات الطويلة، فضلاً عن نقمتهم من وضعهم المادي، وللدلالة على مدى

---

*ويانة (فيينا) ، عاصمة إمبراطورية النمسا، تقع على نهر الطونة وكانت عاصمة الإمبراطورية الألمانية إلى أن سقطت سنة١٨٠٩م، وحاصرها العثمانيون مرتين الأولى سنة ١٥٢٩م، والثانية ١٦٣٨م، ودخلها نابليون مرتين الأولى سنة ١٨٠٥م والثانية سنة ١٨٠٩م. فريد بك، مصدر سابق، ص٢١٦.

[1] – برجاوي، مرجع سابق، ص١١٠.

[2] – محمود محمد السيد، تاريخ الدولة البيزنطية، اسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٠م، ص٢١٦.

[3] – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٣٧-٣٨.

[4] – هريدي، مرجع سابق، ص٦١.

[5] – سرهنك، مصدر سابق، ص ٨٢.

[6] – حرب، مرجع سابق، ص٩٤.

تعبهم وإرهاقهم، قيام الجنود بطوي خيمهم بعد مضي عدة أيام وأحرقوا كل ما هو زائد ليخففوا عن أنفسهم مشقة طريق العودة[1].

وفي ظل هذه الظروف كانت كل دول أوروبة تترقب بخوف وتوتر نتيجة هذه المعركة التي ستقرر مصير قارة أوروبة[2].

وفي النهاية انسحاب السلطان سليمان عائداً خائباً إلى استنبول بعد فشله في السيطرة على فيينا، والتي عدّت أول هزيمة عرفها السلطان سليمان القانوني[3].

أما بالنسبة لأراضي المجر فقد انقسمت إلى ثلاثة أقسام القسم الأول كان لفرديناند الذي كان يحمل تاج المجر وبوهيميا، والقسم الثاني كان لزابوليا ومركزه بودا، والقسم الثالث أصبح سنجقاً خاضعاً للعثمانيين في سيرم وهو يقع بين نهري الدانوب وساوا [4].

ولكن يبدو أن السلطان سليمان لم يعد إلى بلاده خاليَ الوفاض، فقد بقيت معظم مملكة هنغارية تابعة لزابوليا، وفي الوقت الذي رفض فيه فرديناند التخلي عن ادعائه بالعرش الهنغاري، أرسل بعثة إلى استنبول بهدف التفاهم مع السلطان سليمان، خاصة أن فرديناند أدرك أنه عاجز عن إعادة الوحدة للمملكة وعن التصدي للعثمانيين على الرغم من كل الجهود التي بذلها، ولكن السلطان سليمان رفض أي محاولة للتفاهم أو حتى عقد صلح مع فرديناند لأنه أراد أن يضع حداً للإمبراطور شارل الخامس(شاركان) الذي كان يتعدى دائماً على ممتلكات المسلمين[5].

ويلاحظ من خلال دراسة الوقائع التي جرت، أن رفض السلطان سليمان القانوني التفاهم مع فرديناند لم يكن بسبب رغبة السلطان سليمان القانوني في أن يضع حداً له ولشارل الخامس(شارلكان) نتيجة لمواقفهم المعادية للإسلام، وللمخططات التي يرسمونها ضد دولته و ربما اتخذ السلطان سليمان موقفاً شخصياً في هذه المرحلة التي وصل إليها من القوة والعظمة،

[1] – بيتروسيان، مرجع سابق، ص١٤٩.

[2] – برجاوي، مرجع سابق، ص ١١٠.

[3] – أرسلان ، مصدر سابق، ص ١٥٥.

[4] – أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص٣٨.

[5] – طقوش، مرجع سابق، ص١٩٢.

لأنه بدأ يرى أن هذا العالم لم يعد يتسع إلا لشخص واحد وهو السلطان سليمان القانوني ، لذلك كان يرغب بشدة في القضاء على غريمه الإمبراطور شارل الخامس(شاركان) ، خاصة أن السلطان سليمان لم يتعرض لأي هزيمة منذ تسلمه الحكم وربما عدّ فشله أمام أسوار فيينا اقلال من شأنه كسلطان عظيم سيطرعلى العديد من المدن في أوروبة، لذلك يبدو أنه أراد أن يرضي غروره ويطفىء نار الهزيمة في داخله بمحاولة أخيرة للقضاء على منافسه شارل الخامس(شارلكان) بحجة أن هذا الأخير كان يتعدى على المسلمين.

لذلك جهزالسلطان سليمان جيشه وانطلق مع الصدرالأعظم إبراهيم باشا عام/٩٣٨هـ/١٥٣٢م/ بحملة ضخمة باتجاه فيينا[١]، وفي طريقه استولت القوات العثمانية على عدة قلاع دون أي مقاومة تذكر[٢]، ولكنها توقفت عند قلعة كونز التي كانت تبعد حوالي ٦٠ميلاً عن فيينا، فكان السلطان سليمان يرغب بأن يستدرج شارل الخامس (شارلكان)عند هذه المدينة لخوض حرب حاسمة[٣]، لكن يبدو أن الحظ لم يحالف السلطان سليمان القانوني مرة أخرى، لأنه لم يتمكن من اقتحام هذه المدينة التي أبدت دفاعاً مستميتاً ضد القوات العثمانية[٤].

وفي النهاية وافق السلطان سليمان على إجراء مفاوضات مع حاكم المدينة الذي قبل بتسليم القلعة للسلطان ولكن بشرط عدم دخول الجيوش العثمانية إليها[٥]، وبعد مجموعة من الهجمات الهجمات المتلاحقة بين الطرفين، تم تثبيت الحدود الألمانية العثمانية وفقاً للمعاهدة التي وقعت سنة/٩٣٩هـ/١٥٣٣م/، التي تضمنت اعتراف الحكومة العثمانية بفرديناند ملكاً على بوهيميا وأرشيدوقاً على النمسا، أما إسبانيا فكانت خارج هذه المعاهدة [٦].

أما عن الأسباب التي جعلت كل الأطراف المتنازعة تلجأ للهدوء والسلم نوعاً ما، فهي:

---

١ – حرب، مرجع سابق، ص٩٤.
٢ – أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص ٢٧٥.
٣ – اينالجيك، مرجع سابق، ص ٥٨.
٤ – فريد بك، مصدر سابق، ص ٢١٨.
٥ – طقوش، مرجع سابق، ص١٩٤.
٦ – بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٥٢.

أولاً: رغبة السلطان سليمان القانوني بالقيام بحملة ضد الصفويين بهدف السيطرة على بغداد ولكي يتم تحقيق ذلك كان لابد من تجنب القتال على جبهتين، وهذا ما دفعه إلى توقيع الصلح مع النمسا.

ثانياً: كان السلطان سليمان على علمٍ بالاتصال الدائم بين شارل الخامس(شارلكان) والشاه الصفوي طهماسب، والتنسيق بينهما للقيام بعمليات ضده.

ثالثاً: يعاني كل من شارل الخامس(شارلكان) وفرديناند من مشاكل دينية كبيرة، خاصة أن البروتستانت قد بدؤوا يتقربون من الملك الفرنسي، وهذا ما دفع شارل الخامس(شارلكان) إلى أن يتعهد بعدم التصدي للأمراء البروتستانت الخارجين عليه[١].

٣- تجدد الصراع مع النمسا:

عادت الحروب من جديد في بلاد المجر فتكللت بانهزام جيش أرسله شارلكان ضد العثمانيين سنة/٩٤٤هـ/١٥٣٧م/، و لكن في سنة/٩٤٥هـ/١٥٣٨م/ شق أمير البغدان* عصا الطاعة بناء على تحريض من قبل فرديناند، ولكن تمكنت الدولة العثمانية يومها من وضع حد لهذا التمرد، وعينت أخاه أسطفان حاكماً بدلاً منه، ومنذ ذلك الوقت بدأت الدولة العثمانية تعزز حامياتها في المنطقة[٢]، حيث اتفق في تلك الفترة كل من زابوليا ملك المجر وفرديناند على اقتسام البلاد وطرد القوات العثمانية، وقد رسم هذه الخطة فرديناند للإيقاع بزابوليا الذي كان يعمل لصالح العثمانيين، ولما وافق زابوليا على ذاك الاتفاق أرسل فرديناند نسخة من الاتفاق إلى الباب العالي، للإيقاع بزابوليا وليثبت لهم عدم ولائه[٣]، ولكن زابوليا وافته المنية سنة/٩٤٧هـ/١٥٤٠م/[٤]، قبل أن تعاقبه الدولة العثمانية على خيانته[٥].

١- طقوش، مرجع سابق، ص١٩٥.

* بغدان (مولدافيا) إمارة رومانية مستقلة ذاتياً تابعة لتركية، وتقع في الجهة الشمالية الشرقيةعلى التخوم الروسية . كلو، مرجع سابق،ص ٣٨.

٢- برجاوي، مرجع سابق، ص١٢٠.

٣- طقوش، المرجع السابق، ص٢٠٠-٢٠١.

٤- آق كونذز،أوزتورك ، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

٥ - فريد بك، مصدر سابق، ص٢٣٥.

وبعد وفاة زابولياعام/٩٤٧هـ/١٥٤٠م/ أصرّ فرديناند على مطالبه بكامل المملكة الهنغارية لذا قام بتأييد من الألمان بحصار بودا (بودين) سنة/٩٤٨هـ/١٥٤١م/، وهذا ما جعل السلطان سليمان القانوني يتخذ قرار بضم كل المملكة الهنغارية للدولة العثمانية، فقاد جيشه ضد فرديناند واستطاع إلحاق الهزيمة بقواته، وبعد ذلك منح السلطان سليمان القانوني بمنح يانوش الثاني ابن زابوليا إمارة أردل (ترانسلفانيا)، وكان عمره آنذاك لا يتجاوز السنة[١]، كما أعلن السلطان سليمان أن المجر أصبحت جزءاً من إيالة بودا[٢]، وقد اصطحب السلطان سليمان معه في هذه الحملة كل من ولديه شهرزاده سليم الثاني وشهرزاده بيازيد بالإضافة إلى القاضي عسكر أبو السعود أفندي[٣]، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بفرديناند إلا إنه كان مصراً على التخلص من العثمانيين بشكل نهائي[٤]، وهذا ما دفعه إلى أن يطلب من البابا إعداد حملة عسكرية جديدة ضد الدولة العثمانية وذلك سنة /٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م/[٥].

وبالفعل دارت المعركة بين الطرفين في منطقة قريبة من بودا (بودين) وأسفرت عن هزيمة فرديناند وقواته مرة ثانية، في حين نجحت القوات العثمانية بالاستيلاء على أهم القلاع في بودا، ومنها قلعة فاليو التي تقع على الجانب الأيمن من نهر الدانوب، فقاومت هذه القلعة بشدة المدافع العثمانية الضخمة، ولكنها استسلمت في النهاية [٦]، ثم تابعت القوات العثمانية زحفها اتجاه قلعة استركون* وبعد قصفها بواسطة ٣١٥ مدفعاً استسلمت للعثمانيين أيضاً[٧]، وتأتي أهمية هذه القلعة كونها كانت مركزاً دينياً للمجر، فكان يقيم فيها رئيس أساقفة المجر

---

١ - أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص ٢٨٠.

٢- لطفي باشا، تواريخ آل عثمان،٦ أجزاء ،استانبول، ١٣٤١م، ج٤، ص٢٩٣.

٣- أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص ٢٨٠.

٤ - حرب ، مرجع سابق، ص٩٥.

٥ - سرهنك، مصدر سابق، ص٩٢.

٦ كلو، مرجع سابق، ص١٤٥.

*استركون، تعدّ قلعة مهمة جداً تبعد حوالي ٣٠كم شمال غربي بودا، على الساحل الجنوبي لنهر الطونة. أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص ٢٨٢.

* استولني- بلغراد، تقع على مسافة ٥٠كم من جنوب غرب مدينة يورش . أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص ٢٨٢.

٧ - أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص ٢٨٢.

الكاثوليك، كما تم الإستيلاء على قلعة أخرى تعتبر ذات أهمية كبيرة تدعى استولني- بلغراد*[1] بعد مقاومة دامت حوالي ١٥ يوماً، وتأتي أهمية هذه المدينة، من أنها مركزاً لدفن ملوك المجر، كما أن الملوك الذين يتم تتويجهم في هذه الكاتدرائية يتم دفنهم فيها عند وفاتهم[2]، لذا عدت الدولة العثمانية كلاً من استراكون واستولني- بلغراد مراكزمهمة تابعة لإيالة بودا[3]، وكنتيجة للهزائم المتلاحقة اضطرفرديناند أن يوقع معاهدة صلح سنة/٩٥٢هـ/١٥٤٥م/، تبعتها معاهدة أخرى سنة/٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م/ سميت بمعاهدة استنبول، تخلى بموجبها فرديناند عن مطالبه بالمملكة الهنغارية[4].

وأهم ما جاء في هذه المعاهدة:

١_ الاعتراف بأن قبضة العثمانيين المسيطرة على هنغارية غير قابلة للتحطيم.

٢_ تتعهد كل من البابوية والبندقية وفرنسا بمراعاة بنود هذه المعاهدة التي ستستمر لمدة سبع سنوات.

٣- حرية التجارة بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة ولكن بشرط دفع الرسوم الجمركية، والسماح لرعايا الدولتين بتبادل الزيارات بين الجانبين[5].

٤- يدفع فرديناند جزية عن الجزء الصغير الذي بقي تحت سيطرته[6].

٥_ تبقى بلاد المجرتابعة لابن زابوليا يانوش الثاني تحت رعاية الدولة العثمانية[7].

٦- يتم تسليم الشخص الهارب إلى ألمانيا، إذا كان من رعايا الدولة العثمانية في حال طالبت به الدولة العثمانية.

---

١ - آق كوندز،أوزتورك، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

٢ - أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٨٢.

٣ - آق كوندز، أوزتورك، المرجع السابق، ص ٢٣٩.

٤ - كوليس، مرجع سابق، ص٨٨.

٥ - طقوش، مرجع سابق، ص٢٠٣.

٦ - اينالجيك، مرجع سابق، ص٦٠.

٧ - فريد بك، مصدرسابق، ص٢٣٨.

٧- لا يتم إعادة اللاجئين إلى الدولة العثمانية من الرعايا الألمان، إذا كانوا مسلمين أما إذا كانوا من المسيحيين فستعيدهم الدولة العثمانية، إلا إذا كانوا مجرمين سياسيين عندها لن تسمح لهم بمغادرة البلاد.

٨- يعامل الملك فرديناند بالنسبة للدولة العثمانية على أنه بمقام الصدر الأعظم .

٩- يجب أن يعترف شارل الخامس(شارلكان) بشروط هذه المعاهدة بصفته ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة.

١٠- لا يجوز أن يستخدم شارل الخامس(شارلكان) لقب إمبراطور أثناء المراسلات الدبلوماسية مع الدولة العثمانية، إنما يعتبر فقط على أنه ملك إسبانيا[١].

لقد عدّت هذه الاتفاقية بمثابة اعتراف بقوة الدولة العثمانية وبسيطرتها على مساحات شاسعة من الأراضي في أوروبة، وأن كفة الميزان كانت راجحة لصالح العثمانيين باعتراف الأوروبيين أنفسهم[٢].

وجدير بالذكر أنه رغم إقامة المواقع العسكرية العثمانية في المملكة الهنغارية إلا أنها لم تتحول إلى ولايات عثمانية، وذلك لأن العثمانيين اكتفوا بالحصول على الجزية من خلال مجموعة من الموظفين تمركزوا في قلاع تلك المدن الخاضعة للدولة العثمانية، وهذا أدى بدوره إلى تحول السرقة والنهب إلى نظام حكومي[٣]، أما بالنسبة للأغنياء الهنغاريين فقد سيطروا على مقاطعاتهم واستمروا بالعمل تحت ظل الحكم العثماني[٤]، فضلاً عن سياسة التسامح الديني التي طبقها العثمانيون في تلك البلاد ساعدت إلى حد كبيرفي تقوية المكانة العثمانية[٥].

---

١ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص ٢٨٤.

٢ – طقوش، مرجع سابق، ص٢٠٣.

٣ – كوليس، مرجع سابق، ص٨٨.

٤ – رفيق، مصدر سابق، ج٤، ص٢٤٥.

٥– كوليس، المرجع السابق، ص٨٨.

ولابد من الإشارة إلى أن الدولة العثمانية في أغلب الأحيان كانت تسعى لتحقيق هدفها العسكري ولابدَّ من التأكيد على كلمة عسكري بالتحديد، فنراها تدفع مبالغ طائلة للوصول إلى أقصى بقاع الأرض للسيطرة على تلك الأراضي، والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا؟

هل هو بهدف نشر الدين الإسلامي؟ بالتأكيد: لا، لأن الدولة العثمانية كانت غالباً ما تطبق سياسة التسامح الديني في كل الأراضي التي تسيطر عليها.

هل هو بهدف إنهاء تمرد ما أو إصلاح شؤون البلاد؟ الإجابة هنا غير واضحة لأن الدولة العثمانية قد تنهي تمرداً ما وتقضي على العصاة ولكن دون أن تنظم أو أن تصلح شيئاً، وخير مثال على ذلك أنها وصلت بتوسعاتها إلى المملكة الهنغارية ووضعت حداً لكل المتمردين، ولكن على الصعيد الاجتماعي، فقد ترك المجتمع بكل ما يحمله من مشاكل على حاله دون أي تغييريذكر، وهذا يعني شيئاً واحداً وهو أن الدولة العثمانية وقادتها كانوا يقودون هذه الحملات لسببين أولهما الاستجابة للتحدي السياسي والعسكري الذي يفرض عليهم من قبل الأطراف المتنازعة معها، أما الآخر فهو مادي ومتمثل بفرض الجزية، أي لم تكن هناك أي فائدة إن صح القول من هذه الحروب التي كانت تقودها الدولة العثمانية ، سوى إثبات القوة العسكرية التي تمتلكها والتي لن تستمر طويلاً.

وبالعودة إلى الأوضاع السائدة في أوروبة آنذاك، يبدو أن الدولة العثمانية وآل هابسبورغ قد أصبح لديهم مجموعة من المشاكل التي تشغلهم عن إشعال الحروب بينهم من جديد، ثم إن موت أبناء السلطان مصطفى وبيازيد، والحروب مع الفرس، كل هذا شغل السلطان سليمان عن محاولاته للسيطرة على أراضٍ جديدة في الدانوب، مما جعله يكتفي بتقوية حصونه[1].

أما في أوروبة فقد تنازل شارل الخامس (شارلكان) سنة /٩٦٣هـ/١٥٥٦م/ عن العرش، واعتكف في إحدى الكنائس بعد إبرامه لصلح أوغسبورغ، وفشله بالقضاء على البروتستانت في ألمانيا، كما قسم ممتلكاته بين ابنه فيليب وأخيه فرديناند الذي أصبح الإمبراطور[2].

[1] – كلو، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

[2] – برجاوي، مرجع سابق، ص١٢٢.

ومع مرور الوقت تخلى آل هابسبورغ عن أي أمل في استعادة المملكة الهنغارية، لهذا اقتصرت جهودهم على مجموعة من المحاولات لفصل ترانسلفانيا عن الحكم العثماني[١]، فحاول فرديناند أن يسيطر على هذه المقاطعة سنة /٩٥٨هـ/١٥٥١م/ حيث استخدم من أجل تحقيق أهدافه الراهب مرتنوزي والذي تميز بمكره وطموحه، وكان مستشاراً عند الملكة إيزابيلا ووعده آنذاك بتعيينه والياً على هذا الأقليم[٢].

وبالفعل استطاع مرتينوزي إقناع الملكة إيزابيلا بالتنازل عن إقليم ترانسلفانيا ومدينة تمسفار لفرديناند ولكن فرديناند كان قد تراجع عن وعده بتعيين الراهب مرتينوزي والياً[٣]، وهذا ما دفعه إلى الاتصال بالسلطان سليمان وإعلامه بكل الأمور التي حدثت في المجر(المملكة الهنغارية)، كما أظهر للسلطان سليمان الإخلاص، على أمل أن يقوم بتحقيق مراده عن طريق الدولة العثمانية، عندها قام السلطان سليمان بتسيير الجيوش إلى المجر عام/٩٥٨هـ/١٥٥١م/ لإعادة الأمور إلى نصابها، ولكن الجيوش النمساوية لم تقاوم الجيوش العثمانية فانسحبت تاركة الحصون والقلاع لهم، ولما علم فرديناند بخيانة الراهب مرتينوزي دسَّ عليه من يقتله[٤]، ثم قام بعد ذلك بالتفاوض مع السلطان سليمان بعد موت كل من الملك الفرنسي فرانسواالأول وشارلكان، ليتوصلوا إلى صلح براغ سنة/٩٧٠هـ/١٥٦٣م/ بعد مجموعة من الحروب التي كانت سجالاً بين الطرفين، فاعترف فرديناند بخضوع بلاد المجر ومولدافيا للحكم العثماني وبدفع جزية سنوية على أن يستمر هذا الصلح لمدة ثماني سنوات[٥]، وأن يقوم بإطلاق سراح كل الأتراك الذين كانوا في قبضته دون فدية، أما فيما يخص الحدود فسيتم وضع حل نهائي لهذه المشكلة المستعصية بشكل دائم بين الطرفين، حيث تم تعيين حكام ليقوموا بتنظيم الحدود بين الطرفين[٦].

---

١ – كوليس، مرجع سابق، ص٨٩.

٢ – فريد بك، مصدرسابق، ص٢٤٠-٢٤١.

٣ – طقوش، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

٤ – فريد بك، المصدر السابق، ص٢٤٠-٢٤١.

٥ – طقوش، المرجع السابق، ص ٢٠٥.

6 –İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, s530.

إذاً يمكن التأكيد أن شارل الخامس(شارلكان) فشل أمام الدولة العثمانية سواء كان في أوروبة الوسطى أو حتى البحر المتوسط أو شمال إفريقيا كما سيرد لاحقاً، كما شهدت سنوات حكمه انقسام أوروبة من الناحية الدينية كما هو معلوم إلى طرفين متنازعين وهما الكاثوليك والبروتستانت، والذي أثبت بدوره فشل شارل الخامس (شارلكان) أيضاً أمام مارتن لوثر، بالإضافة إلى فشله في مواجهة أومنازلة السلطان سليمان القانوني وخير الدين باربروس[١].

والواقع أن الضغط العثماني المتكرر على آل هابسبورغ هو الذي ساعد على تقديم الكثير من التنازلات للبروتستانت من قبل آل هابسبورغ، وهذا أدى في النهاية إلى الاعتراف بشكل رسمي بالبروتستانتية، وجدير بالذكر أن السلطان سليمان القانوني كان قد بين للبروتستانت أنه يعتبرهم قريبين من المسلمين، بعد تخليهم عن الأوثان، ومنذ ذلك الوقت صارت حماية البروتستانت حجر الزاوية للسياسة العثمانية في أوروبة، والتي هدفت من خلالها إحداث شرخ في السياسة الأوروبية من خلال إضعاف وتقليص نفوذ آل هابسبورغ[٢].

٤- حصار جزيرة مالطة :

لقد أصبحت جزيرة مالطة التي قدَّمها شارل الخامس(شارلكان)لفرسان القديس يوحنا مقراً لهم[٣]، بعد أن طردوا من جزيرة رودس سنة/٩٢٩هـ/١٥٢٣م/[٤]، إلا أن الدولة العثمانية قررت أن تخرج هؤلاء الفرسان من جزيرة مالطة ، لأن هذه الطائفة كانت تمارس القرصنة على رعايا الدولة العثمانية وتتعدى عليهم، كما أنها قدمت يد العون لكل دولة أوروبية رغبت بالقضاء على الدولة العثمانية وفي مقدمة هذه الدول إسبانيا[٥]، لذا أرادت الدولة العثمانية أن تضع حداً لهذه الجماعة، فأوكل السلطان للقائد أحمدلومصطفى باشا قيادة

١ - أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص ٢٨٦.

٢- اينالجيك، مرجع سابق، ص ٦١.

3 –Impero ottoman, all about turkey – burak sansal, 2010,s 2.

4 –Assemblea diWikimedia di italia,Guerra ottoman-asburgica ,Pistoia, 20,marzo,2010.

٥- طقوش، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

الجيش، أما قائد الأسطول فكان بيالى باشا[1] بالتعاون مع طرغد(طرغوت) باشا الذي قرر إخراج هؤلاء الفرسان الذين سفكوا دماء المسلمين[2].

بالإضافة إلى ذلك أرادت الدولة العثمانية السيطرة على جزيرة مالطة، لأهميتها الجغرافية وموقعها الإستراتيجي، فهي تقع بين إقليم تونس وجنوب إيطاليا وبالتالي فإن احتلالها يعني السيطرة على البحر المتوسط[3].

كان حاكم جزيرة مالطة وهو لافليت آنذاك قد أدرك متيقناً بأن الدولة العثمانية ستقوم يوماً ما بهجوم على هذه الجزيرة لاحتلالها، لذلك استعد هذا الرجل مع جماعته لهذا اليوم، فقاموا بتحصينات تفوق تحصينات جزيرة رودس، وبنوا سدوداً وأنفاقاً لدرجة أنه حول هذه الجزيرة إلى عش صقر داخل الصخور، كما قد طلب من إسبانيا أن يتم نقلهم إلى جزيرة كورسيكا ولكن جاءه الرد بالرفض، عندها أيقن لافليت أنه ليس لديه حل سوى مواجهة القوات العثمانية والتصدي لها[4]، بعد أن ضمن وصول المساعدات والمتمثلة بالمؤن وعدد لابأس به من الجنود المقاتلين من قبل إيطاليا ، فضلاً عن ذلك قيام الملك فيليب الثاني ملك اسبانيا بإرسال الأموال والقمح، ،إضافة إلى أنه جمع حوالي ٤٠٠ رجل من جزيرة كورسيكا وأرسلهم إلى حاكم الجزيرة لافليت [5].

تحرك الأسطول العثماني في عام/٩٧٣هـ/١٥٦٥م/ وقد كان مؤلفاً من حوالي ١٣٠ سفينة[6] وقد استغرق حصار جزيرة مالطة حوالي أربعة أشهر (فبدأ في شهر أيار وانتهى في شهر أيلول)[7]، وقد تولى قيادة هذا الأسطول كما ورد سابقاً كلٌ من القائد مصطفى باشا وبيالى باشا الذي كان قائداً عاماً على الأساطيل، فضلاً عن مشاركة طرغوت باشا الذي عدَّ

[1] – بيتروسيان، مرجع سابق، ص١٦٢.

[2] – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣١٩.

[3] – فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٤٩.

[4] – أوزتونا، المرجع السابق، ج١، ص٣٢٠.

[5] – كلو، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

[6] – أوزتونا، المرجع السابق، ج١، ص ٣٢٠.

[7] – فريد بك، المصدر السابق، ص٢٤٩.

من أشهر القادة العثمانيين آنذاك بقوات من ولاية طرابلس الغرب، وقد كان من أشهر القادة العثمانيين آنذاك(1).

ولما وصل الأسطول العثماني إلى مالطة أمر مصطفى باشا بإنزال ٢٠٠٠٠ رجل في الجهة الجنوبية الشرقية للجزيرة، وكان قراره هذا مخالفاً لرغبة بيالى باشا الذي طلب منه انتظار وصول طرغوت باشا، تمكنت هذه الفرقة من السيطرة على القسم الأكبر من الجزيرة باستثناء حصن سانت آلم الذي عدَّ حصناً منيعاً وقوياً، بالإضافة إلى أنه كونه يحمي حصني(سانت آنج وسان ميشال)(2)، ولكن تأخر وصول طرغوت باشا أسفر عن الوقوع بأخطاء تكتيكية(3)، وعلى الرغم من الضربات الموجعة التي تلقتها هذه الحصون من قبل المدافع العثمانية إلا أنها بقيت صامدة في وجه العثمانيين(4)، ويبدو أنه قتل أعداداً كبيرةً من هؤلاء المدافعين، على يد القوات العثمانية التي كانت بدورها قد استهلكت ثلاثة أسابيع في قصف هذه الحصون، إلا أن حامية الجزيرة تلقت مساعدات جاءت في الوقت المناسب(5)، في تلك الأثناء مات طرغوت الذي أصيب بشظية في رأسه(6)، وهذا ما جعل مصطفى باشا يصرّ على فرض سيطرته على حصن سانت آلم فقام بشن هجوم كبيرٍ على الحصنين سانت آنج وسان ميشال بعد وصوله إمدادات من حاكم تونس، ولكن كل هذا الهجوم كان دون جدوى لأن هذه الحصون لم تستسلم على الرغم من المعارك الدموية التي دارت بين الطرفين، وذهب ضحيتها آلاف القتلى من كلا الطرفين(7)، لينتهي هذا الحصار في عام/٩٧٣هـ/١٥٦٦م/(8).

١- سرهنك، مصدر سابق، ص ١٠٧.

٢- كلو، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

٣- أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص٣٢١.

٤- سرهنك، المصدر السابق، ص ١٠٧.

٥- كلو، المرجع السابق، ص٢٠٦.

٦- أوغلي، مرجع سابق، ص٣٥٩.

٧ - كلو، المرجع السابق، ص٢٠٧.

٨- فريد بك، مصدرسابق، ص٢٤٩.

قدّم العثمانيون خلالها ثمانية آلاف جندي بين جريح وقتيل وأسير، ولم يبق عدد كاف من الجنود للاستمرار في القتال، بالإضافة إلى نفاذ المؤن لديهم، وقرب وصول فصل الشتاء القاسي، هذا ما أسفر بدوره عن فك الحصار وانسحاب القوات العثمانية[1].

وبالتالي فإن وقع الهزيمة كبيراً على السلطان سليمان القانوني، خاصة أنها كانت أول هزيمة بحرية تتعرض لها الدولة العثمانية، ولكن هذه الهزيمة لم تمنع السلطان سليمان من أن يبين أن التهديد العثماني لا يزال قائماً في البحر المتوسط[2].

وبالتالي فإن هزيمة مالطة كان سببها بالدرجة الأولى هو ضعف التنسيق، وهذا ما أكّد عليه الكاتب إبراهيم بك حليم، الذي قال :"من سوء تدبير حركاتهم عادوا بلا ثمرة "[3].

٥- السيطرة على سيجستوار:

إن وفاة فرديناند شقيق شارل الخامس(شارلكان)[4] أعادت الخلافات من جديد، لأنه ابنه ماكسميليان طالب بترانسلفانيا بحجة أنه من واجبه محاربة أعداء المسيحيين، خاصة أنه كان يعلم أن السلطان سليمان مريض وأصبح مسنّاً[5]، وهذا ما يؤكده غيسلين دي بوسيك المبعوث الفرنسي بعد عامين من موت شهرزاده مصطفى أي سنة/٩٦٢هـ/١٥٥٥م/،

فكتب" إن صحة السلطان بالنسبة لسنه جيدة، وربما تعود المظاهر الخارجية غير المطمئنة إلى مرض خفي لا نعرف عنه شيئاً، ولكن هناك إشاعة مفادها أنه قد أصيب بداء المفاصل، وربما كان هذا ما يحاول أن يخفيه عن مبعوثي الدول الأجنبية، لأنه يظن أنها ربما خشيته أكثر إذا ما كانت صحته جيدة "[6].

١- أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٢.
٢ – كلو، مرجع سابق، ص ٢٠٨.
٣ – حليم، مصدر سابق، ص ٩٥.
٤ – كلو، المرجع السابق، ص ٢٨.
٥- كوليس، مرجع سابق، ص ٨٩.
٦- دي بوسيك، وثيقة منشورة في" الجارية روكسلانة تتزوج السلطان سليمان الفاتح". مؤنس، مرجع سابق، ص٥٦.

ليصبح بذلك الصراع على المجر في تلك المرحلة محور التنافس بين كل من الصدر الأعظم محمد صوقللي باشا وماكسيمليان بن فرديناند[1]، الذي كان يظن أنه بفضل المساعدات التي سيتلقاها من ألمانيا والبابا والملك فيليب الثاني قد يتمكن من إلحاق الهزيمة بالدولة العثمانية، لذا قاد ماكسميليان جيوشه وهاجم العثمانيين على طول الحدود، ولكن الرد العثماني جاء سريعاً إذ استطاع مصطفى صوقللي (ابن أخ الصدر الأعظم) من السيطرة على عدة مدن في كرواتيا واسترجع ما أخذ على يد ماكسمليان، ثم قام السلطان سليمان بإرسال قوات إلى ترانسلفانيا، وقرر أن يتجه بنفسه إلى المجر لاستئناف الحرب، فقاد الجيش بنفسه الذي كان مكوناً من ٣٠٠٠٠٠ جندي و وعدد كبير من المدافع [2].

وفي السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان لم يقود أي معركة وهذا معيب عند العرب عامة والعثمانيين خاصة لأنه بنظرهم غازٍ ابن غازٍ[3]، لذا قرر السلطان سليمان أن يقود الجيوش إلى المجر، ربما لأنه فضل أن يموت بين الجنود في ساحة المعركة على أن يموت في قصره، خاصة بعد أن فقد أمام عينيه معظم أفراد عائلته (أولاده مصطفى وجهان كيروبيازيد وزوجته روكسلانه)[4]، بالإضافة إلى ذلك أراد أن يحو هزيمة مالطة التي تعرض تعرض لها الجيش العثماني، بانتصار سريع ضد ماكسمليان وجنوده[5].

فما كان منه إلا أن غادر استنبول عام/٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م/ وقد أصبح شيخاً كبيراً[6]، لم يعد قادراً على ركوب حصانه، وبالرغم من ذلك قطع مسافة طويلة حوالي تسع وأربعين يوماً وهي المسافة بين بلغراد والبوسفور، راكباً عربته وكانت الطرقات مليئة بالحفر، فكان الصدر الأعظم محمد صوقللي باشا الذي سبقه بيوم يأمر بإصلاحها قبل وصول السلطان، خاصة أن السلطان كان يعاني من داء النقرس ويتألم بشدة منه، هذا وكانت قد أخّرت التقلبات

---

[1] – مانتران، مرجع سابق،ج١، ص٢٣٠.

[2] – كلو، مرجع سابق، ص٢١٠.

[3] – أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص٣٥٢

[4] – مؤنس، مرجع سابق، ص٦٠.

[5] – طقوش، مرجع سابق، ص٢٠٦.

[6] – أوزتونا، المرجع السابق، ج١، ص٣٥٣.

الجوية مسير القوات العثمانية لفترة من الزمن، وأخيراً اجتازت القوات العثمانية الدانوب(١)، ووصلوا إلى صحراء زملن مقابل مدينة بلغراد فاستقبله ابن زابوليا أسطفن وأحسن استقباله(٢)، ثم طلب من السلطان سليمان أن يمنحه الأراضي الواقعة بين ترانسلفانيا وتيس* ولبى السلطان طلبه لأنه كان يحبه، ثم توجه السلطان سليمان إلى قلعة سيجيتوار(٣)، بعد أن علم أن أمير سيجستوار الكونت نيقولا زريني قد تغلب على إحدى فرقه العسكرية وقتل بعض آغوات الباب العالي(٤)، وفي طريقه إلى سيجستوار أراد السلطان سليمان أن يتفقد جنوده وصار يتجول بينهم وهو يعطي أوامره، وكأنه كان يريد أن يلقي نظرة أخيرة على جنوده(٥)، ثم ذهب بعدها إلى مخدعه ومن فراشه كان يتابع وقائع المعركة(٦)، وبعد مرور شهر تقريباً سقطت كل الاستحكامات الخارجية وبقي البرج الرئيسي محاصراً بيد القوات العثمانية(٧)، عندها قرر زريني أن يقاتل بنفسه وأن يموت ميتة الأبطال، فهاجم العثمانيين مع ستمائة جندي وكانت النتيجة أن جرح فأسر ثم قطع رأسه، ثم وضع في فوهة إحدى المدافع العثمانية، وبعد فترة قصيرة دمرت المدفعيات العثمانية الثقيلة القلعة، وقتل جميع الجنود الذين كانوا فيها، كل هذه الأمور حصلت دون أن يعلم بها السلطان سليمان القانوني لأنه كان قد مات في فراشه بمخدعه إثر سكته دماغية وذلك في /٩٧٤هـ/١٥٦٦م/، ولم يكن بجانبه سوى طبيبه الخاص والصدر الأعظم محمد صوقللي باشا(٨).

لقد كانت وفاة السلطان سليمان القانوني بسبب داء النقرس وقد أوصى بالحكم من بعده لابنه سليم الثاني، وقد نجح الصدر الأعظم محمد صوقللي باشا بإخفاء خبر وفاة السلطان

1- İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI , KAUNAK GEÇEN, S.418.

٢ – فريد بك، مصدر سابق، ص٢٠٥.

* تيس بلدة تقع بالقرب من الحدود البلغارية. فريد بك، المصدر السابق، ص٢١٧.

٣ – أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص٣٥٢.

٤ – سرهنك، مصدر سابق، ص ١٠٨.

٥– أوزتونا، المرجع السابق، ج١، ص٣٥٣.

٦ – كلو، مرجع سابق، ص٢٢٣

٧ – سرهنك، المصدر السابق، ص١٠٨.

٨– كلو، المرجع السابق، ص٢٢٣.

سليمان القانوني عن الجيش الذي كان منتصراً[1]، لأنه كان يعلم أنه في حال وصول خبر وفاته إلى الجيش قبل إنهاء المهمة لتوقفت العمليات العسكرية، ولعجز القادة على أن يحافظوا على النظام، بالإضافة إلى ذلك إن الإنكشارية ستطالب بالمنحة التي يتقاضونها عند تسلم كل سلطان جديد للحكم[2].

عندها أرسل الصدر الأعظم صوقللي محمد باشا إلى سليم الثاني بن السلطان سليمان، الذي كان حاكماً في كوتاهية طالباً منه الذهاب إلى الأستانة لتسلم الحكم، وتم ذلك بهدوء دون حدوث اضطرابات أو قلاقل[3].

وهنا لابد من التنويه إلى نقطة مهمة، وهي أن بعض المراجع الأوروبية نظرت إلى النصر الذي حققه السلطان سليمان العظيم (أغلب الكتب الأوروبية تذكره باسم العظيم)، في معركته الأخيرة كان نصراً جزئياً وليس كلياً كما تنظر إليه أغلب المراجع العربية والعثمانية، وكان ذلك بسبب طلب الصدر الأعظم الصلح من الإمبراطورماكسمليان وذلك عقب وفاة السلطان سليمان القانوني، وربما كان طلب الصلح لتفادي القلاقل التي من الممكن أن تحدث بين صفوف الإنكشارية في حال انتشار خبر وفاة السلطان سليمان، فضلاً عن إنشغال الصدر الأعظم محمد صوقللي باشا بمن سيتولى كرسي الإمبراطورية العثمانية، أي يمكن القول إن النصركان حليف العثمانيين في بادئ الأمر، لولا وفاة السلطان سليمان وطلب الصلح من قبل الصدر الأعظم، الذي جاء نتيجة الظروف الطارئة التي أدت إلى تغيير مجريات الأحداث آنذاك، إذاً لم تكن هناك نتيجة حاسمة لهذه المعركة .

---

[1] – مؤنس، مرجع سابق، ص٦٠.

[2] – سرهنك، مصدرسابق، ص ١٠٨.

[3] – فريد بك، مصدرسابق، ص٢٥١.

٦-صراعه مع البرتغاليين

أ-تصدي السلطان سليمان للخطر البرتغالي:

بعد أن نجح الرحالة فاسكو دي غاما بالوصول إلى الهند عام/٩٠٣هـ/١٤٩٨م/ أقام البرتغاليون قواعد لهم فيها، ومنذ ذلك الوقت حاول البرتغاليون أن يوطدوا أقدامهم في الشرق[١]، لأنهم أدركوا أن استمرار السيطرة على التجارة الشرقية ومنع العرب من نقل هذه التجارة عبر المشرق العربي ومصر إلى أوروبة، لن يتم إلا بالاستيلاء على منافذ الطريقين العالميين عبر الشرق الأدنى إلى أوروبة[٢]، وقد نجحوا في تحقيق ذلك فاحتلوا قواعد عند مدخل البحر الأحمر والخليج العربي ليسيطروا على المنافذ العربية الجنوبية لتجارة الشرق، ثم احتلت القوات البرتغالية أيضاً جزيرة سوقطرة في خليج عدن ، وسيطروا على مضيق هرمز والواقع عند مدخل الخليج[٣]، وقاموا باحتكار تجارة الشرق وتحويلها إلى طريق رأس الرجاء الصالح[٤]، وهذا ما أدى إلى نكسة اقتصادية بالنسبة للعرب الذين فقدوا مصدراً مهماً من مصادررزقهم، بالإضافة إلى قيام السفن البرتغالية بهجومها الدائم على السفن العربية ومحاولة إغراقها أوإحراقها أو حتى الاستيلاء عليها[٥]، كل هذا سبب خسائر فادحة للسلطنة المملوكية

---

١ - اسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، ط٢، ١٩٩٨م، ص٧١.

٢ - عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية في العصرالحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م، ص٧٢.

٣ - ياغي، المرجع السابق، ص٧١.

٤ - حرب، مرجع سابق، ص١٠٠.

٥ - ياغي، المرجع السابق، ص٧١ .

التي كانت تعاني من الضعف لدرجة أنها لم تعد قادرة على مواجهة التصدي للخطر البرتغالي وأسطوله القوي[1]، وبعد سيطرة الدولة العثمانية على المشرق العربي تولت مهمة التصدي والمواجهة*.

كانت الفترة الأولى من حكم السلطان سليمان القانوني مليئة بالأحداث، إذ كان عليه مواجهة الإمبراطورية الرومانية المقدسة والدويلات الموجودة في البلقان، بالإضافة إلى ذلك الثورات التي تزعمها المماليك في مصر وبلاد الشام، فضلاً عن ذلك مواجهة الفرس الذين سيطروا على العراق [2].

كانت هذه الأسباب هي التي جعلت السلطان سليمان لا يقوم بأي إجراء جدّي ضد الوجود البرتغالي في السواحل الإسلامية الجنوبية، إلى أن تم تولية سليمان الخادم للمرة الثانية حاكماً على مصر/٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م/[3].

فظهرت مجموعة من الأسباب التي دفعت السلطان سليمان القانوني للإسراع في التصدي للخطر البرتغالي، ولعل أبرزهذه الأسباب:

١_ لقد أصبحت القوة البرتغالية الأكثر خطورة بالنسبة لباقي القوى الأوروبية الأخرى، لأنها كانت تتذرع بشكل دائم باسم الدين في حملاتها المتكررة ضد البلدان الإسلامية وخاصة

---

* وكانت البداية مع السلطان سليم الذي كان مدركاً للخطر البرتغالي من جهة الجنوب، حيث كان المخطط العدواني الأوروبي واضحاً أمامه سواء كان في المحيط الهندي أو في البحر المتوسط، فقد كان فرسان القديس يوحنا يهاجمون باستمرار دمياط وبيروت وطرابلس، في الوقت الذي ألقى فيه الأسطول البرتغالي الرعب على السواحل الجنوبية، لذلك فكر السلطان سليم أنه من واجبه أن يقوم بحماية الأراضي الحجازية المقدسة من هجومهم المتكرر على تلك الأراضي، كما أنه أراد أن يعيد التجارة الشرقية إلى مصر، فبدأت الهجمات البحرية العثمانية ضدالأساطيل البرتغالية، والتي جاءت بعد الإنتصارات التي شهدتها الدولة العثمانية في المشرق العربي ،ولكن يبدو أن السلطان سليم لم يقم بخطوات كبيرة ضد البرتغاليين، ربما لأنه خرج من معركتين كبيرتين ضد فارس عام/٩٢٠هـ/١٥١٤م/ وضد المماليك في عامي/٩٢٢-٩٢٣هـ/١٥١٦_١٥١٧م/ وبعد هذه المعارك عاد السلطان سليم إلى مقرحكمه ليموت سنة/٩٢٦هـ/١٥٢٠م/، وكان يستعد آنذاك لقتال فرسان القديس يوحنا. فواز، مرجع سابق، ص١٢٠-١٢٢.

[1] – حويري، مرجع سابق، ص ٢١١.

[2] – نوار، مرجع سابق، ص٧٦.

[3] – فواز، المرجع السابق، ص١٢١.

العربية، لأنها كانت ترفع شعار الصليب والمسيح كذريعة للتوغل والقضاء على العرب والإسلام.

٢_ ازدياد خطر الأساطيل البرتغالية بعد اختراقهم للبحر الأحمر وتهديدهم للأماكن المقدسة في الحجاز ومحاولتهم احتلال جدة متحدِّين بذلك الدولة العثمانية.

٣_ إمكانية تحالف الصفويين مع البرتغاليين وهذا ما أقلق السلطان سليمان القانوني.

٤_ احتمال تحالف البرتغاليين مع الأحباش الذين كانوا يرغبون بالقيام بحرب صليبية في البحر الأحمر(١).

٥_ بعد نجاح العثمانيين في السيطرة على العراق وطرد الصفويين عام/٩٤١هـ/ ١٥٣٤م/ وإعلان حاكم البصرة راشد بن مغامس تبعيته للعثمانيين متخلياً عن البرتغاليين، توسعت دائرة الصراع مع البرتغاليين لتشمل البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي(٢).

٦_ استنجاد مسلمي الهند وحكامها بالدولة العثمانية نتيجة تأزّم الوضع في الهند(٣)، بسبب الخطرين المغولي والبرتغالي اللذين كانا يشكلان تهديداً كبيراً ضدهما، وبالمقابل رأت الدولة العثمانية أنها بالقضاء على البرتغاليين قد تتمكن من استعادة السيطرة على تجارة الشرق الغنية، وتتولى زعامة العالم الإسلامي(٤).

لذلك أصدر السلطان سليمان القانوني أوامره إلى والي مصر سليمان باشا ببناء أسطول يكون قادراً على التصدي للأسطول البرتغالي، وبالفعل تم إنجاز هذا الأسطول سنة/٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م/، وكان مكوناً من ٧٠ سفينة وزودها بالمدافع الضخمة وقد اصطحب معه ٢٠٠٠٠جندي(٥)، وسيكون هذا إيذاناً ببدء الصراع العثماني البرتغالي(٦).

---

١ – نجاح محمد، تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث، دمشق، مطبعة المحبة، ٢٠٠٣م، ص٧٠_٧١.

٢ – نوار، مرجع سابق، ص٧٦.

٣ – آصاف، مصدر سابق، ص٦٤.

٤ – محمد، مرجع سابق، ص٧٠-٧١.

٥ – فريد بك، مصدر سابق، ص٢٣٩.

٦ – وديع أبو زيدون، مرجع سابق، ص٩٥.

وقد أقلع الأسطول العثماني المؤلف من ثمانين سفينة باتجاه عدن، وعند وصوله قام قائد الأسطول سليمان الخادم بالقضاء على حاكمها عامر بن داوود، فصلبه على سارية سفينته ثم قتله[1]، بتهمة مساعدة البرتغاليين وعدم الرضوخ لطاعة السلطان سليمان[2].

وعين بدلاً عنه بهرام بك وهو أحد أمراء الجنود العثمانيين، ثم توجه بعد ذلك إلى سواحل الهند وأرسى سفنه في سواحل كجرات، لأنه كان راغباً بإخراج البرتغاليين من جزيرة ديو*، وفي طريقه إلى جزيرة ديو نجح سليمان باشا بالسيطرة على قلعتي(كولة وكات)، ثم بدأ بمحاصرة جزيرة ديو براً وبحراً ولكنه وجد مقاومة كبيرة من قبل القائد البرتغالي أنطوان الذي دافع عنها باستماتة[3]، عندئذ أدرك سليمان باشا أنه من الصعب اقتحام هذه الجزيرة خاصة أن الذخيرة قاربت على الانتهاء، فما كان منه سوى أن طلب المساعدة من ملك الكجرات* محمود لإمداده بالذخيرة اللازمة، ولكن الملك محمود خاف أن يصيبه ما أصاب أميرعدن، لذلك رفض تقديم المساعدة بل ذهب إلى أبعد من ذلك، عندما تحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين فادعى أنَّه وصلته رسالة مفادها أن هناك أسطولاً برتغالياً مكون من ٣٠٠ سفينة على وشك الوصول إلى جزيرة ديو، وقد عرض هذه الرسالة على باشا عثماني ليقنعه بضرورة الإنسحاب، على مايبدو أن محمود شاه لم يكن يعنيه أن يسيطر البرتغاليون على المحيط الهندي، إنما كان راغباً فقط بالحفاظ على مصالحه، وهي ضمان السيطرة والتحكم بشؤون بلاده الداخلية[4]، فما كان من سليمان باشا سوى أن أصدر أوامره برفع الحصار والإنسحاب والعودة إلى السويس[5].

---

[1] - سرهنك، مصدر سابق، ص٩٨.

[2] - أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣٢٧.

* جزيرة ديو، تبعد جزيرة ديو عن شمال جزيرة بومباي بمسافة ٢٥٠كم. أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص٣٢٧.

[3] - سرهنك ، المصدرالسابق، ص٩٨.

* الكجرات ، وهي المنطقة الكائنة على شاطئ بحر الهند شمال مدينة بمبي وعاصمتها أحمد آباد. فريد بك ، مصدر سابق، ص ٢٣٩.

[4] - أوزتونا، المرجع السابق، ج١، ص ٣٢٩.

[5] - سرهنك، المصدر السابق، ص ٩٨.

يتبين لنا بعد قراءة الأحداث أن فشل الدولة العثمانية في تلك المرحلة كان سببها الرئيس هو القائد سليمان باشا الذي كان عنيفاً بما فيه الكفاية لدرجة أنه خسر أي تحالف كان من الممكن أن يكون سنداً، كما أن أغلب الكتب التاريخية لامت إلى حد كبير سليمان باشا لأنه فشل بالسيطرة على إحدى أغنى المناطق في العالم آنذاك، والتي كانت ستشكل قوة اقتصادية ضخمة داعمة للدولة العثمانية.

وبالمقابل لابد من القول أيضاً إن السلطان سليمان القانوني لم يفكر يوماً بالسيطرة على هذه المناطق(جنوب شرقي آسيا) بشكل جدي، ربما لأنه لم يكن مدركاً مدى أهميتها وغناها بالثروات، التي كانت من الممكن أن تجعله يتوقف عن حروبه التنافسية مع أوروبة، التي كان هدفها في أغلب الأحيان شخصياً أي كانت تخص السلطان سليمان القانوني وتحقيق أمجاده في أوروبة، والواقع إن القوات العثمانية ما كانت لتتجه إلى ما وراء البحرالأحمر إلا لرفع الظلم عن السكان، بمعنى آخر إن السلطان سليمان قدَم المساعدة من منطلق أن الدولة العثمانية هي حامية المسلمين ليس إلا.

من ناحية أخرى يلاحظ أن السلطان سليمان لم ير في القوات البرتغالية خطراً حقيقياً آنذاك ربما لأنه ظنَ أن الأساطيل البرتغالية هدفها تجاري بالدرجة الأولى في تحركاتها وتوسعاتها، أي السيطرة على التوابل وغيرها من الثروات وبيعها لأوروبة، دون التفكير بخطورة هذه الخلية الاقتصادية الناشئة التي كان لتحركاتها أبعاد سياسية ودينية وفكرية في المنطقة .

وبعد انسحاب القائد سليمان باشا حاول أن يعوض خسارته في الهند، فتوجه نحو عدن وهناك قدم أمير بلاد الشحر ولاءه للدولة العثمانية ثم اتجه بعد ذلك نحو السهل الساحلي المطلّ على البحرالأحمر فسيطرعلى زبيد ومخا[١]، بهدف تحويلها إلى قواعد عثمانية تقوم بالتصدي للهجمات البرتغالية مستقبلاً [٢]، وعلى الرغم من فشل حملة سليمان باشا إلى الهند إلا أن

---

[١]- كلو، مرجع سابق، ص٢٢٦.

[٢]- برجاوي، مرجع سابق، ص١٢٣.

وجود العثمانيين سواءً أكان في المحيط الهندي أم في البحر المتوسط والأحمر، يسبب الإزعاج للبرتغاليين إلى حد كبير، ويحدُّ من توسعاتهم في المنطقة نوعاً ما[1].

ب- الحملة البحرية الثانية اتجاه الهند:

لما سيطر سليمان باشا على مدينة عدن ارتكب خطأً كبيراً بقتله حاكمها ظلماً، مما أدى إلى ثورة عارمة قام بها الأهالي وأقارب الأمير المقتول، على الحاكم المعين من قبل الدولة العثمانية، ولم يقفوا عند هذا الحد بل تعاونوا مع ألد أعداء الدولة العثمانية وهم البرتغاليون الذين قدموا المساعدة لسكان المدينة بتسليمهم المدينة بعد أن انتزعوها من أيدي العثمانيين[2]، ولما علمت الدولة العثمانية بهذه التطورات قامت بإرسال أسطول مكوَّن من ثلاثين سفينة[3] بقيادة الريس بيري وذلك سنة /٩٥٨هـ/١٥٥١م/[4]، وقد نجح الريس بيري في استعادة مدينة عدن والسيطرة على مدينة مسقط بعد أن احتجز الحامية البرتغالية التي قاومت العثمانيين مدة ١٨يوماً[5]، كما نجح أيضاً بالإستيلاء على جزيرة هرمز ودراخت الواقعتين عند مدخل جزيرة فارس فحولهما إلى قواعد عثمانية لكي يلجأ إليها الأسطول العثماني وقت الحاجة، ثم توجه بعد ذلك إلى بصرة بهدف الإستيلاء عليها[6]، ولكن بلغه هناك أن الأسطول البرتغالي قادم للتصدي له[7]، وكان الريس بيري يعلم أن اسطوله ينقصه بعض الآلات والأدوات التي لن تمكنه من الصمود في وجه الأسطول البرتغالي، وهذا ما دفعه إلى الانسحاب والعودة إلى مصر[8].

١- أوغلو، مرجع سابق،ج١، ص٤٣.

٢- سرهنك، مصدر سابق، ص٩٩.

٣- محمد حسن العيدروس، السياسة العثمانية اتجاه الخليج العربي، أبو ظبي، دار المتنبي للطباعة والنشر، ط١،ص١١.

٤- فواز، مرجع سابق، ص١٢٣.

٥- أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣٣٣.

٦- سرهنك، المصدر السابق، ص ١٠٠.

٧- العيدروس، المرجع السابق، ص١١.

٨- فواز، المرجع السابق، ص١٢٣

عندها عين السلطان سليمان القانوني مراد بك قائداً للأسطول المصري[1]، الذي توجه نحو البصرة وعند وصوله إلى مضيق هرمز جرت معركة مع البرتغاليين، وانتهت بانتصار الأسطول البرتغالي، حيث قتل الكثير من القادة العثمانيين مما جعل مراد بك ينسحب إلى مدينة البصرة[2]، ولقدعدت هذه المعركة التي جرت في مضيق هرمز من أكثر المعارك دموية قامت بين العثمانيين والبرتغاليين[3]، عندها تم تعيين الفلكي الشهير والبحار ريس سيد علي* قائداً للأسطول المصري وذلك سنة/٩٦١هـ/١٥٥٤م/.

قام ريس سيدعلي بإعداد أسطوله البحري وعين فيه العديد من القادة والبحارة البارزين، وأقلع بأسطوله حتى وصلوا إلى مضيق هرمز، وهناك تمت المواجهة مع الأسطول البرتغالي[4]، ولكن دون الوصول إلى نتيجة حاسمة لهذه المعركة على الرغم من أن الأسطول الأسطول العثماني أغرق الكثيرمن السفن البرتغالية، كما غرقت الكثيرمن السفن العثمانية، ولكن بعد هذه المعركة ساءت حال الريس سيد علي بعد أن تعرضت كثير من سفنه للتلف فاضطروا إلى إلقاء الكثير من المعدات الثقيلة لإنقاذ السفن من الغرق[5]، كما ذعر الكثير من قادته من عواصف البحرالهندي وهذا ما جعله يرسو بسفنه على سواحل كجرات في المحيط الهندي، ثم سلم هذه السفن إلى ملك الكجرات أحمد، وبعدها رجع ريس سيدعلي مع من بقي من البحارة والقادة إلى استنبول، بعد أن صادفوا الكثير من المشكلات والأهوال في طريقهم[6].

---

[1] – أوزتونا، مرجع سابق، ج١،ص٣٣٤.

[2] – سرهنك، مصدر سابق، ص١٠٠.

[3] – أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص ٣٣٤.

* سيد علي رئيس لقد كان سيد علي رئيس على اطلاع تام على بحار الهند وخواصها وله في ذلك مؤلف سماه "المحيط" وصف فيه بحار الهند وصفاً دقيقاً وقد تمرن على الغزوات البحرية مع خير الدين باشا الشهير. سرهنك، المصدر السابق، ص١٠٠.

[4] – سرهنك، المصدر السابق، ص١٠٠.

[5] – أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص٣٣٥.

[6] – سرهنك، المصدر السابق، ص١٠٠.

لقد كانت حملة سيد علي ريس آخر حملة يقوم بها العثمانيون ضد البرتغاليين، وسيجد الأسطول العثماني فيما بعد صعوبة في الدخول إلى الخليج العربي، ولكن سيبقى البحرالأحمر مفتوحاً أمام الأساطيل العثمانية لفترة طويلة من الزمن[١].

ولكي تحافظ الدولة العثمانية على سيطرتها للبحرالأحمر منعت أي تسلل برتغالي أو أوروبي لهذا البحرمن شأنه أن يهدد الدولة العثمانية بشكل عام، والأماكن المقدسة في الحجاز بشكل خاص، وبهذا نجحت الدولة العثمانية في التصدي نوعاً ما للقوات البرتغالية في البحر الأحمر[٢]، وهذا ما أدى إلى توجيه ضربة قاسية إلى البرتغاليين الذين كانوا يحققون أرباحاً طائلة من تجارة التوابل التي كانوا يحملونها إلى أوروبة، وقد ساعدت سيطرت الدولة العثمانية على مراكز مهمة في البحرالأحمر وخليج البصرة على انتعاش تجارة البحر المتوسط، فعاد النشاط الاقتصادي في موانئ سوريا ومصر والإسكندرية[٣].

إذاً كان للغزو العثماني لأوروبة الذي بدأ في القرن الرابع عشر وانتهى في القرن السادس عشرآخر غزو تشهده أوروبة، إذ استطاع من خلاله العثمانيون أن يعوضوا المسلمين عن خسارتهم في الأندلس، وسقوط غرناطة على يد الإسبان سنة/٨٩٧هـ/١٤٩٢م/.

وفي الواقع إن المقاومة الأوروبية انهارت تحت مطارق العثمانيين الذين حققوا العديد من الإنتصارات، لدرجة أن الغزو العسكري قد أصبح هدفهم الرئيسي وشغلهم الشاغل، وبالفعل تمكن العثمانيون من احتلال العديد من الأراضي التي خضعت لسيطرتهم فترة لابأس بها من الزمن، ولكن الكاتب الفرنسي غوستاف لوبون كان له رأي آخر، وقد عبر عنه في كتابه (حضارة العرب) فقال:

" إن الأتراك العثمانيين قد اكتسبوا أسباب العظمة في ساحات الحرب، وقد ارتعدت فرائص أقوى ملوك أوروبة أحقاباً طويلة فزعاً من سلاطين الدولة العثمانية، الذين قاموا مقام

١- كلو، مرجع سابق، ص٢٢٧.

٢- محمد، مرجع سابق، ص٧٣.

٣- أوغلو، مرجع سابق،ج١، ص٤٣.

القياصرة، وأحلوا الهلال محل الصليب البيزنطي فوق كتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية، ولكنهم- مع هذا النجاح الذي حققوه - أثبتوا عجزهم عن إبداع حضارة " [1].

ج- حملاته على اليمن للتصدي للبرتغاليين:

بعد سقوط دولة المماليك كان طبيعياً أن تتحول ملكية الحجاز ومصر إلى الدولة العثمانية، التي وجدت نفسها في مواجهة القوى البرتغالية الصاعدة التي ظهرت آنذاك على أنها دولة بحرية كبرى نجحت في السيطرة على المحيط الهندي[2]، وبدأت تتحكم بالتجارة بين الشرق والغرب، كل هذا أثرعلى الدولة العثمانية لأنها المسيطرة على تجارة الشرق، وعلى فعالية الموانئ العثمانية كمراكز تجارية مهمة في الخليج العربي، من أجل ذلك وضعت الدولة العثمانية نصب عينيها هدفاً محدداً وهو القضاء على النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي[3]، ولتحقيق هذا الهدف كان لابد من إحكام السيطرة على اليمن*، الذي كان يتمتع بموقع إستراتيجي مهم، هذا الموقع الذي كان بنظر الدولة العثمانية فضلاً عن كونه منطقة دفاعية هامة عند الحدود الجنوبية للدولة العثمانية[4]، بمعنى آخر كان بمثابة مدخل للعالم العربي والإسلامي من جهة الجنوب[5]، والذي تعرض بدوره للخطر البرتغالي الذي فرض حصاره عليه.

ولعل من أبرز الأسباب التي أدت إلى تقدم القوى البرتغالية نحو اليمن هو التفكك الذي كان يعيشه المجتمع اليمني[6]، إذ تميزت الفترة الواقعة بين٩٢٤-٩٤٢هـ ،١٥١٨-١٥٣٨م

١- ياغي، مرجع سابق، ص١٥-١٨.

٢ - برجاوي، مرجع سابق، ص١٢٣.

٣ - طقوش، مرجع سابق، ص٢٢٥.

* اليمن، يمتد من جنوب الحجاز ونجد شمالاً إلى خليج عدن جنوباً، ومن حدود عمان والربع الخالي شرقاً إلى البحر الحمر ومضيق باب المندب في الغرب. فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨م، المكتبة العربية، ١٩٨٦،ص٢٠.

٤ - أباظة، المرجع السابق، ص٢٠-٢١.

٥ - طقوش، المرجع السابق، ص٢٢٥.

٦ - فواز، مرجع سابق، ص٩٧.

بفوضى كبيرة، نتيجة لوجود القوى المحلية المتصارعة على النفوذ[١]، وعلى رأس هذه القوى الإمارة الطاهرية وعاصمتها عدن، والإمارة الزيدية وتقع في الجهة الشمالية من المناطق الجبلية، وفي نجران أقصى الشمال كانت الإمارة الإسماعيلية، وبالقرب من صنعاء في حضرموت كانت هناك سلطنتي آل كثير، بالإضافة إلى العديد من المناطق الأخرى التي سيطر عليها حكام محليون مثل أمراء القبائل وأصحاب الزعامات الروحية الذين استقلوا بشكل كامل مثل أشراف جيزان الذين كانوا أكثر نفوذاً ولاسيما زعيم أسرة العامود الذي اتخذ من مدينة البيضاء مركزاً له[٢].

يبدوأن هذه الفوضى التي كانت تعيشها اليمن أثارت الريبة والقلق عند الدولة العثمانية[٣]، لأنها أدركت مدى خطورة القوى البرتغالية ليس على اليمن فحسب بل على العالم الإسلامي بأسره[٤]، لذلك وضعت الدولة العثمانية خطتها الرامية إلى لإخضاع اليمن، وذلك لعدة أسباب منها:

أولاً: جعل كل من اليمن وعدن قواعد عثمانية لضرب القوى البرتغالية في المحيط الهندي.

ثانياً: رغبتها في التحكم بالبحر الأحمر.

ثالثاً: سعيها لتطويق الصفويين من جهة الجنوب.

رابعاً: ضمان سلامة الأماكن المقدسة في الحجاز.

خامساً: تحقيق طموحهم بمد نفوذهم إلى أقاصي العالم الإسلامي شرقاً[٥].

سادساً: أرادوا أن ينتزعوا المركز الذي كان يشغله المماليك في اليمن منذعام/ ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م/.

---

١ – عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م، دمشق، ط١، ١٩٧٤م، ص٧١.

٢ – محمد، مرجع سابق، ص ٨٨.

٣ – نوار، مرجع سابق، ص٦٢.

٤ – فواز، مرجع سابق، ص٩٧.

٥ – أباظة، مرجع سابق، ص٢٠-٢١.

وفي الواقع تمكن العثمانيون من تحقيق أهدافهم ولكن على مراحل، وكانت المرحلة الأولى إبان السيطرة على مصر سنة/٩٢٣هـ/١٥١٧م/ حين أرسل السلطان سليم لقادة المماليك أوامره بإعلان خضوعهم للدولة العثمانية، إلا أن بعضاً من هؤلاء القادة المماليك كانوا قد رفضوا الانصياع لأوامر السلطان العثماني، وتمسكوا باستقلالهم، وأعلنوا عصيانهم على الدولة العثمانية[١]، عندها لجأت الدولة العثمانية إلى طريقة أخرى على أمل أن تتمكن من إحكام السيطرة على اليمن، فأرسلت ولاة عثمانيين ليتولوا الحكم في اليمن ولكنها لم تدعم هؤلاء الولاة بأي قوة حربية، مما شجع المماليك على ملاحقة هؤلاء الولاة وطردهم من البلاد، فما كان أمام الدولة العثمانية سوى أن قامت بتعيين ولاة من المماليك أنفسهم لكي تضمن تبعية اليمن لها، غيرأن هؤلاء الولاة سرعان ما أعلنوا استقلالهم وانفصالهم عن الدولة العثمانية[٢].

كل هذه الحلول لم تجدِ نفعاً مع الدولة العثمانية، التي رأت أنه لا مناص من استخدام القوة العسكرية لضم اليمن إلى سيادتها، وكانت الخطوة الأولى للتنفيذ هي منع دخول المراكب[٣] البرتغالية والأوروبية إلى البحرالأحمر، بحجة أنها تطل على الأماكن المقدسة في الحجاز[٤]، في تلك الأثناء تمكن إبراهيم باشا من تجديد المرسى المملوكي في السويس، كما أنشأ قاعدة بحرية أخرى في البحرالأحمر، وعندما حلَّ عام/٩٢٦هـ/١٥٣٠م/ كان الأسطول العثماني على أهبة الاستعداد بعد أن استعاد نشاطه وقوته إبان السيطرة على العراق[٥].

وفي عام /٩٤٥هـ/١٥٣٨م/ تم إرسال أول حملة بحرية مؤلفة من ثمانين سفينة بقيادة سليمان باشا الخادم[٦] والي مصرمن أجل السيطرة على تجارة الشرق ولمقاومة البرتغاليين وكان قد أمره السلطان سليمان القانوني بأن يعرّج على اليمن ليصلح ما فسد من حالها[٧]،

١- أباظة ، مرجع سابق، ص٢١.
٢ – محمد، مرجع سابق،ص٩٠.
٣– برجاوي، مرجع سابق، ص١٢٣.
٤ – ياغي، مرجع سابق، ص٢٣٥.
٥ – برجاوي، المرجع السابق، ص ١٢٣.
٦ – العيدروس، مرجع سابق، ص١٠.
٧ – رافق، العرب والعثمانيون، ص٧٢.

ويبدو أن سليمان باشا استطاع بالحيلة والغدر أن يسيطر على عدن بعد أن قتل حاكمها(١)، وعين بدلاً عنه حاكماً يدعى بهرام(٢)، ولكن غدره هذا عاد عليه وعلى العثمانيين بالسوء، مما أدى إلى انعدام ثقة حكام الشرق بشكل عام بالعثمانيين، وكان قد تابع سليمان باشا سيره حتى وصل إلى زبيد ونجح بالسيطرة عليها، فلم يعد هناك وجود للمماليك(٣)، وبعد أن تمكن سنة /٩٤٥هـ/١٥٣٩م/ من توطيد الحكم العثماني في اليمن، قام بتنصيب عدد من الحكام على بعض المدن الرئيسة وقد عدّ ذلك بداية الحكم العثماني لليمن، وكان قائماً على ولاء الأمراء المحليين، وفي عام/٩٤٧هـ/١٥٤١م/أطلق العثمانيون لقب باشا على حاكم اليمن(٤).

أما في تعز فقد وجد سليمان باشا مقاومة قوية من قبل الزيديين بقيادة الأمير شرف الدين، الذي كان مسيطراً على مساحات واسعة من اليمن، إلى أن جاء عام/٩٥٣هـ/١٥٤٧م/ فنجح أويس باشا* بالسيطرة على تعز ووطد النفوذ العثماني(٥) في تلك المنطقة الممتدة بين سمارة وزبيد، ولكن وجوده لم يستمر طويلاً، لأنه وقع ضحية غدر جنوده الذين قاموا بقتله فخلفه بالحكم ازدمرباشا الذي قاتل بدوره الزيديين(٦)، ونجح بالاستيلاءعلى صنعاء بعد مقاومة استمرت مدة ستة أيام(٧) وذلك سنة/٩٥٤هـ/١٥٤٨م/(٨)، والذي سيكتب له في أن يكون أول أول حاكم عثماني للحبشة(٩)، ثم جاء بعده مصطفى باشا الذي عرف بالنَشّار وقد استمر بالحكم

---

١ – نوار، مرجع سابق، ص٦٠.

٢ – رافق، العرب والعثمانيون، ص٧٢.

٣– فواز، مرجع سابق، ص ٩٨.

٤ – رافق، العرب والعثمانيون، ص٧٢.

* اويس هو ابن السلطان سليم من جارية له وضعه بين الإنكشارية ليتربى وكانت زوجته حفصة تعلم بذلك، فحينما تولى ابنها سليمان العرش طلبت منه ابعاده فأبعده إلى اليمن وحينما سمع بقتله في اليمن صاح ويحاه لقد قتلت اويس أخي ابن أبي.

iSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI , KAUNAK GEÇEN , s235.

٥ – محمد، مرجع سابق، ص٩٧.

٦ - عبد الكريم رافق، المشرق في العهد العثماني، دمشق،مطبعة المدينة، ط٧، ١٩٩٩م، ص٥٥.

٧ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص ٣٣٢.

٨ – رافق، المشرق في العهد العثماني، ص٥٥.

٩ – كلو، مرجع سابق، ص٢٢٦.

بالحكم حتى عام /٩٦٣هـ/١٥٥٦م/، وتوالى إرسال الولاة العثمانيين على اليمن في السنوات التالية[١].

ولكن يبدو أن المقاومة الزيدية للدولة العثمانية لم تتوقف، مما دفع الدولة العثمانية التي كانت ترغب بتهدئة الأوضاع في المنطقة إلى عقد صلح مؤقت بين الطرفين، وتم ذلك سنة/٩٥٨هـ/١٥٥١م/[٢]، ويبدو أن العثمانيين كانوا قد فشلوا في تحويل هذا الصلح إلى صلح صلح دائم، فعاد القتال في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تواجه حروباً مرهقة على الجبهة العراقية، وأزمات في شمال إفريقيه والأناضول وفي الشام[٣].

وبذلك نجحت الدولة العثمانية بالسيطرة على اليمن[٤]، التي ستبقى خاضعة لها بصعوبة حتى عام/١٠٤٥هـ/١٦٣٥م/ وفيه سينفصل القسم الشمالي منه عن الدولة العثمانية[٥].

إذاً كانت أبرز الأسباب التي دفعت الدولة العثمانية إلى السيطرة على اليمن هو خشيتها أن تخضع للقوات البرتغالية، فتحولها إلى قاعدة تابعة لها، وبالتالي تعيق تقدمها نحو الشرق[٦]

الشرق[٦]

لتحقيق هدفها الرئيسي بإنشاء إمبراطورية مترامية الأطراف من جهة أخرى.

وبالمقابل لابد من الإشارة إلى أنه لم يكن لدى الدولة العثمانية خطة واضحة أو منظمة تستطيع من خلالها أن تسخِّرهذه القوى المحلية ضد القوى الأوروبية، في وقت كانت هذه القوى المحلية غير مدركة لقيمة التضحية بمصالحها الخاصة في سبيل مواجهة هذه الأخطار الخارجية، وبهذا نرى أن اليمن كان ولايزال ضحية تصارع القوى المحلية حتى يومنا هذا.

---

[١] – راقق ، العرب والعثمانيون ، ص٧٣.

[٢] – فواز، مرجع سابق، ص ٩٨.

[٣] – نوار ، مرجع سابق، ص٦٠.

[٤] – أرسلان ، مصدر سابق، ص١٦٠.

[٥] – كلو، مرجع سابق، ص٢٢٦.

[٦] – فريد بك، مصدر سابق، ص٢٣٩.

الفصل الرابع

١- توسع الإمبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني:

أ-إعادة السيطرة على بلاد الشام

التصدي لعصيان جان بردي الغزالي.

ب-السيطرة على مصر

التصدي لعصيان إينال سيفي وجانم سيفي.

ج- سيطرته على رودس وطرد الفرسان منها.

د-حملاته على إيران.

١-الحملة الصفوية الأولى

السيطرة على العراق/٩٤١هـ/١٥٣٤م/.

٢-الحملة الصفوية الثانية/٩٥٥هـ/١٥٤٨م/.

٣-الحملة الصفوية الثالثة/٩٦٠هـ/١٥٥٣م/.

٢-توسعات السلطان سليمان القانوني في الشمال الإفريقي:

أ-تصديه لحملة شارلكان على الجزائر سنة/٩٥٠هـ/١٥٤٣م/.

ب- تصدي السلطان سليمان القانوني لحملة شارلكان على تونس/٩٤١هـ/١٥٣٤م/.

أعلن عصيانه على الدولة العثمانية وسلطانها الجديد وكان ذلك في/٩٢٧هـ/١٥٢١م/[١]، لأنه ظن أنه بموت السلطان سليم قد يحقق أهدافه بالإستقلال عن الدولة العثمانية[٢].

والواقع أنه من أبرز عوامل انتصار العثمانيين على المماليك خيانةُ المماليك أنفسهم لصالح العثمانيين، وقد كان جان بردي الغزالي واحد منهم، فهو الذي فتح الطريق للجيش العثماني أثناء معركتهم مع المماليك مما أدى إلى انتصار العثمانيين عليهم[٣]، آنذاك أدرك جان بردي الغزالي أن النصر حليف العثمانيين لذلك لم ينضم مع الأمراء الذين ساندوا قانصوه الغوري، ولما قتل الغوري في مرج دابق تسلم الحكم السلطان الجديد طومان باي، الذي عين جان بردي لنيابة الشام، ولكن يبدو أن خلافات وقعت بين الأمراء المماليك حول اقتسام المناصب الكبرى، عندها أدرك جان بردي أنه يوجد الكثير من المنافسين المماليك الأقوياء ضده، وهذا ما جعله يقف إلى جانب السلطة الأقوى وهي سلطة العثمانيين، فما كان منه سوى أن كتب عريضة إلى السلطان سليم يطلب منه العفو والأمان، وقد حصل عليه بعد أن استقبله السلطان سليم في خيمته في /٩٣٢هـ/١٥١٧م/، ثم أصدر السلطان سليم فرماناً بتعيينه والياً على القدس (التي تشمل غزة وصفد ونابلس) ثم ألحقها بقرار آخر وهو تعيين جان بردي حاكماً لولاية الشام مدى حياته[٤]، وبالتالي خضعت كل من بلاد الشام ومصر للحكم الذاتي الداخلي.

خاصة أنه تم تعيين العديد من القادة العساكر المماليك الذين وقفوا إلى جانب السلطان سليم سابقاً، كحكام في المنطقة ثمناً لخيانتهم، ومنهم خايربك حاكماً لمصر والذي سبق جان بردي في إعلان ولاءه للعثمانيين، وبذلك غدا لكل منهما جهازه الإداري وقواته العسكرية الخاصة كما منحوا استقلالاً داخلياً شبه تام[٥].

١- حليم ، مصدر سابق، ص٨٧.

٢- سرهنك، مصدر سابق، ص ٧٦.

٣ - شلبي، مرجع سابق، ص٦٥٨.

٤- حرب ، مرجع سابق، ص ١٦٣-١٦٤.

٥ - طقوش، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

ومن الجدير بالذكرأن جان بردي الغزالي متقلباً في مواقفه، وفي أغلب الأحيان يلجأ للخيانة في سبيل تحقيق طموحه، على سبيل المثال عندما شعر أن العثمانيين قد يفطنون إلى ضعف ولائه لهم، أرسل رسولاً من قبله إلى الشاه اسماعيل الصفوي، يعرض عليه طاعته وولائه له، شرط أن يمده بجيش يساعده ضد العثمانيين، وبالمقابل ضمن جان بردي خضوع الشام للدولة الصفوية(١).

ولكن عند وفاة السلطان سليم انتهز جان بردي الغزالي وغيره من المتمردين حداثة سن السلطان سليمان القانوني هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو أنهم شعروا بقوتهم وغلبتهم على زعماء عصرهم في المنطقة التي كانوا يحكمونها(٢)، فما كان منهم سوى أن أعلنوا عصيانهم عليهم، لأنهم رغبوا بإحياء الدولة المملوكية من جديد(٣).

فكتب جان بردي الغزالي إلى خاير بك والي مصر في القاهرة يخبره بأن السلطان سليم قد مات، وأن الوقت قد حان للتمرد على الدولة العثمانية وسلطانها الجديد، لإعادة إحياء الدولة المملوكية(٤).

مع العلم أن جان بردي الغزالي كان قد بالغ قبل إعلانه الثورة في إظهار ولائه للدولة العثمانية، إذ نجح بتوطيد الأمن في دمشق وخارجها، كما أنه قضى على أمير البقاع البدوي ناصرالدين بن الحنش، وقتله سنة /٩٢٤هـ/١٥١٨م/ بعد أن فشل السلطان سليم في ذلك.

وقضى الغزالي أيضاً على الكثير من الأمراء المحليين في نابلس، وقاد عدة حملات ضد بدو حوران وعجلون الذين كانوا يتعرضون لقوافل الحج الشامي، وكل هذا أسعد السلطان سليم، مما أدى إلى ازدياد نفوذ الغزالي في دمشق، الذي نجح بدوره في استغلال نفوذه ومنصبه في تحقيق العديد من مآربه ومخططاته في إعادة نفوذ المماليك(٥).

١- حرب، مرجع سابق، ص ١٦٣.

٢- شلبي، مرجع سابق، ص٦٥٩.

٣- طقوش، مرجع سابق، ص٢٠٨ .

٤- أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٦١.

٥- رافق، المشرق في العهد العثماني، ص٥٨-٥٩.

وبالفعل قام والي الشام جان بردي الغزالي، الذي وقف في يوم من الأيام إلى جانب السلطان سليم في معركة مرج دابق[1]، بإرسال رسالة إلى خاير بك من أجل تنفيذ هذا الانقلاب إن صح القول ضد ابن السلطان سليم، وجاءه الرد من قبل خاير بك يطلب منه الذهاب أولاً إلى حلب للسيطرة عليها -أي أوحى له خايربك بأنه موافق-، وكان خايربك قد أرسل هذه الرسالة بدوره إلى السلطان سليمان فاضحاً بها زميله المملوكي الخائن جان بردي الغزالي[2].

ولما أعلن جان بردي الغزالي الثورة شرع في حصار قلعة دمشق، التي كان فيها الإنكشاريون الموالون للسلطان وتمكن من السيطرة على القلعة.

ثم أصدر قراراً بمنع ذكر اسم السلطان سليمان في خطبة المساجد كما أعلن نفسه في المسجد الأموي كحاكم مستقل[3]، وخطب باسمه في الجامع الأموي، وضرب النقود باسمه، واتخذ لنفسه لقب الملك الأشرف[4]، وبمحاولة منه لجمع المؤيدين أعاد جان بردي الغزالي البقاع لآل حنش، كما التف من حوله بقايا المماليك الذين وجدوا أن الفرصة مناسبة للوقوف إلى جانب هذا القائد المملوكي وإبراز قوتهم، وقام الغزالي أيضاً بمنع ارتداء الملابس العثمانية وفرض على السكان ارتداء الملابس المملوكية، وأمر بإيقاف بناء تكية وجامع كان قد أمر السلطان سليمان ببناءهما عند قبر محي الدين ابن العربي، ثم استكمل جان بردي الغزالي مخططاته وذلك بمد سيطرته خارج دمشق فعين ولاة من قبله على حمص وحماة وطرابلس، ثم اتجه إلى حلب لإخضاعها بعد أن أعلن نفسه سلطاناً للبلاد[5].

ولكنه تراجع بسبب قدوم القوات العثمانية، التي كانت مكونة من جيشين أحدهما بقيادة فرهاد باشا والآخر بقيادة دلقادر أوغلو علي بك الذي كان الأسرع في الوصول إلى قلعة حلب فتمكن من تفريق قوات جان بردي الذي اضطر بدوره إلى الانسحاب إلى دمشق، عندها

١- أرسلان، مصدر سابق، ص١٥١.

٢- أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٦١.

٣- رافق، المشرق في العهد العثماني، ص٥٦.

٤- شلبي، مرجع سابق، ص٦٥٩.

٥- رافق، المشرق في العهد العثماني ، ص٥٩.

اتحدت قوات فرهاد باشا مع علي بك واتجها إلى دمشق التي اتخذ جان بردي مواقعه خارجها ، وفي سنة /٩٢٧هـ/ ١٥٢١م/ هُزِمَ جان بردي الغزالي في معركة جرت شرق برزة*[١] في منطقة تدعى نمور[٢]، فقبض على جان بردي الغزالي وقطع رأسه وعين بدلاً عنه إياس باشا والي الأناضول الذي صار فيما بعد صدراً أعظم[٣].

وبذلك يكون جان بردي الغزالي حاكم الشام(سوريا وفلسطين) قد فشل في أن يعلن نفسه سلطاناً للبلاد أو ملكاً أشرف أو حتى أن يعلن نفسه عاهلاً، وبالمقابل أثبت السلطان سليمان القانوني قدرته على فرض قوة واحترام سلطته على جميع البلاد الخاضعة له [٤].

٢ –التصدي لعصيان إينال سيفي وجانم سيفي:

اغتنم بعض المماليك وفاة السلطان سليم للقيام بثورة على خلفه السلطان سليمان[٥]، على الرغم من افتقار هؤلاء المماليك لوجود قيادة قوية قادرة على مواجهة هذا الحاكم الشاب الجديد، إلى أن جاء عام/٩٢٨هـ/١٥٢٢م/ فقام كل من إينال جانم السيفي وجانم السيفي، بثورة ضد الدولة العثمانية وحاكمها السلطان سليمان، وجدير بالذكر أن هذين المملوكين قد انتقما من مشايخ بدو آل مرعي في منطقة البحيرة، بسبب تسليمهم السلطان طومان باي للعثمانيين، الذين قاموا بقتله، وكان الثائران قد أعلنا أنهما لن يرضخا لأوامر السلطان سليمان الصغير السن، وأنهما لن يتركا الحكم للعثمانيين، وبالفعل تمركز كل من جانم وإينال السيفي في منطقة استراتيجية مكنتهما من السيطرة على الطريق الرئيسية التي تربط بين كل من

١– حرب، مرجع سابق، ص ١٦٥.

* برزة قرية تقع شمالي مدينة دمشق، في آخر جبل قاسيون من جهة الشرق، تبعد ٧كم عن دمشق.ابن أجا، مصدر سابق، ص٣٠٩.

٢ – ابن أجا، مصدر سابق، ص٣٠٩.

٣ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٦١.

٤ – مانتران، مرجع سابق،ج١، ص٢١٦.

٥ – كلو، مرجع سابق، ص٤٩.

مصر وبلاد الشام، كما أنهما تحكما بالمؤن وطرق المواصلات بين الصعيد والقاهرة، ولكن هذا الحال لم يستمر طويلاً إذ تمكن العثمانيون من البطش بهذين الثائرين[1].

ويمكن القول إن الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليمان تمكنت من القضاء على الكثير من الثورات، التي قادها المماليك، فظن هؤلاء الثائرون أنهم قادرون على النيل من هذا السلطان الشاب، أوحتى من تلك الدولة الفتية التي كانت في طور النمو السريع والمتصاعد.

٣- سيطرته على رودس وطرد الفرسان منها:

عدت جزيرة رودس التي تقع في الجزء الشرقي من البحر المتوسط، جزيرة مشاكسة، فقد كانت معقل فرسان القديس يوحنا*، بسبب وجود فرسان القديس يوحنا فيها، ومنذ أيام الحروب الصليبية شكلت خطراً يهدد المسلمين بشكل عام والدولة العثمانية بشكل خاص، فكان فرسان القديس يوحنا يقطعون طريق الحجاج المسلمين إلى الحجاز، فضلاً عن قطع خطوط المواصلات البحرية العثمانية ، كما أنهم كانوا يغيرون على سواحل بلاد الشام وآسيا الصغرى ويقومون بسلب ونهب السفن التجارية الإسلامية[2]، وكانوا يضربون السفن التي تسير في شرق البحرالمتوسط بين سورية ومصر والأناضول[3]، لذا حاول السلطان محمد الفاتح سابقاً أن يحتلها ثلاث مرات ولم ينجح بذلك، ليعلن بعدها السلطان سليمان القانوني أن احتلال جزيرة رودس هي مهمة سلطانية، خاصة أنه كان على علم بالمحاولات السابقة للسيطرة على هذه الجزيرة التي منيت بالفشل زمن السلطان محمد

[1] - رافق، العرب والعثمانيون، ص٨٥.

* فرسان القديس يوحنا، منظمة خيرية أنشئت في حوران لمساعدة المرضى والجرحى، وعندما قدم الصليبيون إلى القدس انتقلوا معهم، وهناك تحولوا إلى منظمة عسكرية، وحينما فتح صلاح الدين القدس سنة ١١٧٨م طردهم منها إلى عكا ومن عكا بدؤوا بمحاربة سفن المسلمين، فحاربهم صلاح الدين وطردهم منها، فالتجؤوا إلى رودس، وفي رودس غدوا شوكة في حلق الدولة العثمانية، فطردهم سليمان القانوني منها، فأقطعهم شاركان ملك الإمبراطورية الهابسبورغية مالطة مقراً روحياً وطرابلس الغرب مركزاً عسكرياً، وفي طرابلس الغرب ارتكبوا مجازر بحق الأهالي الذين التجؤوا إلى السلطان سليمان القانوني، فأرسل القانوني حملته سنة ١٥٥١م وطردهم من طرابلس الغرب، فاستقروا في مالطة حتى مجيء نابليون بونابرت إلى مصر سنة ١٧٩٨م فقضى على عش القرصنة البحرية. جودت، مصدر سابق، ج٥، ص٤١٧.

[2]- طقوش ، مرجع سابق، ص ١٨٣.

[3] – مانتران ، مرجع سابق، ج١،ص٢١٨.

الفاتح وحاول الاستفادة منها، عندها تيقن السلطان سليمان أن جزيرة رودس كانت محصنة بشكل محكم[١]، وربما كانت محصنة أكثر من مدينة بلغراد، وهذا ما عَقَّد المهمة على العثمانيين[٢].

ولكن يبدو أن السلطان سليمان حاول الإسراع بالسيطرة على هذه الجزيرة لأن ملوك أوروبة الذين يعدّون أنفسهم حماة هذه الجزيرة كانوا منشغلين بعدَة أمور ومشكلات داخلية تعاني منها حكوماتهم، فلم يكونوا قادرين على حماية رهبان جزيرة رودس آنذاك[٣]، كل هذه الأسباب دفعت السلطان سليمان لكي ينتهز فرصة انشغال الملوك ليقدم على مشروعه الذي فشل السلاطين من قبله في تحقيقه[٤].

ولما علم رئيس رهبان جزيرة رودس فيليه دي ليل نام بما يعتزم عليه السلطان سليمان أرسل سفراءه إلى الباب العالي يعلمهم بأنه مستعد لدفع جزية سنوية للدولة العثمانية، وكان هدفه من هذا التصرف هو أن يشغل السلطان سليمان عن تنفيذ هدفه لحين وصول الإمدادات والمساعدات من الدول الأوروبية، وجاء الرد بالرفض من قبل السلطان سليمان، الذي أرسل بدوره برسالة إلى رئيس الرهبان فيليه دي ليل نام يطلب منه إخلاء الجزيرة بكل من معه من المسيحيين مع تعهده بعدم التعرض لهم، ولما جاء الرد بالرفض من قبل رئيس الرهبان أعلن السلطان سليمان الحرب على هذه الجزيرة[٥].

وفي عام/٩٢٨هـ/١٥٢٢م/أقلعت السفن البحرية العثمانية[٦]، المكونة من ٦٦٤ سفينة كان قد أمر السلطان سليمان بتشييدها استعداداً لهذه الحملة[٧]، قاصدة جزيرة رودس بقيادة صهره مصطفى باشا، ولما وصل السلطان سليمان رأى بنفسه متانة القلاع التي أقامها سكان الجزيرة، وما أبدوه من شجاعة في الدفاع عن مدينتهم لذلك أمر السلطان بتشديد الحصار البري

---

١ – حرب، مرجع سابق، ص٩٨.

٢ – أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٢.

3 burak sansal , Impero ottoman, all about turkey, 2010,s 2.

٤ – فريد بك، مصدر سابق، ص٢٠٣.

٥ – سرهنك، مصدر سابق، ص٧٨.

٦ – آصاف، مصدر سابق، ص٦١.

٧ – بيتروسيان، مرجع سابق، ص١٤١.

والبحري[1]، واستعمال المدافع بعيدة المدى التي كانت قادرة على تدمير هذه الأسوار[2]، وبالرغم من هذه الترتيبات الشديدة التي اتخذت، استمر الحصار حوالي ثلاثة شهور متتالية[3]، متتالية[3]، قام من خلالها سكان رودس بالدفاع بشكل كبيرعن هذه الجزيرة ووقفوا ضد العثمانيين[4] يداً بيد مع النساء اللواتي كن يساعدن الرجال بإلقاء الحجارة وصب الزيوت الحارة على رؤوس الجنود العثمانيين[5]، عندها اتضح للسلطان سليمان استحالة الاستيلاء على على هذه القلعة فاضطر إلى عقد مجلس عسكري تقرر فيه إعادة إقامة الجيش ومعدات القتال والحصار ولكن في مكان آخر[6]، وبالفعل بعد جهود كبيرة وجبارة نجح العثمانيون في السيطرة على رودس(مفتاح الشرق الأوسط)، بالإضافة إلى مجموعة من الجزرالتي كانت محيطة بها مثل جزيرة سومبكي وجزيرة استانكوى وقد سبقها العثمانيون بالسيطرة على اثني عشر جزيرة أخرى[7].

ولما شعر سكان رودس أنه من المستحيل الصمود أكثر من ذلك أمام العثمانيين، كانت الجزيرة بقيادة رئيس الرهبان على وشك الاستسلام[8]، لولا وصول الأساطيل الأوروبية التي جاءت لتقديم المساعدة والدعم لسكان الجزيرة، وهذا ما أدى إلى تجدد القتال بين الطرفين، فما كان من السلطان سوى أن أمر بتشديد الحصار وزيادة حدة الهجوم عليه[9]، عندها أدرك رئيس الرهبان مع سكانها استحالة الصمود أكثرمن ذلك أمام المدافع العثمانية[10]، وهذا ما دفع رئيس الرهبان فيليه دي ليل نام أن يرسل إلى السلطان سليمان يعرض عليه السماح بمغادرة الجزيرة خلال إثني عشر يوماً ولكن بشرط أن تبتعد جيوشهم مسافة ميل تقريباً لكي لا

---

[1] – آصاف، مصدر سابق، ص٦١.

[2] – بيتروسيان، مرجع سابق، ص ١٤١.

[3] – آصاف، المصدر السابق، ص٦١.

[4] – سرهنك، مصدرسابق، ص٧٨.

[5] – فريد بك، مصدرسابق، ص٢٠٥.

[6] – بيتروسيان، المرجع السابق، ص١٤٢.

[7] – أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٣.

[8] – سرهنك ، المصدر السابق، ص ٧٨.

[9] – أوغلي، مرجع سابق، ص٣٦٤.

[10] – سرهنك ، المصدر السابق، ص ٧٩.

يتعرضوا للسكان بأي أذى، وافق السلطان سليمان على ذلك ولكن كانت هناك فرقة من الإنكشارية قد دخلت المدينة دون علم السلطان واستباحتها فارتكب جنودها كل أنواع القبائح كعادتهم [١]، وذلك نتيجة حرمانهم من الغنائم[٢] وهذا ما أغضب السلطان سليمان فعاقبهم على على هذا التصرف غير اللائق وأعاد الأمن للجزيرة[٣].

أما الرهبان الذين تركوا جزيرة رودس فقد استقروا في جزيرة مالطة التي منحهم إياها الملك الإسباني شارل الخامس (شارلكان)، حيث قاموا بتحصينها وجعلوها قاعدة لهم لمواجهة المسلمين في البحر المتوسط[٤] .

لقد أدى سقوط أقوى القلاع الأوروبية مثل (بلغراد ورودس) التي عدّت من أهم المراكز الإستراتيجية بالنسبة لأوروبة إلى إشاعة الخوف والإعجاب بالسلطان سليمان القانوني[٥]، كما واعتبرت حملته إلى رودس من الحملات الهامة، فقد كانت إيذاناً بانتقال زمام زمام المبادرة من أيدي الأوروبيين إلى العثمانيين[٦].

وبما أنه تم الحديث عن نجاح الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليمان القانوني بالسيطرة على كل من رودس وبلغراد، يلاحظ من خلال دراسة وقائع أحداث هذه المعركة وبالعودة إلى الأسباب التي أدت إلى قيام هذه التوسعات في أوروبة، أن السلطان محمد الفاتح الذي كان من مؤسسي الإمبراطورية العثمانية قد فشل في السيطرة على كل من رودس وبلغراد سابقاً، والسؤال المطروح: هل كان ذلك ضعفاً منه أو تقصيراً من جيشه، أم أن أوروبة كانت آنذاك أقوى مما هي عليه زمن السلطان سليمان القانوني؟ للإجابة على هذا السؤال ربما لابد من دراسة دقيقة للظروف التي كانت قائمة آنذاك، ولكن وانطلاقاً من الدراسة التي شملت الوقائع التي كانت تحيط بالسلطان سليمان القانوني وأوروبة في تلك الفترة، نقول أن أوروبة كانت تعيش نوعاً من الفوضى إن صح القول أو حتى ضياعاً ما بين النظريات القومية التي بدأت

---

١ – فريد بك، مصدر سابق، ص٢٠٦.

٢ – بيتروسيان، المرجع السابق، ص١٤٣.

٣ – فريد بك، المصدر السابق، ص٢٠٦.

٤ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٨٩.

٥ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٦٤.

6 –Impero ottoman, all about turkey – burak sansal, 2010,s 2

بالظهور وبين التقاليد الدينية التي كانت مسيطرة على أوروبة وسياستها آنذاك، وبالمقابل كانت الدولة العثمانية تعيش أوج قوتها العسكرية في ظل وجود سلاطين أقوياء وقادة بارزين كانوا قد وضعوا نصب أعينهم أهدافاً محددة وواضحة ومنها توسيع نطاق هذه الإمبراطورية، لذلك نستطيع أن نقول أن عدم مقدرة السلطان محمد الفاتح في السيطرة على بلغراد ورودس، ليس ضعفاً منه إنما كانت بسبب القوة التي كانت تمتلكها أوروبة آنذاك، وهذا بدوره ساعد السلطان سليمان القانوني في النجاح وتحقيق النصر في أغلب معاركه في أوروبة، هل نستطيع أن نسمي ذلك أنه كان ضربة حظ لصالح السلطان سليمان؟ وللإجابة على ذلك السؤال نقول نعم ولكن طبعاً دون التقليل من المقدرة العسكرية والإستراتيجية التي كانت تمتلكها الدولة العثمانية في ظل قائدها السلطان سليمان القانوني.

٤-حملاته على إيران:

لقد كانت معركة جالديران/٩٢٠هـ/١٥١٤م/هي الشرارة الأولى لحروب طويلة وطاحنة بين الطرفين العثماني والصفوي[1]، وهذه الحروب استنفذت ثلاثة قرون من عمرهاتين الدولتين، تخلّلها الكثيرمن معاهدات السلام التي لم تحل المشكلة القائمة بين هاتين الدولتين ولن تحلّها كما أنها لم تفرض السلام بشكل فعلي أي إنها لم تنه هذا العداء التقليدي بين هاتين الدولتين[2].

والواقع أن هذه الضربة القاسية التي تعرضت لها الدولة الصفوية الإيرانية بعد معركة جالديران كانت قد جمدت تحركاتها لمدة تسعة عشر عاماً حتى/٩٣٩هـ/١٥٣٣م/[3].

لعدة أسباب منها اكتشاف رأس الرجاء الصالح، الذي شكل تهديداً حقيقياً للدور التقليدي الذي كانت تلعبه الدولة العثمانية في الوساطة بين الجنوب الآسيوي وغربي أوروبة، والتي لن تستطيع أن تحافظ عليه إلا إذا تمكنت من أن إخضاع الخليج العربي والعراق لسيطرتها الذي كانت تمر منه البضائع القادمة من آسيا الشرقية، وكان هذا دافعاً كبيراً للسلطان سليمان لكي

١- فواز، مرجع سابق، ص٢٧١.

٢- هريدي، مرجع سابق، ص٥١.

٣- أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣٣٩.

يعلن حربه على الشاه الصفوي، لكن تلك الحروب التي شنها العثمانيون على الصفويين لم تنتهي بالقضاء عليهم أو هزيمتهم، ولكنها ستمكن العثمانيين من السيطرة على ممتلكات شاسعة ستبقى تحت سيطرتهم لمدة أربعة قرون من الزمن.

استطاع السلطان سليمان القانوني أن يجد مبررات كافية لإعلانه الحرب على الصفويين، ومنها مقتل والي بغداد على يدالصفويين*، لأنه سلم مفاتيح المدينة للسلطان سليمان، بالإضافة إلى خيانة باي بتليس شريف خان لصالح الشاه الصفوي[1].

أ-الحملة الصفوية الأولى :

السيطرة على العراق/٩٤١هـ/١٥٣٤م/:

لقد كان طبيعياً أن تفكر الدولة العثمانية باحتلال بغداد مركز الخلافة الآخر بعد سيطرتها على كل من بلاد الشام ومصر، فتصبح بلاد المشرق العربي كلها تحت سيطرتها، وتحول بذلك دون محاولات الصفويين للاستيلاء عليها، وجدير بالذكر أنه بعد انتصار الدولة العثمانية في جالديران، فرضت نفوذها على كل من الموصل وديار بكر وماردين وعينوا حكاماً من قبلهم عليها، وهذا ما أدى إلى ازدياد النفوذ العثماني على حساب النفوذ الصفوي الذي غدا نفوذه في العراق اسمياً فقط [2]، حيث كانت البداية مع الأمير ذي الفقار بن نخود سلطان موصلو الذي استقل بحكم بغداد وكان ذلك سنة /٩٣٥هـ/١٥٢٩م/، وأعلن انصياعه للدولة العثمانية[3]، ولكنه لم يتمكن من الصمود طويلاً أمام زعماء القزل باش* الصفويين الذين

---

* الصفويون، هم الذين حكموا ايران من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، ينتسبون إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي، وهو من أهل أذربيجان، وأم الشاه اسماعيل الصفوي بنت أوزون حسن أمير دولة قره قوينلو أي الشاه السوداء، وهو كذلك من أتراك أذربيجان، ومريدو أبيه من شيوخ الطريقة الصوفية أتراك، كما اختار الشاه اسماعيل جنوده من الترك وبعضهم نال الملك، وفي عهد الصفويين كان أتراك أذربيجان يشكلون أهم عنصر عسكري في الدولة الصفوية . حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك ، القاهرة ، الدار الثقافية للنشر، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٩٦.

[1] - كلو، مرجع سابق، ص١١٦.

[2] - نوار، مرجع سابق،ص٦٢.

[3] - آصاف، مصدرسابق، ص ٦٤.

جهزوا حملة سنة /٩٣٦هـ/١٥٣٠م/استرجعوا من خلالها بغداد وأخضعوها لحكمهم بعد أن هرب ذوالفقار ولجأ إلى السلطان العثماني[1]، إلى أن جاء عام/٩٣٦هـ/١٥٣٠م/ إذ حاول الشاه طهماسب* الأول أن يفرض سيطرته على بغداد ولكنه لم ينجح في ذلك، ولما فشل السلاح في تحقيق مراده لجأ إلى الخيانة[2].

فاستمال الشاه طهماسب شرف خان حاكم مدينة بتليس(الواقعة على المنطقة الحدودية العثمانية الصفوية) الذي خان العثمانيين وأعلن ولاءه للدولة الصفوية، نتيجة لذلك تحركت القوات الصفوية باتجاه الأراضي العثمانية سنة/٩٤٠هـ/١٥٣٣م/ واستولت على بغداد[3]، وبالمقابل كان الحاكم الصفوي في بغداد أولامه خان قد خان بلاده أيضاً فيما بعد وعقد إتفاقاً مع العثمانيين[4]، ويبدو أن هذه الفوضى التي حلّت في المنطقة جعلت الحرب حتمية بين الطرفين، خاصة أن السلطان سليمان كان راغباً بحماية الدولة العثمانية من الخلف أثناء حروبها مع أوروبة، وذلك بعد سماعه بالاتفاق البرتغالي الصفوي، وما يشكله هذا التحالف من تهديد على الأماكن المقدسة، هذا بالإضافة إلى رغبة السلطان سليمان في إعادة إحياء صناعة الحرير في المنطقة بعد الكساد الذي تعرضت له هذه الصناعة نتيجة الحصار الذي فرضه عليها الحكام الذين سبقوه[5].

---

* القزل باش ، اسم أطلقه الأتراك على مجموعة من القبائل التي كانت ترتدي قبعات لونها أحمر، وقد تمكن الشيخ صفي الدين الأردبلي وأولاده من بعده أن يقوموا بجذب الكثيرين من المريدين، ليس في إيران فحسب =بل في كل الولايات التركية من آسيا الصغرى والعراق والشام، بتأثير دعايتهم القوية، وقد تحولت فرقة الدراويش التي يتزعمها الشيخ صفي الدين إلى مركز مذهبي لنشر المذهب الشيعي. بديع جمعة، أحمد الخولي، تاريخ الصفويين وحضارتهم، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٣٧-٤٢.

[1] – الصباغ، مرجع سابق، ص١٧٩.

* الشاه طهماسب، تولى العرش خلفاً لأبيه، وكان لا يزال في العاشرة من عمره، ودام حكمه حوالي نصف قرن من الزمن، توفي سنة ١٥٧٦م. نوار، مرجع سابق، ص ١٩٥.

[2] – رافق، المشرق في العهد العثماني، ص٥٠.

[3] – طقوش، مرجع سابق، ص٢١٠.

[4] – اينالجيك، مرجع سابق، ص٦٢.

[5] – هريدي، مرجع سابق، ص٦٣.

عندئذ عقد السلطان سليمان الصلح مع النمسا[1]، ثم أصدر أوامره بإرسال حملة بقيادة إبراهيم باشا سنة/٩٤٠هـ/١٥٣٣م/ لإعادة الأمور إلى نصابها[2]، ويبدو أن السلطان لم يكن راغباً بقيادة هذه الحملة خشية من الهزيمة التي كانت ستنال من سمعة السلطة العليا في حال حدوثها[3]، فسارت الحملة إلى قونية ومنها إلى حلب، وفي السنة التالية تابع الجيش العثماني سيره فاستولى على دياربكرثم احتلوا كل القلاع المحيطة ببحيرة وان ثم دخلوا إلى تبريز واحتلوها دون قتال، وإبان مسيرة الجيش العثماني إلى تبريز[4]، كان الجيش العثماني قد بدأ يتذمر، إذ إنه لم يكن معتاداً على ألا يكون السلطان قائداً للجيش، كما أن إبراهيم باشا بدوره قد منع الجيش من أعمال النهب، فبدأ الجيش عندها يطالب بقيادة السلطان سليمان لهم، فما كان من إبراهيم باشا سوى أن أرسل إلى السلطان سليمان طالباً منه القدوم، خشية حدوث تمرد ضده، وبالفعل لما علم السلطان بما حدث، وعرف أن الشاه طهماسب قاد جيشه نحو بلدة تدعى سلطانية بالقرب من مدينة تبريز[5]، أعد حملة قادها بنفسه سنة /٩٤١هـ/١٥٣٤م/[6]، /٩٤١هـ/١٥٣٤م/[6]، فاتجه كل من السلطان سليمان وإبراهيم باشا نحو بغداد[7]، وذلك بهدف السيطرة على الطريق التي تربط بغداد بالشمال والشرق، لتقطع بذلك القوات العثمانية أية مساعدة من الصفويين لبغداد، ولما أحس الأمراء الصفويون بضعف الشاه الصفوي أعلنوا انصياعهم للسلطان العثماني، ولكن يبدو أن الجيش العثماني كان قد تعرض في تلك الفترة لخسائر كبيرة في العتاد والجيش نتيجة قدوم فصل الشتاء القاسي ولكثرة الفيضانات ولصعوبة اجتيازهم للمناطق الجبلية في شمال العراق، إلى أن وصلت الإمدادات فتمكنت عندها القوات العثمانية من متابعة مسيرتها إلى خانقين عندها أرسل حاكم بغداد الصفوي محمد خان يعلن خضوعه للعثمانيين، فدخلت بذلك القوات العثمانية بقيادة السلطان سليمان القانوني إلى بغداد

---

[1]- مهدوي، مرجع سابق، ص٢٩.

[2] - حرب ، مرجع سابق، ص٩٧.

[3] - بيتروسيان، مرجع سابق، ص١٥١.

[4] - الصباغ، مرجع سابق، ص١٣٥.

[5]- بيتروسيان، المرجع السابق، ص١٥١.

[6]- الصباغ، المرجع السابق، ص١٣٥.

[7] - حرب، المرجع السابق، ص٩٧.

وسط استقبال حاشد وحفاوة شعبية[1]، فآل بذلك العراق للدولة العثمانية بعد أن حكمه الصفويون مدة خمسة وعشرين عاماً[2]. وخضعت كل المدن العراقية للدولة العثمانية، وأصبح العراق الجنوبي عثمانياً أيضاً[3]، كما اعترفت السلالات المحلية في مناطق إنتاج الحرير مثل جيلان وشيروان بسيادة الدولة العثمانية[4]، ولكن على الرغم من سيطرة السلطان سليمان على على كردستان ومعظم العراق إلا أن الصفويين نجحوا بالحفاظ على أذربيجان[5]، وإبان هذه العمليات العسكرية فضّل السلطان سليمان البقاء لفترة وجيزة في بغداد لينظم شؤونها الداخلية، واستغرق ذلك منه حوالي أربعة أشهر[6]، وبذلك نجحت الدولة العثمانية بالسيطرة على إحدى أهم الطرق التجارية التي تصل أوروبة بالشرق الأقصى، بواسطة الخليج العربي وبغداد والموصل وحلب، وهذا ما أعطى مسؤولية أكبر للدولة العثمانية في حماية هذه الأراضي التي أصبحت خاضعة لنفوذها[7].

وجدير بالذكر أنه في الفترة التي كان فيها السلطان سليمان متواجد ببغداد، استغل الشاه طهماسب الفرصة واستعاد مدينة تبريز، وكان ذلك في عام/٩٤١هـ/١٥٣٤م/، ولكن السلطان سليمان قام بالرد السريع فاستعاد تبريز مرة أخرى، بعد أن انسحب الشاه طهماسب الذي بيّن جهاراً أنه لا يرغب في الدخول بصراع مسلح مع السلطان العثماني[8]، وبقي فيها فترة قصيرة سنة /٩٤٢هـ/١٥٣٥م/، ثم غادرها إلى استنبول[9].

وبالتالي إن سيطرة الدولة العثمانية على العراق اعطاها فائدة كبيرة، وضربة موجعة لأعدائها البرتغاليين والصفويين، إذ غدا للدولة العثمانية قاعدة بحرية في البصرة استطاعت

١ – رافق، المشرق في العهد العثماني، ص٥١.

٢ – مهدوي، مرجع سابق، ص٣٠.

٣ – طقوش، مرجع سابق، ص٢١٣.

٤ – اينالجيك، مرجع سابق، ص٦٢.

٥ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٩١.

٦ – فريد بك، مصدرسابق، ص٢٢٢.

٧ – طقوش، المرجع السابق، ص٢١٣.

٨ – طقوش، المرجع نفسه، ص٢١٤.

٩ – مهدوي، المرجع السابق، ص٣١.

من خلالها أن تقوم بتوجيه ضربات قوية ضد الأساطيل البرتغالية، كما أنه لم يعد لدى الدولة الصفوية أي أمل في أن تتسلم زعامة العالم الإسلامي، خاصة بعد خضوع العراق ومقدساتها الدينية للدولة العثمانية(١).

ب-الحملة الصفوية الثانية/٩٥٥هـ/١٥٤٨م/:

بعد أن قامت الفتنة بين الشاه طهماسب وأخيه القاص ميرزا* حاكم - شيروان- سنة /٩٥٤هـ/١٥٤٧م/(٢).

" التجأ أخو الشاه طهماسب المدعو القاص ميرزا إلى السلطان مستجيراً من ظلم أخيه وتعديه على حقوقه الشرعية " (٣).

فوجدها السلطان سليمان فرصة مناسبة لإعادة السيطرة على أذربيجان، التي كان قد استردها الشاه طهماسب سابقاً لأهميتها الاقتصادية والسياسية بالنسبة لدولته(٤).

هذا وكانت لدى السلطان سليمان أسباب متعددة دفعته للإعلان عن حملة جديدة باتجاه ايران، ومنها استمرار عملاء الشاه الذين يطلق عليهم اسم خليفة في بث الدعاية للانضمام إلى صفوف الشاه(٥)، بالإضافة إلى رغبة السلطان في استعادة تبريز التي تعدّ من المناطق

١- هريدي، مرجع سابق، ص٦٥.

* كان القاص ميرزا - ابن الشاه اسماعيل الأول-حاكماً على شيروان، منذ أن سيطر عليها الجيش الصفوي /٩٤٥هـ/١٥٣٨م/، ولما لم يكن القاص ميرزا على وفاق مع أخيه الشاه، أعلن استقلاله بحكومة شيروان، مما جعل الشاه طهماسب يعد حملة تأديبية ضده.

حسين مير جعفري، زندكَاي القاص ميرزاي صفوي (تاريخ حياة القاص ميرزا الصفوي)، مجلة بررسيهاي تاريخي(مجلة دراسات تاريخية)، شماره ٥ (الرقم ٥)، تهران، سال يازدهم (السنة ١١)، ص١٤٩.

٢- مهدوي، مرجع سابق، ص٣١.

٣- سرهنك، مصدر سابق، ص١٠١.

٤- الصباغ، مرجع سابق، ص١٣٩.

٥- أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣٤٣.

الإستراتيجية على طريق الحرير، كما أنه أدرك مدى أهمية مدينة شيروان وموقعها الإستراتيجي، لأنها عدّت من أهم المناطق المنتجة للحرير[١].

وبالفعل قام السلطان سليمان بعقد صلح مع كل من آل هابسبورغ والبابوية وجمهورية فينيسيا وفرنسا، ثم جهز جيشاً وغادر استنبول بصحبة ابنه الأصغر شهرزاده جهان كير متجهاً نحو فارس وبرفقة القاص ميرزا أيضاً وذلك سنة /٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م/[٢]، واتخذ المحورالشمالي لأنه الأقرب إلى أذربيجان والأكثرأهمية ونفعاً لمرورالإمدادات من البحر الأسود[٣]، مستغلاً بذلك انقسام البيت الصفوي على نفسه، من أجل تحقيق أهدافه الرامية للسيطرة على فارس وملحقاتها[٤]، ولما علم الشاه طهماسب بخبر الحملة أمر بإحراق كل ما يمت بالحياة بصلة في الطريق التي ستسلكها القوات العثمانية، ثم غادرالشاه طهماسب عاصمته تبريز فاحتلها السلطان سليمان بعد أن سيطر على مدينة شيروان[٥]، كما نجح القاص القاص ميرزا بالقيام بعدة حملات في كرمنشاه وهمذان وقم وأصفهان وكاشان ولكن على الرغم من ذلك إلا أنه لم يتمكن من التغلب على أخيه[٦] ، وبعد عدة صدامات بين الجانبين العثماني والصفوي تخلى القاص ميرزا عن الجيش العثماني[٧]، ثم ما لبث أن قبض عليه أخوه أخوه الشاه طهماسب وقتله[٨].

ولما عاد السلطان سليمان إلى استنبول سنة /٩٥٦هـ/١٥٤٩م/ اختار الطريق الجنوبي بدلاً من الشمالي وكان لهذا الاختيار سببان:

أولاً: على الصعيد الصفوي كان الشاه الصفوي قد قام بتغيير عاصمته من تبريز إلى قزوين.

---

١ - الصباغ ، العلاقات العثمانية الصفوية ٩٠٧-١١٤٨هـ/١٥٠١-١٧٣٦م ، ص١٣٩.

٢- أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣٤٥.

٣- الصباغ ، المرجع السابق ، ص١٨٨.

٤- الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، ص ١٨٠.

٥- جعفري، مرجع سابق، ص١٥٩.

٦ - أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص٣٤٦.

٧ - مهدوي، مرجع سابق، ص٣١.

٨- حليم، مصدر سابق، ص٩٣ .

ثانياً: دخول كرجستان أول مرة إلى دائرة الصراع بين الطرفين العثماني والصفوي[1].

وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذه الحملة التي قادها السلطان سليمان تمخضت عنها عدة أمور تعتبر ذات أهمية ومنها أن الشاه الصفوي الذي كان يحسب له حساب آنذاك قام بتغيير عاصمته تبريز خوفاً من قدوم القوات العثمانية، وهذا الأمر بحد ذاته يبرهن لنا مدى القوة والرهبة التي كانت تحيط بالدولة العثمانية، هذه القوة جعلت منها دولة قوية مثل الدولة الصفوية تتراجع أمامها.

ج-الحملة الصفوية الثالثة/ ٩٦٠هـ/١٥٥٣م/:

لقد كان هدف الحملة العثمانية الثالثة إلى فارس هو إيقاف الغارات الصفوية التي كانت تزعزع الأمن في بغداد وفي شرق الأناضول وجنوبه الشرقي[2]، بعد أن أصبحت تبريز هدفاً هدفاً دائماً للعثمانيين، عندها رأت الدولة الصفوية أن تبدأ بعملية عسكرية ضد الدولة العثمانية، كرد إعتبار لها من الناحية الإستراتيجية، وبالفعل قاد الشاه طهماسب قواته وانطلق نحو أرمينيا ثم إلى أرض روم[3]، حيث سيطرت القوات الصفوية على شيروان وجزء من أرمينيا، أرمينيا، وهذا ما جعل السلطان يضع نصب عينيه هدفاً واحداً هواسترجاع هذه الأراضي[4].

فما كان منه سوى أن أسند قيادة الجيش للصدر الأعظم رستم باشا، لأن السلطان سليمان لم يجد ضرورة للخروج في هذه الحملة، كما أن حالته الصحية حالت دون ذلك، ولكن ذلك لم يرضِ الجيش لأن عدم مشاركة السلطان تعد مخالفة للتقاليد الحربية، كما أنه لم يكن لصالح الجيش من الناحية المادية، خاصة أن هذا الجيش بدأ يفقد الأمل في المطالبة بالبقشيش، ولكنه بالمقابل لم يعد يلح على أن يتولى السلطان القيادة، ولكن طالب الجنود أن يتولى قيادة الجيش ولي العهد على الأقل، ولكن مشكلة ولي العهد كانت قائمة آنذاك، وكان الصراع بين أبناء السلطان سليمان واضحاً وخطراً على الدولة العثمانية، ولكن يبدو في النهاية أن هذه الأ حداث

---

[1] - الصباغ ، العلاقات العثمانية الصفوية ٩٠٧-١١٤٨هـ/١٥٠١-١٧٣٦م،ص١٨٨.

[2] - أوغلو، مرجع سابق،ج١، ص٤١.

[3] - الصباغ ، المرجع السابق، ص١٨٩.

[4] - الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، ص١٨١.

قد أرغمت السلطان سليمان على قيادة الحملة، بعد أن أعلن عزل رستم باشا بتهمة الخيانة وعدم الولاء للدولة[1]. فبدأ السلطان حملته سنة/٩٦٠هـ/١٥٥٣م/[2] باحتلال العديد من المدن الفارسية مثل روان ونهجوان، عندها وصله وفد من الشاه يطلب منه الصلح وإنهاء الحرب بين الطرفين[3]، ولكن السلطان سليمان رفض طلب الشاه لأنه يتعارض مع أهدافه بالسيطرة على المراكز الإستراتيجية في المنطقة، وبعد أن دخل الطرفان في عدة معارك، تمكنت القوات الصفوية من أن تقوم بأسر أحد قادة العثمانيين وهو سنان باشا، عندها اقترح الصدر الأعظم محمد باشا على السلطان سليمان عقد صلحٍ مع الشاه الصفوي، فوافق السلطان سليمان ولكنه اشترط على ذلك الإفراج عن القائد سنان باشا، وعندما عرض موضوع الصلح على الشاه وافق بدوره على شروط السلطان سليمان، وأرسل رسول من قبله إلى أماسية حيث كان يعسكر السلطان سليمان، وكانت النتيجة أن اتفق الطرفان سنة /٩٦٢هـ/١٥٥٥م/ على مايلي:

أولاً: أن تكون ولايات أذربيجان الشرقية وأرمينيا الشرقية وكرجستان الشرقية خاضعة للنفوذ الصفوي، أما ولايات أرمينيا الغربية وكرجستان الغربية والعراق فتخضع للنفوذ العثماني، وأن تكون قارص هي الحد الفاصل بين الدولتين[4].

ثانياً: تستأنف عمليات الاتفاق فيما يخص حدود ولاية شهرزور تفادياً لوقوع أي حوادث قد تعكر صفو السلام القائم بين الطرفين.

ثالثاً: ضمان سلامة الحجاج الفارسيين الذاهبين إلى مكة وإلى الأماكن المقدسة الأخرى في العراق[5].

وبعد هذه الحروب الطويلة بين العثمانيين والصفويين، والتي كانت بين كرٍ وفرٍ تم التوقيع على أول إتفاقية سلام إن صح القول بين هذين الطرفين المتنازعين، مع العلم أن الدولة

---

[1] – بيتروسيان، مرجع سابق، ص١٦٠.

[2] – لويس، مرجع سابق، ص٥٦.

[3] – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣٤٦-٣٤٧.

[4] – الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، ص١٨١.

[5] – منوجهر بارسا دوست، زمينه تاريخي اختلافات ايران وعراق(أرضية الخلاف بين ايران والعراق) تهران، ١٣٦٤هـ ش، ص٢٦-٢٧.

العثمانية كانت في ذروة قوتها، ولكنها باتت شبه متأكدة أنه من المستحيل القضاء على الدولة الصفوية، وبالمقابل كانت الدولة الصفوية قد أصبحت على قناعة تامة أنه من غير الممكن مواجهة الدولة العثمانية القوية آنذاك.

والدليل على ذلك أن الشاه طهماسب كان معنياً بإبقاء العلاقات جيدة وهادئة بين الطرفين[١]، لكن مجيء سفير البندقية فنسينتيود السندري إليه قبيل وفاته يحذره من أن العثمانيين يرغبون بالسيطرة على قبرص، وهذا ما دفع البندقية في أن ترغب بالتحالف مع أعداء السلطان سليمان القانوني لكي تتمكن من أن تضع حداً لهذا السلطان وطموحاته[٢]، لا سيما بعد أن وجدت البندقية أن كل دول أوروبة كانت مشغولة بمشاكلها، ولم تلتفت إلى ندائها لطلب المساعدة، ولكن على الرغم من استجداء البندقية وإلحاحها على طلب الدعم من الشاه طهماسب[٣] إلا أنها لم تلق أي دعم من قبله لأنه كان يعلم أنه من الصعب مواجهة الدولة العثمانية وسلطانها القوي مرة أخرى[٤].

وعلى الرغم من اتفاقية السلام التي وقعت بين الطرفين إلا أن هذا السلام كان هشاً، بسبب وجود العديد من العوامل التي كانت سبباً في تجدد النزاعات بين الطرفين ومنها:

أولاً: الخلافات الدائمة بين زعماء العشائر في منطقة كردستان التي كانت تتمتع باستقلال ذاتي عن الدولة العثمانية، وفي كثير من الأوقات كان يلجأ أمراء هذه العشائر وزعماء قبائل البدو إلى الدولة الصفوية .

ثانياً: مهاجمة قبائل البدو لقوافل الحج أو القوافل التجارية العثمانية[٥]، على الرغم من جهود الدولة العثمانية التي كانت تسعى دائماً لحماية الحجاج الإيرانيين والعثمانيين إلا أن السيطرة

---

١ – نوار، مرجع سابق، ص ١٩٩.

٢ – فواز، مرجع سابق، ص ٢٨٥.

3- Assemblea di Wikimedia di italia, Guerra ottoman-asburgica,Pistoia, 20,marzo,2010.

٤ – فواز، المرجع السابق، ص٢٨٥.

٥ – هريدي، مرجع سابق، ص٦٦.

على العشائر البدوية العراقية كان أمراً صعباً نوعاً ما [١].

لذا وبدلاً من أن يتم التعاون بين هاتين الدولتين المتنازعتين لحماية الأماكن المقدسة والبحار الإسلامية من الخطر البرتغالي، وضعت الدولة الصفوية نفسها في خدمة البرتغاليين لضرب الدولة العثمانية والقضاء عليها، ولكنها لم تنجح في ذلك، وبالمقابل وعلى الرغم من انتصار العثمانيين على الصفويين إلا أن هذه الحروب كانت قد استنزفت جهود وطاقات الدولة العثمانية، مما أدى إلى عرقلة أهدافها الرامية إلى مد نفوذها في أوروبة[٢].

وحسب ما أورده الكاتب يلماز أوزتونا على أن هذه الحروب الإيرانية العثمانية التي دامت فترة طويلة من الزمن، وكانت بين صد ورد دون أي نتيجة حتمية لأحد الطرفين، كانت سبباً هاماً في تراجع التوسعات العثمانية في أوروبه، ويؤكد ذلك اتفاقيات الصلح المؤقتة التي وقعها السلطان سليمان مع أوروبه عدة مرات لكي يوجه قواته نحو ايران (فارس)، بمعنى آخر لقد استطاع السلطان سليمان أن يثبت قوته وجدارته كقائد عسكري، ولكنه بدد هذه القوة عندما وزعها بين الشرق والغرب دون أن يصل إلى نتائج حتمية من هذه المعارك.

وبالتالي يمكن القول إن مقولة " لولا الشاه، لوصلت الدولة العثمانية إلى الراين" هذه المقولة الشائعة التي كانت منتشرة في أوروبة آنذاك[٣] إنما هي شائعة ومقولة صحيحة.

١- فواز، مرجع سابق،ص٢٨٤.

٢- هريدي، المرجع السابق، ص٦٦.

٣- أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣٤٨.

٥-توسعات السلطان سليمان القانوني في الشمال الإفريقي:

عدّ المغرب العربي بحدوده الطبيعية جزءاً هاماً من الوطن العربي، فهو ذاك الجزء الغني بطاقاته وإمكاناته، هذا وقد عاش المغرب العربي أهم الأحداث التي شهدتها الأمة العربية[١]، ففي الوقت الذي كان فيه التوسع العثماني في الجناح الشرقي من الوطن العربي قد جاء نتيجة عدة حروب كبرى قامت مثل(مرج دابق ١٥١٦م-الريدانية ١٥١٧م)، كان التوسع العثماني في الجناح الغربي من الوطن العربي أي شمال إفريقية قد جاء نتيجة طلب العرب العون والدعم من العثمانيين للجهاد الإسلامي ضد القوى الصليبية التي كانت قواها آخذة بالإنتشار في شمال إفريقية، خصوصاً بعد سقوط غرناطة[٢].

والشمال الإفريقي* هو عبارة عن ساحل طويل، يمتد من خليج سلوم حتى مملكة فاس، ويقدرطوله ب٣٩٠٠٠كم، وهو ساحل غني بالخلجان، وقد اقتصرت السيطرة العثمانية في البداية على المناطق الساحلية، ثم ما لبثت أن توسعت لتشمل معظم أراضي طرابلس الغرب وتونس والجزائر، وقد كان الشمال الإفريقي من ليبيا(طرابلس الغرب) حتى مراكش خاضعاً للسيطرة الأوروبية نتيجة الضعف الذي شهدته مناطق الشمال الإفريقي وخاصة المغرب الأوسط، وكانت البداية مع الحملات الإستيطانية من قبل البرتغاليين في أواخرالقرن الخامس عشر[٣]، ثم تابع الإسبان المخطط الصليبي فاستولوا على المرسى الكبيرغرب الجزائرسنة/٩١١هـ/١٥٠٥م/[٤] بالإضافة إلى مدينتي مليلة والجزائر، كما احتلوا باديس سنة /٩١٤-٩١٥هـ/ وبجاية سنة /١٥٠٨-١٥٠٩م/ ونجحوا في إنشاء قاعدة بحرية قوية لهم في

١- محمود علي عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث" الجزائر وتونس"، منشورات جامعة دمشق، ط٣ ٢٠٠١م،ص٣.

٢ - نوار، مرجع سابق، ص٦٦.

* شمال إفريقية، إن أراضي طرابلس الغرب وتونس والجزائر وفاس تكون بلاد الشمال الإفريقي والتي سماها العرب إفريقية ولما توغلوا في أراضيها قسموها إلى ثلاثة أقسام:

١- المغرب الأدنى٢- المغرب الأوسط ٣- المغرب الأقصى، ولكن حدودها لم تكن واضحة آنذاك، فقد أطلقوا على فاس المغرب الأقصى والجزائر وتونس بالمغرب الأوسط وما تبقى من مناطقه أطلق عليها المغرب الأدنى. التر، مرجع سابق، ج١، ص١٥.

٣ - التر، المرجع السابق، ج١، ص١٤-١٥.

٤ - نوار، المرجع السابق، ص٦٦.

جزيرة بينون أو (رباط الخيل)[1]، وفي سنة/٩٢١هـ/١٥١٥م/ احتلوا ميناء طرابلس واستولوا على وهران والكثير من المدن الساحلية الأخرى[2]، بالإضافة إلى تعرض هذه الموانئ والمدن إلى حملات مدمرة، وكل هذه التحركات الأوروبية نحو شمال إفريقية، كانت نتيجة الأهمية الإستراتيجية لهذه المدن وبهدف دعم تجارتها، كما رأى الأوروبيون أن السيطرة على الساحل الإفريقي قد يمهد السبيل للوصول إلى القدس[3].

وعلى ما يبدو أن الحملات الإسبانية والبرتغالية على شمال إفريقية لم تكن تحمل مضامين اقتصادية فحسب[4]، إنما كان هدفها القضاء على المسلمين والإنتقام منهم[5]، وهذا ما دفع إلى إنضمام الأندلسيين إلى السكان الأصليين في سواحل المغرب، لمهاجمة الثغور الإسبانية مما عرّض التجارة الإسبانية إلى خسائر كبيرة، وكان هذا نوعاً من الانتقام من قبل الأندلسيين الذين لاقوا الكثير من الظلم على يد الإسبان[6]، مما أدى إلى ازدياد حدة الصراع بين سكان المغرب والإسبان، الذين ركزوا اهتمامهم على الجزائر وتونس في حين توجه اهتمام البرتغال نحو مناطق المغرب الأقصى، وكان ذلك من نهاية القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر[7].

أمام هذه الظروف الصعبة التي كان يعيشها سكان شمال إفريقية كان لابد من أن يتطلعوا إلى قائد بارز وقوي يستطيع أن يضع حداً للهجمات الأوروبية المدمرة[8].

وفي الوقت ذاته كان العثمانيون يتطلعون إلى اتخاذ مراكز عسكرية لهم في تلك البلاد، رغبة منهم في القضاء على تلك القوى البرتغالية والإسبانية وتعدياتهم على المسلمين[9].

---

[1]- طقوش، مرجع سابق، ص٢١٧.

[2]- نوار، مرجع سابق،ص٦٦.

[3]- طقوش، المرجع السابق، ص٢١٨.

[4]- التر، مرجع سابق، ج١، ص١٧.

[5]- فريد بك، مصدرسابق، ص٢١٢.

[6]- فواز، مرجع سابق، ص١٠٦.

[7]- التر، المرجع السابق، ج١، ص١٧.

[8]- فواز، المرجع السابق، ص١٠٦.

[9]- طقوش، المرجع السابق، ص٢١٧.

ولذلك لم يكن أمام العثمانيين بعد سقوط غرناطة وإخراج المسلمين من الأندلس سوى سبيل واحد، وهو بدء الحملات العسكرية نحوشمال إفريقية ضد هؤلاء الصليبيين المدمرين[١]، المدمرين[١]، خاصة أنهم كانوا يعدّون أنفسهم حامين للإسلام والمسلمين[٢]، وبالفعل تمت المواجهة مع هؤلاء الصليبيين المستعمرين[٣]، فوقف العثمانيون جنباً إلى جنب مع السكان الأصليين للدفاع عن أراضيهم[٤].

أ- تصديه لحملة شارلكان على الجزائر سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م:

بداية لابد من الإشارة إلى أن التدخل العثماني في شمال إفريقية لم يكن أمراً متوقعاً، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يحققوا دولة واسعة الأرجاء، ولكن مهما كانت الأسباب فقد نجح العثمانيون في تثبيت أقدامهم بقوة على أراضي الشمال الإفريقي، ليس هذا فحسب بل دافعوا عنه بكل ما لديهم من قوة، على الرغم من كل المؤامرات التي حيكت ضدهم سواء من القوى الخارجية أو الداخلية[٥].

وفي الواقع كان احتلال الإسبان لجزء كبير من الساحل المغربي بهدف حماية الممرات البحرية المؤدية إلى جزيرة صقلية التي كانت تعد الذخيرة التي تزودهم بالحبوب، ولإبعاد القراصنة (ويقصد بالقراصنة هنا المغاربة الذين طردوا من إسبانيا)، الذين كانوا يبحثون عن أي فرصة للانتقام من الإسبان، كل هذه العوامل دفعت بسلطان الجزائر إلى طلب العون من عروج، سنة /٩٢٢هـ/١٥١٦م/ وذلك للتخلص من الإسبان المعتصمين في بينون*[٦]،

---

١ – ياغي، مرجع سابق، ص٦٧.

٢ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٤.

٣ – التر، مرجع سابق، ج١،ص١٨.

٤ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٤.

٥ – عامر، المرجع نفسه، ص ١٩.

* بينون، وهو عبارة عن حصن قام الإسبان ببناؤه على نتوء صخري أمام مدينة الجزائر. كلو، مرجع سابق، ص١٣٠.

٦ – كلو، مرجع سابق، ص ١٣٠.

مع العلم أن عروج وإخوته كانوا يقيمون في منطقة بتونس تدعى جالطة، منحهم إياها سلطان تونس بناء على طلب من آل باربروس*، الذين كانوا يبحثون عن مستقرٍ لهم، وقد وافق سلطان تونس على طلبهم مقابل منحه خمس الغنائم التي يحصلون عليها، وبالفعل باشرآل باربروس نشاطاتهم فكانوا يهاجمون السفن العابرة في البحر المتوسط، ويحصلون على ما فيها من غنائم، كل هذه الأمور أدت إلى ازدياد شهرة عروج في جميع سواحل الشمال الإفريقي[١].

وبناء على ذلك لبى عروج طلب سلطان الجزائر، فزحف بجنوده إلى الجزائر براً، في حين هاجم إخوته القوات الإسبانية عن طريق البحر فتمكن من استعادة جزء كبير من الجزائر دون أي صعوبة تذكر، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على بينون[٢].

وكان من أبرزالأسباب التي أدت إلى هزيمة الإسبان هي عدم استعدادهم لمثل هذه المواجهة القوية[٣]، مع قائد قوي مثل عروج الذي أخذ بدوره يتصرف في البلاد كحاكم لها[٤]، لها[٤]، فنجح بالتخلص من كل المتعاونين مع الإسبان كما قام بفرض إجراءات أمنية مشددة، فساد الأمن في كل المدينة، مما أدى إلى التفاف العرب حول عروج ورجاله الذين أبدو استعدادهم للتعاون معه بشكل دائم[٥] وبعد أن أصبح لآل باربروس وزن دولي آنذاك، باتوا

* يعود أصلهم إلى الروملي، وكان والدهم واسمه يعقوب من فرقة الخيالة في الجيش العثماني، وكان لديه أربعة أبناء وهم على التوالي اسحق ويليه عروج وخضر ثم الياس، عمل الأولاد الأربعة بالتجارة، فاسحق عمل في جزيرة تدعى مديلي(فتحها السلطان محمد الفاتح سنة/٨٦١هـ/١٤٥٧م/، التر، المرجع السابق، ج١،ص٢. وتقع جزيرة مديلي شمال غرب ازمير وإلى الجنوب من من مضيق الدردنيل وهي اليوم ضمن بلاد اليونان وعاصمتها ميتيلين حسون، مرجع سابق، ص٦٤.) ، وعمل عروج والياس بالسفن التجارية، وكانا يذهبان إلى طرابلس الشام والإسكندرية، أما خضر فكان يذهب إلى سلانيك لممارسة الأعمال التجارية هناك، وفي أثناء إحدى الرحلات التجارية، تعرض عروج والياس لهجوم من قبل فرسان رودس(فرسان القديس يوحنا) الذين كانوا يمارسون أعمال السلب والنهب وخاصة على السفن الإسلامية، وإزاء ما فعله هؤلاء الفرسان بعروج وإلياس، قطعوا على أنفسهم عهد بمحاربة قطاع الطرق الصليبيين. التر، مرجع سابق،ج١، ص٢٧-٢٨.

١ - نوار ، مرجع سابق، ص٦٧.

٢ - فواز، مرجع سابق، ص ١٠٧.

٣ - التر، المرجع السابق، ج١، ص٥٦.

٤ - كلو، مرجع سابق، ص١٣٠.

٥ - التر، المرجع السابق، ج١، ص٢٣.

لايخفون نيتهم في السيطرة على كامل المغرب[١]، وبالفعل كانت البداية مع عروج الذي تمكن من الاستيلاء على تونس بعد أن قتل حاكمها المستبد الذي يدعى حامد الأسود، ثم نجح في الدخول إلى مدينة تلمسان بعد أن قتل حاكمها المتعاون مع الإسبان، وفي الوقت ذاته كان الإسبان يحاولون أن يستردوا الجزائر بأي وسيلة ممكنة، فجهزوا جيشاً ضخماً قوامه مئة ألف جندي وتوجهوا نحو مدينة تلمسان[٢]، وضربوا حصاراً عنيفاً ومحكماً حول المدينة دام حوالي ستة أشهر، وعلى الرغم من المقاومة الكبيرة التي أبداها عروج[٣]، إلا أن النجاح كان حليف الإسبان هذه المرة، فانهزم عروج[٤] مؤسس حكومة الجزائر[٥]، وقتل على يد الإسبان، وكان هذا انتصاراً كبيراً بالنسبة للإسبان لدرجة أن الفرحة عمت كل الأراضي الإسبانية بهذا الإنجاز الكبير وكان ذلك سنة /٩٣٤هـ/١٥١٨م/[٦].

وبعد استشهاد الريس عروج[٧] جرى الاتفاق على تسليم القيادة من بعده إلى أخيه الريس خضر[٨] سنة /٩٢٤هـ/ ١٥١٨م/ وقد كان الريس خضر(كان يدعى خير الدين باربروس أي ذو اللحية الحمراء)[٩] حزيناً جداً لمقتل أخيه[١٠]، بالإضافة إلى أن موقفه غدا في غاية الحرج إبان استشهاد عروج نتيجة لعداء سلطان تونس الحفصي له، ووقوف الإسبان ضده، وعداء بني زيدان له أيضاً في تلمسان، عندها شعر خيرالدين بابروس بضعف موقفه العسكري والسياسي[١١]، ورأى أنه أصبح بحاجة إلى دولة قوية[١٢] تمتلك إمكانات عسكرية ومادية

١- نوار ، مرجع سابق، ص٦٧.

٢ - كلو، مرجع سابق، ص١٣١.

٣ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس، ص٢٦.

٤ - حسون ، مرجع سابق، ص٦٥.

٥ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٢٧.

٦ - بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٥٣.

٧ - فواز، مرجع سابق، ص١٠٧.

٨ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٩٣.

٩ - فريد بك، مصدرسابق، ص٢٣٠.

١٠ - التر، مرجع سابق، ج١، ص٧٠.

١١ - طقوش، مرجع سابق، ص٢١٩.

١٢ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس) ، ص٣٤.

ضخمة لكي تسانده وتقوم بحمايته، وهذه الدولة كانت الدولة العثمانية الفتية والقوية التي سطع نجمها آنذاك[1].

فما كان من خيرالدين باربروس سوى أن أرسل رسالة إلى السلطان سليم سلطان الدولة العثمانية يعرض عليه خضوعه وتبعيته، وطالباً منه العون والمساعدة، وقد جاءه الرد بالقبول من قبل السلطان سليم الذي أبدى استعداده باسم الدولة العثمانية لتقديم المساعدة لمسلمي المغرب العربي[2]، وبالفعل زودته الدولة العثمانية بالرجال والعتاد[3].

ومنذ ذلك الوقت بدأ تاريخ هذا الرجل يبرزكقائد كبيرمن قواد الدولة العثمانية في البحرالمتوسط[4]، وأصبح لقبه خيرالدين بك، وفي سنة /٩٢٦هـ/١٥٢٠م/ توفي السلطان سليم، وخلفه ابنه سليمان في الحكم، وقد سلك السلطان سليمان طريق والده في الحكم وذلك بالسعي في الحفاظ على الولايات التي كانت خاضعة للدولة العثمانية[5]، أما بالنسبة لخيرالدين باربروس الذي كان قد أعلن ولاءه للدولة العثمانية، فقد ذهب إلى استنبول وقابل السلطان سليمان القانوني وذلك سنة/٩٣٩هـ/١٥٣٣م/، وقد منحه السلطان سليمان بدوره لقب قبودان[6](أي أميرالجزائر)[7]، ولما عاد إلى الجزائر ولتأكيد دعمه للدولة العثمانية، صك خيرالدين باربروس نقوداً باسم السلطان العثماني[8]، على الرغم أن خيرالدين لم يكن يشعر بالاطمئنان آنذاك، إذ كان يخشى قيام تمرد أو عصيان ضده[9]، وبالفعل تحقق ما كان يخشاه، إذ اتفق عدد من البحارة مع القبائل المجاورة لضرب العثمانيين وطردهم من أراضيهم، فدخلوا خفية إلى مدينة الجزائر، وهم يحملون الأسلحة، واتجه قسم منهم نحو الساحل حيث كانت ترسو سفن العثمانيين، إذ كانت الخطة تقوم على أن يتم إشعال النار فيها، وعندما يرى

---

١ – كلو، مرجع سابق، ص١٣١.

٢ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٩٣.

٣ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص ٣٦.

٤ – طقوش، مرجع سابق، ص٢١٩.

٥ – التر، مرجع سابق، ج١، ص٧٤.

٦ – عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص٩٣.

٧ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٤٥.

7-Colin Imber,The Ottoman Empire 1300-1650,new yourk,2002,p101 .

٩ – بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٥٣.

البحارة العثمانيون أن النيران قد اشتعلت في سفنهم سيتجهون لإطفائها، عندها يقوم المتمردون بإغلاق أبواب المدينة في وجوه العثمانيين، ويقومون بعدها بقتل ما تبقى منهم داخل المدينة(١).

المدينة(١).

ولكن خطتهم باءت بالفشل، بسبب وجود الجواسيس الذين عملوا لصالح خيرالدين باربروس، فنقلوا إليه كل المعلومات حول تلك الخطة الرامية إلى القضاء على العثمانيين، فما كان من خيرالدين إلا أن ألقى القبض على هؤلاء الخونة وقتلهم، ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك أي بادرة للقيام بأي تمرد أوعصيان ضد العثمانيين(٢).

وبعد تمركز قوات خيرالدين في الجزائر، أدرك خير الدين آنذاك أن هناك خطراً يجب مواجهته في تونس وتلمسان*، وأنه لابد من إنهاء هذا الخطر الذي كان متمثلاً بسلطان تونس الحفصي الذي كان غاضباً من خيرالدين باربروس حيث عدّه مغتصباً لأراضيه، وبدوره دفعه إلى تنفيذ مخططه الرامي للسيطرة على كل الجزائرالتي كانت سابقاً مرتبطة بتونس، وأن يقوم بطرد خيرالدين باربروس منها(٣).

لذلك رأى خيرالدين باربروس أنه ربما بتسليم قيادة القبائل المحلية لزعماء محليين قد تؤول الأمور إلى الهدوء والاستقرار، ولذا باشر خيرالدين باربروس بتسليم قيادة نصف البلاد تقريباً إلى أحمد بن القاضي، معتقداً أن هذا الشخص قد يساعده على ضبط أمورالبلاد، ولكنه لم يكن يعلم أن أحمد بن قاضي كان قد اتفق مسبقاً مع سلطان تونس ومجموعة من القبائل للتحرك ضد خيرالدين باربروس بعد أن دعمهم بالسلاح، ثم اتجه مع الجيش التونسي نحو الجزائر(٤)، مما أدى إلى تمرد القبائل المجاورة للجزائر، وهذا ما أجبر خيرالدين باربروس إلى أن يقوم بوضع حد لهذه القبائل المتمردة، وقد استمرت عملية ضبط هذه القبائل وإنهاء

---

1 – Yavuz bahadir oglu, KAUNAK GEÇEN,s133.

٢ – التر، مرجع سابق، ج١،ص٧٠.

* تلمسان، مدينة تقع في وسط المغرب، يحدها من الشمال سهل يدعى هنايا، أما من الطرف الجنوبي فتحيط بها جبال ذات صخور حمراء، تشكل لها حصناً منيعاً ضد الغزاة، وكانت تعد تلمسان مركز المغرب الرئيسي قبل إستيلاء الإسبان عليها. عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٢٥.

٣ – عامر، المرجع السابق ، ص٣٧.

٤ – التر، المرجع السابق، ج١، ص٨٠.

التمردات حوالي ستة أشهر، عندها انسحب أحمد بن قاضي بعد أن عقد صلحاً مع خيرالدين باربروس[١].

وبعد انتهاء خيرالدين باربروس من مهاجمة القبائل المتمردة، قررالتوجه نحو تونس ووضع حد لحكامها المتمردين[٢]، وما إن اشتبك مع القوات التونسية حتى أعلن أحمد بن قاضي عصيانه مرة أخرى على خيرالدين باربروس وانقلب عليه، مما أدى إلى تعرضه لهزيمة كبيرة سواء كان بالسلاح أو بالجنود، حيث وجد نفسه محاصراً من كل الجهات بالأعداء، فمن جهة توجد القبائل التي تمردت ضده مرة أخرى، ومن جهة أخرى بدأت بالظهور بوادر تحالف إسباني تونسي ضد العثمانيين، كما فُرِضَ حصار شديد على الجزائر[٣]، كل هذا أدى إلى وقوع خيرالدين باربروس في أزمة كبيرة.

نتيجة كل ما ذكر سابقاً وجد خيرالدين باربروس نفسه قد فقد السيطرة على مدينة الجزائر، ومما زاد الطين بلة أن المؤن والعتاد بدأت تنفذ منه، لذلك قرر الانسحاب من مدينة الجزائر بعدما تنكر الأهالي له، ولكنه تخوف من أن تتحالف القبائل ضده وتقوم بهجوم عليه، لذلك ادّعى أنه سلم إدارة البلاد إلى رجل يدعى قره حسن، وبسرعة كبيرة دخل إلى قصره وأخذ أمواله وأغراضه ووضعها بسفنه[٤]، وقبل مغادرته للبلاد أشارعلى الأعيان والأشراف أن يقيموا صلحاً مع حاكم تونس والخونة الذين لا عهد لهم، ثم ألقى بمفاتيح القلعة بعد أن قال لهم: (لتكن أهالي الإسلام وديارهم أمانة في أعناقكم) ثم عاد خيرالدين باربروس إلى جيجل التي كانت تعاني من قحط شديد [٥].

---

1 – Miriam Greenblatt, Suleyman The Magnificent and The Ottoman Empire, new York,2003, p145.

٢ – حسون، مرجع سابق، ص٦٥.

٣ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٣٨.

٤ – الثر، مرجع سابق، ج١، ص٨٠.

٥ – الثر، المرجع نفسه، ج١،ص٨١.

مما جعله يخرج بسفنه نحو السواحل الأوروبية وبعد قيامه بعدة غزوات [١]، عاد إلى جيجل محملاً بالقمح والتي وزعها على الأهالي، ولكن يبدو أن خيرالدين باربروس وجد نفسه قد عاد إلى وضعه القديم الذي كان عليه سنة /٩٢١هـ/١٥١٤م/، وهذا الوضع يتطلب منه جهداً مضاعفاً لينهض بالمدينة ويقوم بتطويرها.

وبالفعل قام مباشرة بإنشاء قاعدة له في جيجل، وقد أصبحت هذه القاعدة مركزاً رئيسياً لسفنه، كما أنشأ داراً لصناعة السفن، وبعد أن نجح بإنشاء سفينة ذات سبعة وعشرين مقعداً من نوع يدعى باشتارده*[٢]، خرج للغزو مرّة أخرى حيث نجح بالاستيلاء على عدة سفن لسلطان تونس وقام بإحراقها، ثم تابع مسيره نحو جنوة وهناك استولى على ست سفن محملة بالقمح، ثم نجح بتوسيع أسطوله فضم إليه مجموعة من قادة الأساطيل البحرية، فكون بذلك أسطولاً مكوناً من أربعين سفينة حربية، وبدأ بمهاجمة السواحل التونسية مرة أخرى، عندها شعر سلطان تونس أن الأمور بدأت تزداد سوءاً بالنسبة إليه وأنه لابد من أن يتفادى المواجهة مع خيرالدين باربروس، فما كان منه سوى أن عرض عليه المصالحة، ولكن الريس خيرالدين باربروس رفض وأصر على المواجهة[٣].

وجدير بالذكرأن خيرالدين باربروس قد نجح خلال خمس سنوات أي بين عامي/٩٢٧-٩٣٢هـ/١٥٢٠-١٥٢٥م/من أن يستعيد قوته القديمة، مع العلم أن الدولة العثمانية لم تقدم له أي مساعدة تذكر سواء كانت مادية أو معنوية في ذلك الحين[٤]، وربما المبرر الوحيد لعدم تقديم المساعدة من قبل الدولة العثمانية، هوانشغال السلطان سليمان القانوني في بداية حكمه بإخماد الثورات التي قامت ضده، فضلاً عن انشغاله أيضاً بالحملات العسكرية التي قادها ضد أوروبة آنذاك.

---

١ - بروكلمان، مرجع سابق، ص٤٥٤.

* باشتارده، وهي سفينة قوية وأكثر تسليحاً من غيرها من السفن، تحتوي على ٢٣-٢٦ مقعداً مزدوجة التجديف، يعمل على المجداف الواحد من ٥-٧ أشخاص، وهي على نوعين ١- باشتارده ٢- ونصف باشتارده .Medhat Sert Oglu, KAUNAK GEÇEN,s34 .

٢ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص٣٩.

٣ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٣٩.

٤ - التر، مرجع سابق، ج١، ص٨٢.

أما بالنسبة لسكان الجزائر فقد ازدادت أوضاعهم سوءاً بعد إنسحاب خيرالدين باربروس، وبدؤوا يسعون للاتصال به بغية الإتفاق معه، هذا وقد ازدادت كراهية السكان اتجاه أحمد بن القاضي، وفي الوقت ذاته كان الإسبان يلاحقون المسلمين ويقومون بطردهم من البلاد[1] ، فما كان من العثمانيين سوى أن يقدموا المساعدة لمسلمي الأندلس وذلك بنقلهم إلى مدينة الجزائر والسواحل الإفريقية الأخرى، ولكن أحمد بن قاضي رفض استقبال هؤلاء المهجرين المسلمين، مما جعل خيرالدين باربروس يستغل هذه الفرصة ليعلن الحرب عليه بعد أن عدةّ خارج عن الدين الإسلامي، ولكن قبل أن تتم المواجهة بين الطرفين ذهب خيرالدين باربروس إلى قبيلة بن العباس لكسب دعمها كما تم الاتفاق مع سلطانها، وكان ذلك سنة/٩٣١هـ/١٥٢٥م/، وقد عتدت هذه الخطوة ناجحة للريس خيرالدين باربروس، لأنها المرة الأولى التي توجه فيها إلى منطقة القبائل وحقق هذا الانتصار[2].

وبالفعل تمت المواجهة بين أحمد بن قاضي وخيرالدين باربروس في وادي يدعى بوقدوره، وخلال ساعات قليلة هزم أحمد بن قاضي، الذي هرب بدوره إلى جبل عائشة، ثم أعلن عساكره تمردهم عليه، ثم مالبثوا أن قتلوه، ثم أعلنوا انصياعهم للريس خيرالدين باربروس[3]، وبذلك أصبحت أبواب الجزائر مفتوحة أمام الريس خيرالدين باربروس[4]، حيث وصلها كبطل كبير سنة/٩٣١هـ/١٥٢٥م/[5].

وفور دخوله حاول خيرالدين باربروس أن يقوم بضبط أمورالبلاد وإصلاح شؤونها، فنجح بالقضاء على كل المتمردين، كما حاول أن يطهِّر البلاد من قطاع الطرق والعصاة، فقام بقتل حكام تنس وشرشال، وفرض سيطرته على الساحل الممتد من جيجل حتى وهران[6].

1 -Patrick Kinross, The Ottoman Centuries(the rise and fall of the Turkish empire),new York.p 55.

٢ - التر، مرجع سابق، ج١،ص٨٤.

٣ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٤٠.

٤ - اندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ت: لطيف فرج، القاهرة، دار الفكر للدراسات، ط١٩٩١،١م، ص٢١.

٥ - أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٦.

٦ - التر، المرجع السابق، ج١، ص٨٥.

وبعد أن نجح خيرالدين بإخضاع المدينة للنظام، رأى أن الوقت قد حان لطرد الإسبان من قلعة بينون والسيطرة عليها، لضمان سلامة سفنه وميناء الجزائر من أي خطر[١]، فما كان منه إلا أن أرسل سنة/٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م/ خطاباً إلى دون مارتن دي فرغاس قائد قلعة بينون، يطالبه بمغادرة القلعة فوراً، ولكن قائد القلعة رفض طلبه رفضاً باتاً، فما كان من خيرالدين باربروس إلا أن وجه مدافعه نحو القلعة، وقام بقصفها لمدة عشرين يوماً[٢]، وكنتيجة قوة القصف وشدته، استطاع أن يفتح ثغرة في جدارالقلعة، مما سهل على قوات خيرالدين باربروس دخول القلعة[٣]، عندها لم يجد قائد القلعة دون مارتن من حل أمامه سوى أن يقاتل بنفسه خصوصاً بعد انهيار معنويات جنوده[٤]، وعلى الرغم من هذا الدفاع المستميت من قبل قائد القلعة إلا أن خيرالدين وجنوده تمكنوا من تدميرالقلعة، وإحكام السيطرة عليها، وأسروا الإسبان الموجودين فيها[٥].

وقد استفاد خيرالدين باربروس من هؤلاء الأسرى، الذين قاموا بنقل أنقاض القلعة إلى البحر، فوصلوا القلعة بالساحل، وقاموا بإنشاء رصيف لحماية الميناء من الرياح الشمالية والشمالية الغربية، ثم قاموا بتحويل القلعة إلى برجٍ دائري الشكل، ليصبح بذلك ميناء الجزائر في غاية الجمال، ومنذ ذلك الوقت تأسس أوجاق الجزائر، واستمرالأمر حتى/١٢٤٦هـ/١٨٣٠م/[٦].

أما بالنسبة لإسبانيا فيبدو أنها لم تعترف بانضمام الجزائر للدولة العثمانية، وهذا ما أدى إلى الحرب بين الطرفين التي أخذت فيما بعد طابعاً أكثرعنفاً في البحر، حيث حاولت إسبانيا عدة مرات الاستيلاء على الجزائر، وكانت آخر محاولة جدية لها للاستيلاء على الجزائر سنة /٩٥٨هـ/١٥٥١م/ فأنزلت قواتها على الساحل ولكنها لم تتمكن من تحقيق هدفها[٧]، لتكون

١- أوزتونا، مرجع سابق، ج١،ص٢٥٦.

2 – Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN ,s180

٣ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٩٣.

٤ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٤١.

٥ – أوزتونا، المرجع السابق،ج١، ص٢٥٦.

٦ – التر، مرجع سابق، ج١،ص٨٧.

٧ – طقوش، مرجع سابق، ص٢٢٠.

هذه آخر حملة جدية يقوم بها الإسبان بهدف الاستيلاء على الجزائر، ويبدو أن إسبانيا قد اضطرت بعدها أن تتقبل فكرة أنها فقدت الجزائر للأبد.

إذاً يمكن القول إن الريس خيرالدين باربروس قد نجح في جعل الجزائر تابعة ولو اسمياً للدولة العثمانية، بعد أن طبق فيها نظماً إدارية متنوعة بهدف تنظيم شؤونها الداخلية، بالإضافة إلى ذلك يمكن عدّ زيارة خيرالدين باربروس للسلطان سليمان القانوني/٩٣٩هـ/١٥٣٣م/ ومنحه هذا الأخير الريس خيرالدين باربروس حكم الجزائر، هو العام الذي تم فيه ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية[١].

ب-تصدي السلطان سليمان القانوني لحملة شارلكان على تونس/٩٤١هـ/١٥٣٤م/:

لقد اتخذ الصراع في غربي البحر المتوسط بين الدولة العثمانية من جهة وإسبانيا من جهة أخرى، أوائل القرن السادس عشر، طابعاً حاداً، وقد تركز بشكل أساسي في تونس وطرابلس الغرب[٢]، وفي الواقع كان الوضع في تونس يختلف عما هو عليه في الجزائر، على الرغم من أن أحداث دخول تونس والجزائر في ظل السيادة العثمانية كانت تتشابه نوعاً ما، إذ إن كلاً من تونس وطرابلس الغرب كانتا جزءاً من الدولة الحفصية التي كانت آخذة بالإنهيار في مطلع القرن السادس عشر، إذ غدا الجيش الحفصي آنذاك عاجزاً عن مواجهة الأساطيل الإسبانية الإيطالية، ولم يعد قادراً على الصمود أمام القراصنة الأوروبيين الذين كانوا يدمرون بشكل دائم شواطئ المغرب الشرقية[٣].

وحدث بعد ذلك أن اعتلى الحسن الحفصي عرش تونس في عام /٩٣٢هـ/١٥٢٦م/ بعد أن قتل إخوته، ثم استأثر بالحكم لنفسه، ولكن دون أن يكون هناك أي اهتمام بتطوير دولته أو النهوض بها[٤]، حينها أدرك خيرالدين باربروس أن مهمة طرد الإسبان من مناطق شمال

---

١ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر وتونس)، ص٤٤.

2 – Patrick Kinross,OP.cit, p84.

٣ – طقوش، مرجع سابق،ص٢٢٠.

٤ – كلو، مرجع سابق، ص١٣٣.

إفريقية واقفة عليه، وخاصة بعدما شعر بخيانة الأسرة الحفصية التي كانت تساعد الإمبراطورشارل الخامس(شارلكان) وتسعى إلى طرد العثمانيين من البلاد[1]، ولكن في الوقت ذاته كان خير الدين باربروس على يقينٍ تام أن الدولة العثمانية لن تتمكن من تقديم الدعم الكافي له[2]، بسبب انشغالها بحروبها في رودس والمجر والتي استنزفت منها طاقاتها وإمكاناتها[3]، عندها لم يجد أمامه سوى أن يلجأ إلى الذكاء حيناً وإلى سياسة القوة حيناً أخرى.

وبالمقابل ولكي لا تبقى الدولة العثمانية بمعزل عن الأحداث التي تدور في شمال إفريقية، بادرالسلطان سليمان القانوني إلى توقيع إتفاقية مع فرنسا ليضمن وقوفها إلى جانبه في وقت كانت فيه الدول الأوروبية تتنافس للسيطرة على شمال إفريقية، كما رغب السلطان سليمان في أن يقوم بتخفيف الضغط على خيرالدين باربروس، الذي أصبح سنداً قوياً لدولته[4]، هذا بالإضافة إلى أنه صارعلى قناعة تامة من أنه لابد من السيطرة على تونس ذات الموقع الجغرافي المتميز لوقوعها في منتصف الساحل الشمالي لإفريقية، ووقوعها بين كل من طرابلس الغرب والجزائر، ولقربها من إيطاليا[5]، ولمجاورتها جزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء شارل الخامس(شارلكان)[6]، ولأن موانئ تونس ستوفر له إمكانات ضخمة ضخمة عن طريق التحكم بالمواصلات البحرية في البحر الأبيض المتوسط ، كما ستضمن له تثبيت الأمن والإستقرار في مصر[7].

فما كان من خيرالدين باربروس سوى أن قام بإعداد الأسطول بشكل جيد، بعد أن زوده السلطان سليمان القانوني بثمانية آلاف جندي[8]، ثم توجه للسيطرة على تونس وطرد الإسبان

---

١ – التر، مرجع سابق، ج١،ص١٠٩.

٢ – عامر، تاريخ المغرب الحديث(الجزائر وتونس)، ص٢٤.

3 burak sansal,Impero ottoman, all about turkey, 2010,s 2.

٤ – التر، المرجع السابق، ج١،ص١٠٩.

٥ – طقوش، مرجع سابق،ص٢٢١.

6 burak sansal, –Impero ottoman, all about turkey, 2010,s 2.

٧ – التر، المرجع السابق، ج١،ص١٠٩.

٨ – التر، المرجع نفسه، ج١،ص ١١٠.

منها، وذلك سنة /٩٤١هـ/١٥٣٤م/[١]، وجدير بالذكر أنه في العام ذاته كان السلطان سليمان القانوني يعبر الأناضول للهجوم على الدولة الصفوية[٢].

أما بالنسبة لخيرالدين باربروس فقد تمكن من السيطرة آنذاك على المناطق الشرقية والجنوبية في تونس، كما نجح بالاستيلاء على أربع وعشرين سفينة إسبانية[٣]، ثم استطاع أن يدخل مدينة تونس دون مقاومة[٤]، بعدما انسحب السلطان الحفصي إلى الجنوب أي إلى الصحراء وطلب المساعدة من الإسبان، خاصة بعد أن سمع أن أخاه رشيداً قادمُ لاستلام الحكم بدلاً عنه[٥]، ولكن عندما علم سكان تونس أن الرشيد لن يأتي وأنهم سيخضعون للحكم العثماني، تخوفوا كثيراً لأنهم اعتادوا على حكم الحفصيين* ويبدو أنهم فضلوا حكم الأسرة الحفصية على الدولة العثمانية، لذلك أرسلوا إلى حاكم تونس الحفصي مولاي حسن طالبين منه اللجوء إلى إحدى القبائل، ووعدوه بأنهم سيقومون بمساعدته للعودة إلى سدة الحكم[٦]، وهذا ما شجع مولاي حسن بدوره للتوجه نحو تونس ومهاجمتها، ولكن بعد قتال قصير ذهب ضحيته حوالي ثلاثمائة من جنوده، انسحب مولاي حسن نحو القيروان وهناك استطاع أن يجمع عدد لابأس به من الرجال الذين وقفوا إلى جانبه وآزروه[٧].

وما أن علم خيرالدين باربروس بذلك حتى توجه إلى القيروان لملاقاته، فتمت هذه المواجهة العسكرية في الصحراء، وما إن انطلقت نيران مدافع خيرالدين باربروس حتى هرب

---

١ – نوار، مرجع سابق، ص٦٨ .

٢ – الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"،ص١٣٥.

٣ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٩١.

٤ – آصاف، مصدر سابق، ص٦٤.

٥ – أوزتونا، المرجع السابق، ج١،ص٢٩١.

* الحفصيون، أولهم أبومحمد بن عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص ولي إمارة تونس في/١٠شوال٦٠٣هـ/ وتوفي سنة ٦١٨هـ خلفه ابنه زكريا يحيى، وفي سنة ٦٤٧هـ تسلم الحكم أبو عبد الله محمد ولقب بالمنصر ودعي بأمير المؤمنين واستمرت هذه العائلة مالكة على إقليم تونس إلى أن دخلها العثمانيون. فريد بك، مصدر سابق، ص٢٣٢.

٦ – عامر، تاريخ المغرب الحديث(الجزائر وتونس)،ص ٤٣.

٧- التر، مرجع سابق، ج١،ص١١٣.

مولاي حسن مرة أخرى، ولكنه لجأ هذه المرة إلى الإسبان[١]، إلا أن إسبانيا آنذاك لم تعر أهمية كبيرة لاستيلاء العثمانيين على مناطق متعددة من تونس، إلا أن الوضع كان مختلف فيما يخص مدينة تونس نفسها، فقد كانت لها أهمية كبيرة بالنسبة إليها، كون أنها كانت تواجه جزيرة صقلية[٢].

أما بالنسبة للسلطان سليمان القانوني الذي كان يخوض غمار الحرب مع الصفويين، فقد كانت تصله كل أخبار وإنجازات الريس خيرالدين باربروس[٣]، في الوقت الذي كان فيه البابا يحاول أن يستغل فرصة انشغال السلطان سليمان بحروبه الخارجية[٤]، وذلك لتحريض الإمبراطورشارل الخامس(شارلكان) لاغتنام تلك الفرصة الذهبية من أجل إعادة السيطرة على تونس والجزائر، موضحاً له أن وجود العثمانيين في الجزائر سيؤثر على نشاطهم الاقتصادي والسياسي، كما بين له أن دخول العثمانيين إلى تونس يشكل ضرراً كبيراً بالمسيحيين عامة وإسبانيا خاصة، عندها تبنى الإمبراطور شارل الخامس(شارلكان) مهمة الدفاع عن السلطان الحفصي باعتباره السلطان الشرعي للبلاد، ضد الدولة العثمانية المغتصبة بنظره[٥]، لينتقل بذلك العداء الذي كان بين الإسبان والجزائريين في الشمال الإفريقي[٦] إلى السلطان سليمان القانوني والإمبراطورشارل الخامس(شارلكان)[٧]، كل هذه التهديدات دفعت بالإمبراطورشارل الخامس (شارلكان) في أن يقوم بنفسه بالإعداد للحملة، خاصة أنه تلقى مساعدات من ملك البرتغال ومن إيطاليا[٨]، ومن فرسان القديس يوحنا، وبالفعل استطاع شارل الخامس(شارلكان) الخامس(شارلكان) أن يقوم بإعداد جيشٍ وأسطولٍ ضخمٍ، يحسب له ألف حساب[٩].

---

١ - عامر، تاريخ المغرب الحديث(الجزائر وتونس)، ص٤٣.

٢ - أوزتونا، مرجع سابق، ج١،ص٢٩١.

٣ - فريد بك، مصدر سابق،ص٢٢٢.

4 - Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN,s130

٥ - أوزتونا، المرجع السابق، ج١،ص ٢٩٢.

٦ - التر، مرجع سابق، ج١، ص١١٣.

7 - Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN,s132.

٨ - كلو، مرجع سابق، ص١٣٤.

٩ - التر، المرجع السابق، ج١،ص١١٤.

وقرر أن يقود هذا الجيش بنفسه[1]، كما عين أندريا دوريا القائد الإسباني البحري الشهير والدوق ألب كمساعدين له في تلك الحملة[2]، وفي سنة /٩٤١هـ/١٥٣٥م/ انطلق الأسطول من مدينة برشلونة* ورسا بالقرب من حلق الواد*[3]، وقد كان اللواء سنان رئيس يقوم بحماية بحماية قلعة حلق الواد، أما خيرالدين باربروس فكان متواجداً في مدينة تونس ومعه حوالي اثني عشر ألف جندي[4].

وأثناء وجوده في تونس قام بترميم أسوار القلعة وأقام التحصينات الضرورية إستعداداً لمثل هذا اليوم[5]، وبالفعل جرى القتال بداية في حلق الواد[6]، والتي تعرضت لقصف شديد من قبل المدافع البحرية التابعة لأسطول أندريا دوريا فكانت النتيجة سقوط حلق الواد بيد الإسبان[7]، وهذا ما عرّض خيرالدين باربروس إلى خطر كبير، عندئذ أمر الإمبراطور شارل الخامس(شارلكان) بالزحف نحو مدينة تونس التي عمت فيها الفوضى والرعب الشديد، على الرغم من محاولات خيرالدين باربروس من ضبط الأمور، إلا أنه لم يتمكن من ذلك[8]، فما كان منه سوى الانسحاب أمام تقدم القوات الإسبانية، وذلك لعدم التكافؤ بين الطرفين سواء كان بعدد الجنود أو من حيث الأسلحة[9] ، وإبان دخول الإسبان لتونس[10] ،

---

١ – أرسلان، مصدر سابق،ص١٥٦.

٢ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر – تونس)، ص١٤٢.

*برشلونة، تقع في الشمال الشرقي لشبه جزيرة إسبانيا على شاطئ البحر المتوسط. فريد بك، مصدر سابق، ص٢٣٣.

*حلق الواد هو ميناء العاصمة تونس. فريد بك، المصدر نفسه، ص٢٣٣.

٣ – التر، مرجع سابق، ج١،ص١١٤.

٤ – أوزتونا، مرجع سابق، ج١،ص ٢٩٢.

٥ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر – تونس)، ص١٤٣.

٦ – كلو، مرجع سابق، ص١٣٤.

٧ – أوزتونا، المرجع السابق، ج١،ص٢٩٢.

٨ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر – تونس)، ص١٤٣.

٩ – أوزتونا، المرجع السابق، ج١،ص٢٩٣.

١٠ – ياغي، مرجع سابق، ص٦٧.

ونجاحهم بالاستيلاءعليها/٩٤٢هـ/١٥٣٥م/[١]، استباحوها لأنفسهم فقاموا بأعمال السلب والنهب[٢]، وقتلوا الكثير من سكان المدينة[٣]، وقد عرف الإسبان بوحشيتهم وبطشهم، هذا بالإضافة إلى أنهم قاموا بهدم المساجد وأحرقوا الكثيرمن الكتب القيمة[٤]، فأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بالقتلى من الشيوخ والأطفال والنساء[٥].

وعلى الرغم من كل هذه الجرائم التي ارتكبها الإسبان بحق سكان تونس، قدم السلطان حسن الحفصي إلى الإمبراطورشارل الخامس (شارلكان) ثم جثا أمامه على قدميه وهو يقدم له فروض الطاعة[٦]، ثم قام بتوقيع معاهدة مع الإمبراطور الإسباني[٧]، وكانت هذه المعاهدة تتضمن مايلي:

١- إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في تونس[٨].
٢- السماح للمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية[٩].
٣- تسليم المدن التي كانت بحوزة خيرالدين باربروس إلى الإمبراطور شارل الخامس(شارلكان) مباشرة مثل(بنزرت* – حلق الواد)[١٠].
٤- يتوجب على السلطان حسن أن يقوم بتقديم اثني عشر حصاناً واثني عشر مهراً سنوياً للإمبراطور[١١].

---

١ – اينالجيك، مرجع سابق،ص٥٩.
٢ – الثر، مرجع سابق، ج١،ص١١٨.
٣ – كلو، مرجع سابق،ص١٣٤.
٤ – حسون، مرجع سابق، ص٦٦.
٥ – الثر، المرجع السابق، ج١،ص١١٨.
٦ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٢٩٣.
٧ – طقوش، مرجع سابق،ص٢٢٢.
٨ – الثر، المرجع السابق، ج١، ص١١٨.
٩ – حسون، المرجع السابق، ص٦٦.
١٠ – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر – تونس)، ص١٤٦.
* بنزرت، تقع شمال تونس، وهي ميناء حربي. فريد بك، مصدر سابق،ص ٢٣٣..
١١ – فريد بك، المصدر السابق، ص٢٣٣.

٥- كما يتوجب على السلطان حسن أن يسدد حوالي اثني عشر ألف دوقة* سنوياً، للإنفاق على الجنود الإسبان في حلق الواد.

٦- إبقاء عشرة آلاف جندي إسباني وعشرة سفن حربية في تونس بشكل دائم(١).

٧- إذا نقض السلطان حسن إحدى هذه الشروط، فسيغرم بدفع خمسين ألف دوقة، وفي المرة الثانية مئة ألف دوقة، أما المرة الثالثة فسيتم أخذ البلاد منه(٢).

إبان توقيع هذه المعاهدة، تعهد مولاي حسن بالالتزام بشروطها وتنفيذها، وبعد أن إطمأن الإمبراطورشارل الخامس(شارلكان) على سلامة الأوضاع في تونس، عاد إلى بلاده وسط استقبال كبير من قبل شعبه، كما وصلته المباركات من قبل البابا على انتصاراته ولإعادته تونس إلى سيطرتهم(٣).

ولكن يبدو أن الحكم الإسباني بزعامة مولاي حسن، كان قد أثبت فشله على كافة الأصعدة(٤)، فمارس مولاي حسن الظلم والتعدي على الأهالي، وأرهقهم بالضرائب الكثيرة التي فرضها عليهم، الأمر الذي جعل السكان يلتفون حول ابنه حميدة(٥) الذي استطاع أن يدخل يدخل مدينة تونس وينتزعها من والده، على الرغم من محاولة مولاي حسن استعادة مدينة تونس من ابنه، لكنه لم يتمكن من ذلك على الرغم من المساعدة التي قدمها له الإمبراطور شارل الخامس(شارلكان)(٦)، لينتهي أمر مولاي حسن على يد ابنه حميدة الذي فقأ عينيه، فما كان منه سوى الهرب، ثم اللجوء إلى الإمبراطور شارل الخامس(شارلكان) الذي أرسله بدوره إلى إيطاليا ليقضي ما تبقى من عمره فيها(٧).

---

* دوقة، وهي عملة فلورنسية(نسبة إلى مدينة فلورنسة) وهي تعادل درهمين عثمانيين. التر، مرجع سابق،ج١، ص١١٩.

١ - أوزتونا، مرجع سابق،ج١،ص٢٩٤.

٢ - التر، مرجع سابق، ج١،ص ١٢٠.

٣ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر و تونس)، ص ١٤٧.

٤ - طقوش، مرجع سابق،ص٢٢٢.

٥ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر و تونس)، ص ١٤٧.

٦ - التر، المرجع السابق، ج١،ص ٢٢٧-٢٢٨.

٧ - أوزتونا، المرجع السابق، ج١،ص٢٩٤.

بعد فشل الحكم الإسباني في تونس أعقبه فشل آخر، تمثل بالأسرة الحفصية أيضاً إذ تبين أن حميدة كان كوالده يمارس الظلم والتعدي على السكان، كما كان يعمل أيضاً لصالح الإسبان، مما أدى إلى ظهور معارضة شعبية جديدة ضد هذا الوضع القائم، فنظمت العديد من الثورات ضد الحكم الإسباني وبمساعدة عثمانية ولكن دون جدوى، وبالمقابل أدركت القوات الإسبانية صعوبة موقفها وطالبت بالمزيد من الإمدادات والمساعدات لمواجهة هذه الفوضى، ولكن يبدو أن هذه المبادرة فشلت أيضاً[١].

أما بالنسبة للشعب التونسي فقد رأى أن خلاصه سيكون على يد القوات العثمانية التي كانت متواجدة في الجزائر آنذاك بقيادة خيرالدين باربروس، إلا أن خير الدين باربروس لم يتمكن من إنقاذهم نتيجة تدخل شارل الخامس(شارلكان)[٢]، فما كان منهم سوى أن لجؤوا إلى الحل الأخير، حيث قاموا بتشكيل لجنة تونسية مصغرة لمقابلة السلطان سليمان القانوني وطلب المساعدة منه، وكان ذلك سنة /٩٧١هـ/١٥٦٣م/ على أمل أن يكون منقذهم من هذا الوضع المتردي الذي كان مفروضاً عليهم سواء كان من الإسبان أو من الأسرة الحفصية[٣].

وبهذا يمكن القول إن الأوضاع في تونس كانت قلقة طيلة عهد السلطان سليمان القانوني، وكانت تونس عبارة عن قصب سباق بين العثمانيين والإسبان ولكن كانت الغلبة في النهاية للعثمانيين[٤].

ج- السيطرة العثمانية على طرابلس الغرب/٩٥٨هـ/١٥٥١م/:

لقد برزت القوة الإسبانية بشكل قوي على الساحة الدولية في القرن الخامس عشر، خاصة بعد أن تبلورت الوحدة الإسبانية بزواج كل من فرديناند ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة، واللذين كانا يتطلعان إلى التوسع الخارجي لتحقيق أهدافهما المتمثلة بالقضاء على

١ - طقوش، مرجع سابق، ص٢٢٣.

٢ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر و تونس)، ص١٤٨.

٣ - التر، مرجع سابق،ج١، ص٢٢٨.

٤ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٩٤.

المسلمين والسيطرة على شمال إفريقية، والذي شجعهما على ذلك اضطراب الأوضاع الداخلية في تلك المناطق[1].

وبالفعل نجحت إسبانيا باحتلال طرابلس الغرب، وذلك سنة /٩١٦هـ/١٥١٠م/ بعد أن انتزعتها من أيدي الأسرة الحفصية[2]، وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي واجهت القوات الإسبانية، إلا أنها استمرت في تواجدها في طرابلس الغرب، وفي ظل الظروف التي كانت قائمة آنذاك، والتي كانت متمثلة ببروز الدولة العثمانية كحامية للمسلمين، ووجودها في شمال إفريقية والذي كان متمثلاً بخيرالدين باربروس أقلق إسبانيا نوعاً ما[3]، التي بدأت تخشى على رعاياها في المنطقة، ولذلك ولكي تضمن سلامتهم من جهة ولطرد هؤلاء العثمانيين من جهة أخرى، ولتخفيف الضغط أيضاً على قواتها المتواجدة في شمال إفريقية[4]، رحب الملك الإسباني بطلب فرسان القديس يوحنا باللجوء إلى طرابلس الغرب، بعد أن طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرتهم رودس، ولكنه اشترط عليهم أن يقوموا بمساعدته في قتال المسلمين[5].

وبعد موافقة الفرسان على شرط شارل الخامس (شارلكان)، نجح فرسان القديس يوحنا بالسيطرة على طرابلس الغرب/٩٣٦هـ/١٥٣٠م/[6]، واعتبروها مقرهم العسكري، أما جزيرة جزيرة مالطة فكانت تعدّ المقر الروحي لهذه المنظمة[7]، ومنذ ذلك الوقت انصرف فرسان القديس يوحنا إلى تثبيت وجودهم في طرابلس الغرب، وتنفيذ اتفاقهم المبرم مع الملك الإسباني والإمبراطور شارل الخامس(شارلكان) في قتال المسلمين[8].

---

١ – محمود علي عامر، محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث(المغرب الأقصى– ليبية)، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ١٩٩٩م،ص١٤٨.

٢ – حسون، مرجع سابق، ص٦٤.

3– Yavuz Bahadir Oglu , KAUNAK GEÇEN,S134.

٤ – عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى– ليبية)، ص١٥٤.

٥ – جودت، مصدر سابق، ج٥، ص٤١٧.

٦ – عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص٩٣.

٧ – عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى– ليبية)، ص١٥٣.

٨ – حرب، مرجع سابق، ص٩٩.

وفي الواقع حاول الفرسان في بداية الأمر إقامة علاقات ودية مع سلطان تونس مولاي حسن بغية التحالف معه، إلا أن ذلك لم ينجح نتيجة ضعف موقفه، فلجأ عندها فرسان القديس يوحنا إلى إقامة حكومة مسيحية متعصبة استهدفت القضاء على الإسلام والمسلمين، إلا أن مشروعهم هذا لم ينجح لأنهم اصطدموا بمقاومة إسلامية عنيفة من قبل السكان في طرابلس الغرب، فكانت ردة فعل الفرسان أعنف، إذ قاموا بتطبيق نظام الغرامات والرهائن مما أدى إلى زيادة نقمة الشعب على هؤلاء المحتلين وقرروا طردهم من البلاد[١].

إلا أنهم أدركوا أن إمكانياتهم العسكرية كانت ضعيفة أمام تلك القوة الصليبية المدعومة من قبل أقوى دولة أوروبية آنذاك وهي إسبانيا، ولذلك كان لابد من وجود قوة عسكرية واقتصادية معنوية داعمة تساندهم أمام هذا الخطر المحدق بهم.

فشكلوا وفداً صغيراً توجه سنة /٩٢٦هـ/١٥٣٦م/ إلى السلطان سليمان القانوني طالبين منه المساعدة[٢]، فأكرم السلطان سليمان الوفد ثم ردَّه إلى بلادهم برفقة جيش بقيادة مراد آغا لقتال فرسان القديس يوحنا[٣]، وبالفعل ما أن وصلوا إلى طرابلس الغرب حتى توجه مراد آغا آغا إلى قرية تاجوراء (شرقي مدينة طرابلس) ثم فرض حصاراً على طرابلس الغرب، ولكنه لم يتمكن من دخولها بسبب إمكاناته العسكرية القليلة[٤]، عندها لجأ سكان طرابلس الغرب(الليبيون) إلى تاجوراء خوفاً من بطش فرسان القديس يوحنا، وعندما أدركوا عجزهم عن مواجهتهم، لذا قرروا اللجوء مرة ثانية إلى السلطان سليمان القانوني لإطلاعه على ظروفهم السيئة التي كانوا يعيشونها[٥].

في تلك الأثناء كان مراد آغا قد نجح بتحصين تاجوراء، واتخذها مقراً لإمارته، كما أنه قام مع مجموعة من السكان المحليين بإعداد جيش صغير، يقوم بشن هجمات متعددة ضد

١ – طقوش، مرجع سابق، ص٢٢٤.
٢ – حسون، مرجع سابق،ص ٦٤.
٣ – عامر – فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى – ليبية)، ص١٦٠.
٤ – حسون، المرجع السابق، ص٦٤.
5– Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN,S145.

الفرسان[١]، واستطاع سنة/٩٥٠هـ/١٥٤٣م/ أن يضم مدينتي ترهونة ومسلاته وألحقها سنة/٩٥١هـ/١٥٤٤م/ بضم مدينتي غريان وبني الوليد[٢]، وكان في الوقت نفسه يُعلِم استنبول بأوضاعهم السيئة ويطالبهم بالإسراع في تقديم العون وإرسال الأساطيل، لأن الفرسان باتوا يسرفون بالقتل والتعذيب، فما كان من الريس طرغوت* سوى أن ذهب بنفسه لمقابلة السلطان سليمان لإطلاعه على الوضع في طرابلس الغرب، وعن جرائم فرسان القديس يوحنا، وليبين له أن المسلمين هناك ينتظرون دعمه وإنقاذهم من الاضطهاد والظلم المفروض عليهم[٣].

كما ذكَّره بمدى أهمية مناطق شمال إفريقية اقتصادياً وعسكرياً، ومدى الفائدة التي ستجنيها الدولة العثمانية في حال تمت السيطرة على طرابلس الغرب وغيرها من مناطق شمال إفريقية[٤].

من الواضح أن الريس طرغوت قد لجأ إلى أسلوب الترغيب على أمل أن يجذب السلطان سليمان القانوني ويدفعه إلى الإسراع في الدفاع عنهم، وهو أسلوب ذكي ينم عن نباهة هذا الشخص، كما يبين لنا اهتمامه الواضح في الدفاع عن سكان شمال إفريقية بشكل عام وطرابلس الغرب بشكل خاص.

وفي النهاية استجاب السلطان سليمان القانوني، لنداء الاستغاثة من قبل سكان طرابلس الغرب (الليبيين)[٥]، فأصدر السلطان سليمان أوامره إلى القبطان سنان باشا لكي يتم إعداد الأسطول والانطلاق نحو طرابلس الغرب لطرد فرسان القديس يوحنا منها[٦]، كما أوكل إلى

١ – أوزتونا، مرجع سابق،ج١، ص٣١١.

٢ – عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى- ليبية)، ص١٦٠.

* طورغودجه أو طورغود أو طرغوت هو من مشاهير قادة البحر العثمانيين، أصله من الأناضول، شارك في الكثير من المعارك البحرية، يعرف عند الأوروبيين باسم دارغوت، وقع أسيراً في إحدى المعرك البحرية التي كانت بين أندريا دوريا والريس خيرالدين باربروس، ثم تمكن الريس خير الدين من إنقاذه عندما أغار على مدينة جنوة سنة /٩٥٧هـ/١٥٥٠م/. سرهنك، مصدر سابق، ص٩٦.

3– İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI , KAUNAK GEÇEN, s450 .

٤ – كلو، مرجع سابق، ص٢٠٠.

٥ – طقوش، مرجع سابق، ص٢٤٢.

٦ – سرهنك، المصدر السابق، ص٩٦.

الريس طرغوت بقيادة بعض من السفن الأخرى[١]، وبالفعل انطلق الأسطول سنة/٩٥٨هـ/١٥٥١م/ إلى طرابلس الغرب[٢].

ولما علم فرسان القديس يوحنا بتلك الحملة الضخمة أصابهم الهلع والذعر[٣]، وفور وصوله قرر القبطان سنان أن يقوم باحتلال جزيرة مالطة، ولكنه ذهل عند وصوله من ضخامة حصونها ومتانتها، مما جعله يتراجع عن قراره ويكتفي بتحرير طرابلس الغرب[٤]، في تلك الأثناء وردته أنباء مفادها أن أندريا دوريا قائد الأسطول الإسباني الشهير قادم لتقديم المساعدة للفرسان، فما كان من القبطان سنان إلا أن ذهب إلى طرابلس وأنزل قواته في تاجوراء، ثم وجه رسالة إلى قائد الفرسان[٥] وحاكم طرابلس الغرب جاسباري دي فالبير طالباً منه الانسحاب، ولكن حاكم طرابلس رفض بشدة هذا الطلب وبين له أنه مصمم على الدفاع عن حكمه ومقره [٦].

مما دفع بالقبطان سنان باشا أن يقوم بفرض حصار على طرابلس الغرب[٧]، وبمساعدة السكان المحليين ورغم مقاومة الفرسان نجح العثمانيون في طرد فرسان القديس يوحنا[٨]، الذين لم يتمكنوا من الصمود كثيراً أمام هذا الحصار[٩] بسبب قلة المياه، بالإضافة إلى نجاح القوات العثمانية آنذاك بتوجيه مدافعها باتجاه القلعة[١٠]، فغدت المسافة الفاصلة بينهما صغيرة، وهذا ما أرعب الفرسان الذين أصبحوا يبحثون عن وسيلة للهرب إلى جزيرة صقلية، على الرغم من محاولة قائدهم دي فالبير في إقناعهم عن العدول عن رأيهم، ولكن كل هذا لم

---

١ – عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى– ليبية)، ص ١٦١.

٢ – سرهنك، مصدر سابق، ص٩٦.

٣ – عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى– ليبية)، ص ١٦١.

4– Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN,S134.

٥ – عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقية الشمالية،٢ج، ت: الحاج عبد السلام أدهم، بيروت، ١٩٦٩م، ج٢،ص٥١.

٦ – أوزتونا، مرجع سابق، ج١،ص٣١١.

٧ – التر، المرجع السابق، ج٢، ص٥١.

٨ – أوزتونا، المرجع السابق، ج١،ص٣١١.

٩ – حرب ، مرجع سابق، ص٩٩.

١٠ – طقوش، مرجع سابق،ص٢٢٤.

يكن له أي فائدة لأن الفرسان انسحبوا فعلياً، وتخلوا عنه، فوجد دي لافيير نفسه وحيداً مما دفعه إلى الاستسلام ورفع الراية البيضاء[1].

وفي الوقت ذاته قدم إلى القبطان سنان رسولان يعرضان عليه أن يتم إخلاء المدينة من الفرسان، ولكن بشرط ضمان حماية أفراد الحامية، وأن يتم نقلهم سالمين إلى جزيرة صقلية أو مالطة، وكان رد القبطان سنان هو الموافقة وقبول هذه الشروط[2]، وبذلك تم ضم طرابلس الغرب إلى الدولة العثمانية[3]، سنة /٩٥٨هـ/١٥٥١م/[4].

وعمد بعدها سنان باشا إلى تعيين مراد آغا والياً على طرابلس الغرب، وقد استمر والياً عليها حتى وفاته سنة ١٥٥٦م[5].

على الرغم من أن السلطان سليمان القانوني كان قد وعد الريس طرغوت بإمارة طرابلس الغرب، إلا أن الصدر الأعظم رستم باشا شقيق سنان باشا، كان قد تدخل لصالح مراد آغا وضمن له تولي حكم طرابلس الغرب، بعد أن أقنع السلطان سليمان القانوني عن العدول عن رأيه[6]، لتتحول بذلك طرابلس الغرب إلى ولاية عثمانية ابتداءً من الخامس عشر من آب عام /٩٥٨هـ/١٥٥١م/[7].

إذاً يمكن القول إن الدولة العثمانية نجحت أخيراً ببسط جناحيها على شرق البلاد وغربها، واستطاعت أن تواجه إسبانيا تلك الدولة الأوروبية التي كانت آنذاك في قمة مجدها وقوتها، والتي كانت تسعى بكل ما أوتيت من قوة إلى استغلال موارد وطاقات البلاد في شمال إفريقية، أما الدولة العثمانية فصحيح أنها وقفت أمام الدول الأوروبية الطامعة في تلك المناطق، ولكن عندما أخضعت تلك البلاد لنفوذها لم يكن بدافع اقتصادي، وإنما كان بدافع ديني، لأنها كانت ترفع شعار حماية الإسلام والمسلمين، هذا بالإضافة إلى أنها خشيت أنه في حال دخلت تلك

---

[1] – عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى– ليبية)، ص١٦٢.

[2] – Yavuz Bahadir Oglu, KAUNAK GEÇEN ,S134.

[3] – أرسلان، مصدر سابق، ص١٦١.

[4] – أوغلي، مرجع سابق، ص٣٢٢.

[5] – أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص ٣١٢.

[6] – عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى– ليبية)، ص١٦٣.

[7] – أوزتونا، المرجع السابق، ج١، ص٣١١.

القوى الصليبية إلى غرب الوطن العربي، فإنها ستشكل حتماً خطراً على شرق الوطن العربي وباقي أجزاءه.

وبالفعل نجحت الدولة العثمانية بالوقوف ضد هذه القوى الصليبية الخطيرة، ولكنَّ الحقُّ يقال إن هذا النجاح لم يكن ليتحقق لولا جهود وبطولات آل باربروس، الذين قدموا بدافع المصلحة خدماتهم للدولة العثمانية، بغية الحصول على السلطة والحكم في شمال إفريقية.

إذاً المصلحة المشتركة يمكن أن نجعلها العنوان الرئيس، وبالتالي كانت الدافع والمحرك لكلا الطرفين في توسعاتهم ومواجهتهم للقوى الأوروبية المعادية للإسلام، والراغبة بتقوية اقتصادها المتنامي آنذاك.

وحقيقة الأمرهو أن الدولة العثمانية كانت تبحث عن المجد والشهرة، بالإضافة إلى كسب ثقة المسلمين أينما كانوا، بينما كان آل باربروس يبحثون عن قاعدة لهم تمكنهم من ممارسة نفوذهم ونشاطاتهم الإقتصادية والسياسية في شمال إفريقية، وفي كلا الحالتين كانت الفائدة بالنهاية تَنصبُّ لصالح سكان تلك المناطق، وقد تحقق ذلك من خلال التعاون الذي تم بين كلاً من آل باربروس والدولة العثمانية، حيث كانت هناك محاولات كثيرة بغية تنظيم الشمال الإفريقي الذي كان يعيش فوضى داخلية سواء كان ذلك في (الجزائر أو تونس أو ليبية).

كما استطاعت الدولة العثمانية نوعاً ما أن تبلور النظام السياسي والإداري في ولايات الشمال الإفريقي إلا أن السياسة التي اتبعتها في الشمال الإفريقي بولاياته الثلاث(الجزائر، تونس، ليبية) كانت مغايرة تماماً عن بقية الولايات الأخرى.

وهناك عدة مسوغات دفعتها إلى اتخاذ تلك الإجراءات المغايرة من أهمها :

١-أن الشمال الإفريقي من أبعد الولايات العثمانية عن العاصمة استنبول مركزالدولة العثمانية، وبالتالي كان أي تدخل من قبل الحكومة المركزية يحملها تكاليف باهظة.

٢-كان لابد من وجود قوة عسكرية كبيرة تستطيع حماية الشمال الإفريقي، نتيجة تعرضه للتهديد الدائم من قبل الدول الأوروبية الطامعة بها، وهذا ما فرض عليها إحكام سيطرتها على الأهالي دون العودة إلى السلطان.

٣-فصلت الدولة العثمانية الشمال الإفريقي إلى ثلاث أوجاقات كانت مرتبطة بالعاصمة استنبول، ولكنها منفصلة عنها عسكرياً وإدارياً ومالياً[١].

كماعهدت الدولة العثمانية إدارة ولايات الشمال الإفريقي إلى أشخاص ممن اشتهروا بالبحر، وقد نجحوا بادئ الأمر في إدارة هذه الولايات إدارة حسنة، وقد انعكست هذه الإدارة الناجحة على السكان الذين شعروا بالإستقرار، خاصة بعد أن شهدوا ازدياد قوة الأسطول البحري الذي شكل خطراً حقيقياً على معاقل الأوروبيين وجعل ملوك أوروبة يسعون لكسب ودهم [٢].

كما طبقت الدولة العثمانية النظام بحذافيره، وفرضت عقوبات بحق كل من أظهر ميلاً للإخلال بالنظام[٣]، ولكن يبدوأن الإدارة العثمانية تركت لجنودها حرية التصرف بشؤون الولاية[٤]، وهذا ما أدى إلى الإخلال بالنظام العثماني والذي كان سببه الرئيسي شغب الإنكشاريين الذين عرضوا البلاد لصعوبات كثيرة[٥]، تمثلت بثورات متكررة من قبل الأهالي، وعلى الرغم من اعتراف السكان بالسيادة العثمانية، إلا أن هذا الإعتراف كان مزعزعاً وغير ثابت حاولت فيها الدولة العثمانية ولعدة مرات فرض سيطرتها المباشرة على البلاد، وساد هذا الإعتراف العداء أحياناً والفتور أحياناً أخرى[٦].

إن الثورات المتكررة، بالإضافة إلى قسوة المناخ والصحراء الكبرى والجبال التي كانت إحدى الصعوبات التي واجهت العثمانيين في الشمال الإفريقي، في الوقت الذي تضعضع فيه تفوق أسطولهم البحري في البحر المتوسط[٧].

---

[١] - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى- ليبية)، ص ١٦٥.

[٢] - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر و تونس)، ص٤٩.

[٣] - التر، مرجع سابق، ج١، ص١٣٧.

[٤] - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى- ليبية)، ص١٦٤.

[٥] - التر، المرجع السابق، ج١، ص١٣٧.

[٦] - طقوش ، مرجع سابق، ص٢٢٣.

[٧] - ياغي، مرجع سابق، ٧٥.

كل هذه الأحداث الدائرة على الساحة الإفريقية، ويضاف إليها الخسائر التي تعرض لها السلطان سليمان التي أثَّرت به بشكل كبير، من فقدان أسطوله وموت خيرة قادته ، لاسيما بعد أن فشلت قواته في الإستيلاء على جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥م وطرد فرسان القديس يوحنا منها[١]، ليسدل بذلك السلطان سليمان القانوني الستار عن الفصل الأخير من حياته سنة ١٥٦٦م تاركاً الحكم لابنه سليم الثاني.

[١] – عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث(الجزائر و تونس)، ص٥٨.

الخاتمة:

صحيح أن القبيلة الهاربة من ضغط المغول استطاعت بعد دخولها الأناضول بشهور أن تؤكد وجودها وبعقود أن تجعل بورصة عاصمة لها، وبقرن ونصف أن تصبح إمبراطورية يخافها الشرق والغرب، ويتوافد الملوك إلى عاصمتها استنبول لكسب ودها والحصول على إذن دخول إلى ممالكها أو للاتجار في ولاياتها.

لقد فرضت الإمبراطورية العثمانية نظمها على ولاياتها المتناثرة في ثلاث قارات آسيا وأوربة وإفريقية، وأن تعثمن نظمها الإدارية بكل شجاعة واطمئنان، وبوصول السلطان سليمان الأول القانوني تأكدت العثمنة ونفذت القوانين التي أقرَها هذا السلطان الذي ما عرف التاريخ سلطاناً توج بالألقاب الزمنية والدينية مثيلاً له.

فهو ذلك القائد المغامرالذي استطاع أن يصل إلى أوروبة وأن يهدد عرش ملوكها، وهو الذي تصدً للدولة الصفوية التي كانت تعد دولة منافسة له ويحسب لها حساب.

وهو الحاكم الذي تمكن من أن يفرض بنفسه ويحدد شروط صلحه مع أي دولة منافسة له، لقد استطاع في فترة ما أن يحقق نظرية الحاكم الذي لا يقهر، ونجح في منح الدولة العثمانية هالة من العظمة حولتها من دولة إلى إمبراطورية كانت لها مكانتها ودورها الفعال على الساحة الدولية آنذاك سواء على الصعيد العسكري أو السياسي أو الإقتصادي أو الإداري.

ولا ننكر الدورالذي لعبه السلطان سليمان في سعيه لإعادة لحمة الوحدة العربية لجميع سكان الوطن العربي، ومحاولته تجميع قواها تحت راية واحدة، فهو الذي وقف إلى جانب بلاد شمال إفريقيا، التي كانت تواجه خطر صليبي كبير، متمثلاً بالخطرالإسباني والبرتغالي الذي لم يكن خطراً عابراً إنما كان خطراً كبيراً، وكاد يعصف بالوطن العربي من مشرقه إلى مغربه، ويضاف إلى ذلك الخطر الصفوي، إذاً يمكن التأكيد أن السلطان سليمان كان قد استطاع أن يمنع الكماشة الصليبية(البرتغالية والإسبانية) من الإطباق على العالم العربي.

وبالمقابل لقد أثبت السلطان سليمان للعالم بأسره بإنه إداري ناجح وذلك بإصداره للقوانين التي نظمت دولته وكما هو معلوم ليس بالأمر السهل ولا البسيط أن يتم إخضاع وإدارة وتنظيم

رقعة شاسعة من الأراضي يقطنها أنماط مختلفة من السكان، ولكنه أثبت بأنه قادرعلى ذلك، إذ تم في عهده إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إداري.

ولكي لا ننظر إلى نصف الكأس الممتلئ بالماء فقط، كان لابد من اتخاذ الموضوعية والحياد في طرح أبرز النقاط التي توصل إليها البحث سلبية كانت أو إيجابية، فصحيح أن المصادر العثمانية أطنبت بصفاته وشجاعته تحت تأثير دافعين الدافع الأول حقيقة توسع أملاك الدولة وتأكيد الهيمنة عليها واعتراف جميع القوى بكل أطيافها بقوة شخصيته ومهابته التي سبقت اسمه إلى الولايات وهذه حقيقة لا اختلاف عليها، وثانيها أن السلطان سليمان ظاهرة إدارية لن تتكرر في تاريخ الإمبراطورية العثمانية.

ولكن ما وصل البحث إليه أن السلطان سليمان استمد قوته ممن كانوا يحيطون به فقد كان عصره عصر الأقوياء من القادة والأمراء أمثال إبراهيم باشا وخيرالدين باربروس وسنان باشا وبيالي باشا وعروج باشا وطرغوت باشا فهم الذين صنعوا هذا المجد الذي عم الآفاق، وحصد السلطان سليمان ثماره.

فضلاً عن ذلك فإن السلطان سليمان القانوني لم يصنع مجداً كان ضائعاً ولا عرشاً كان مضطرباً فأزال اضطرابه وثبت دعائمه، فلقد ورث ملكاً كان قوياً، وبين طياته وعلى حدوده قادة كبار وعظام حققوا وبجهودهم ما تناولته أقلام المرحلة بالمديح لدرجة غطت كثيراً من عيوبه، ولقد أفادت الأقلام الغيورة من أمثال رضا نور في بعض مجلداته أن السلطان سليمان كان قوياً في ظاهره ضعيفاً في باطنه ولا سيما أمام النساء، وإن ما فعلته زوجته روكسلانه بمسيرته التي لا تستحق مديح يفوق الوصف، هذه المرأة التي كان لها التأثير الكبير في السلطان سليمان وكان للأسف تأثيراً سلبياً أكثر منه إيجابياً، وقد يكون السبب في أصولها اليهودية، التي جعلت منها إنسانة حاقدة وتحمل الضغينة اتجاه الإسلام والمسلمين.

أما بالنسبة للسلطان سليمان فصحيح أنه حقق انتصارات عسكرية ولكن أغلبها كان في مناطق العالم الإسلامي، فلماذا فشل أمام أسوار فيينا ثلاث مرات ، ولماذا واظب السلطان سليمان في شن حملاته على إيران لولا أنه أراد أن يضع نفسه في موقع التنافس مع حكامها بهدف إثبات قوته، ولماذا قتل قتل صديقه ورفيق دربه وفاتح العراق سنة ١٥٣٤م إبراهيم

باشا، ولماذا أسند إليه رستم باشا منصب الصدر الأعظم ولماذا أسند عليه قيادة الجيوش، وهل الإنكشارية تعرف أباً أو وطناً أو دستوراً إلا السلطان الحاكم، فلماذا غاب عنهم، ألم يكن كل ذلك ليقضي كل أوقاته مع روكسلانه وغيرها من النساء، وليهرب من واجباته اتجاه دولته التي يبدو أنها أرهقته ولم يعد يحفل بها.

ولماذا أهان وجرح قلب زوجته كلبهار(ورد الربيع) وقتل ابنها مصطفى، و أرسل أخاه أويس باشا لليمن ليموت وهو يدرك أن مجرد دخوله إلى اليمن كان يعني فقدانه إلى الأبد، كما أسهم في قتل ابنه بيازيد، ألم يكن كل ذلك بسبب خوفه من أن يفقد الكرسي الذي استطاع من خلاله أن يحقق مايرغب به، ومنها إزاحة كل منافسيه، من خلال تحليل ما هو محرم وليس هذا فحسب بل تحويله إلى قانون، وهذا القانون هو قتل الإخوة والأبناء من أجل الحكم أو العرش وهذا ما يدعو للاستغراب.

فضلاً عن ذلك لماذا أقام اتفاقية مع الملك الفرنسي ومنحه الامتيازات، وتجاهلت إدارته آلام الرعية نتيجة ممارسات التجار الأجانب الذين عاثوا فساداً في ولاياته الإسلامية، وطبعاً نستطيع أن نجزم أن هذه الإمتيازات لم تكن سوى داءٍ أصاب الدولة العثمانية وليست دواءً كما ظن السلطان سليمان القانوني، والدليل على ذلك أن هؤلاء التجار الأجانب لم يمارسوا هذا الفساد إلا في الولايات العربية وكل هذا كان مدروساً من قبل الحكومات الغربية بهدف السيطرة وشلّ الاقتصاد في الولايات العربية، ومن ثم طرح البضائع الأجنبية كخطوة أولى أمام تحقيق الهدف الأكبر وهو الاستعمار والسيطرة على الأراضي والخيرات في بلادنا العربية بواسطة الدولة العثمانية.

أهذه الأعمال تصدرعن رجل قوي وعاقل وراشد ويضاف إلى ذلك كله أنه حاكم وسلطان، هذه التساؤلات طرحت في أثناء البحث في مرحلة السلطان سليمان القانوني، لكن الإستنتاجات العلمية فرزت نفسها كحقيقة لا يمكن تجاهلها، وقد وصل هذا البحث إلى حقيقة هي أن هذا السلطان الشجاع والإداري إنما كان يحمل في شخصه العديد من التناقضات التي انعكست على دولته، ويمكن القول إنه كان شخصاً أنانياً بشكل كبير ومبالغاً فيه فمن أجل العرش ضحى بأغلى ما عنده، وكل هذا كان له نتائج وخيمة عادت على الدولة العثمانية بالطبع فهي الضحية الأولى والأخيرة، فالسلطان سليمان وغيره من السلاطين الذين سبقوه

أعطوا هذه الدولة أسباب النجاح ثم عملوا على إزالة كل ما هوعامل مساعد على نجاح هذه الدولة.

من ناحية أخرى ترى هل قرأ المؤرخون مرحلة السلطان سليمان القانوني بدقة وحللوا النتائج التي انهالت على الإمبراطورية بعد وفاته، فكيف يعهدإلى ابنه سليم الثاني ولاية العرش وهو يدرك أنه قطعة لهو ومجون بامتياز، ولكن الإجابة واضحة تتلخص بكلمة واحدة هي (روكسلانه) التي استطاعت بنجاح أن تحقق كل ما رغبت به مستغلة ضعف هذا الرجل أمامها وأمام كل النساء .

إن البحث أعطى سليمان حقه في المواقف التي بذل فيها جهده كحاكم مخلص لدولته، وتجنب الإشارة إلى سقطاته في أثناء البحث، غير أن النتائج رفضت بشدة القبول بالمديح فقط فطرحت نفسها كحقيقة وأكدت أن ما تعرضت إليه الإنكشارية من فساد وما واجهته الدولة العثمانية بعد وفاته كانت بسبب تصرفاته التي لم يعلم بها وإنما وقّع عليها، لأن رستم باشا زوج مهرماه وحماته روكسلانه هما اللذان أقرا هذه الإجراءات التي أسهمت في انهيار الدولة العثمانية .

ويبقى القول إن السلطان سليمان القانوني هو إنسان، والإنسان ليس معصوماً عن الخطأ، كما أنه ليس كاملاً لأن الكمال لله، ولكن منحنا رب العالمين العقل الذي هو زينة الإنسان وهو الذي يميز بين ماهو خطأ وماهو صواب، ولكن يبدو أن السلطان سليمان وفي أغلب القرارات المصيرية التي اتخذها والتي تخص دولته كانت تحركه عواطفه التي كانت تديرها بنجاح زوجته روكسلانه، وهذا ما أدى إلى رجحان كفة الأخطاء إن صح القول على كفة الإنجازات.

الملحق (١)

السلاطين العثمانيون

١ ـ عثمان بن ارطغرل ١٢٩٩ ـ ١٣٢٦ .

٢ ـ أورخان بن عثمان ١٣٢٦ ـ ١٣٦٠

٣ ـ مراد خداوندكار ابن اورخان ١٣٦٠ ـ ١٣٨٩

٤ ـ با يزيد الأول بيلدرم ابن مراد ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣ قتل أخاه الأصغر يوم تولى العرش لكي لا يفسد عليه أمره .

وهنا حدثت فترة ملوك طوائف ثم جاء :

٥ ـ محمد الأول چلبي ابن با يزيد ١٤٠٣ ـ ١٤٢١ قتل أخوته الأربعة حرباً

٦ ـ مراد الثاني ابن محمد ١٤٢١ ـ ١٤٥١ قتل عمه مصطفى وأخاه مصطفى

٧ ـ محمد الثاني الفاتح ابن مراد ١٤٥١ ـ ١٤٨١ قتل اخاه الرضيع

٨ ـ با يزيد الثاني ابن محمد الثاني ١٤٨١ ـ ١٥١٢ تنازل عن الملك لابنه سليم

٩ ـ ياوز سليم بن با يزيد ١٥١٢ ـ ١٥٢٠ قتل خمسة من اولاد اخوانه وقتل أخاه كركود ، وأخوه أحمد قتل وهو يحاربه .

١٠ ـ سليمان القانوني الأول ابن سليم ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ قتل بعض أولاده وبعض أحفاده بدسيسة زوجته .

١١ ـ سليم الثاني ابن سليمان ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤

١٢ ـ مراد الثالث ابن سليم الثاني ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥ قتل إخوته الخمسة

١٣ ـ محمد الثالث ابن مراد ١٥٩٥ ـ ١٦٠٣ كان له ١٩ اخاً خنقهم قبل دفن أبيه ودفنهم معه تجاه ايا صوفيا

١٤ ـ أحمد الأول ابن محمد الثالث ١٦٠٣ ـ ١٦١٧ حجر على أخيه ولم يقتله .

١٥ ـ مصطفى الأول اخو أحمد الأول ١٦١٧ ـ ١٦١٨ .

١٦ ـ عثمان الثاني ابن أحمد الأول ١٦١٨ ـ ١٦٢٢ قتل أخاه محمداً ،خلع ثم قتل .

مصطفى الأول (ثانية) ١٦٢٢ ـ ١٦٢٣ خلع ثانية .

١٧ ـ مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠

١٨ ـ ابراهيم الأول ابن السلطان أحمد الأول ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨ خلع ثم خنق

١٩ ـ محمد الرابع ابن ابراهيم الأول ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧ خلع .

٢٠ ـ سليمان الثاني ابن ابراهيم الأول ١٦٨٧ ـ ١٦٩١

٢١ ـ أحمد الثاني ابن ابراهيم الأول ١٦٩١ ـ ١٦٩٥

٢٢ ـ مصطفى الثاني ابن محمد الرابع ١٦٩٥ ـ ١٧٠٣

٢٣ ـ احمد الثالث ابن محمد الرابع ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠

٢٤ ـ محمود الأول ابن مصطفى الثاني ١٧٣٠ ـ ١٧٥٤ .

٢٥ ـ عثمان الثالث (لم يذكر اسم أبيه) ١٧٥٤ ـ ١٧٥٧ .

٢٦ ـ مصطفى الثالث ابن احمد الثالث ١٧٥٧ ـ ١٧٧٤

٢٧ ـ عبد الحميد الأول ابن أحمد الثالث ١٧٧٤ ـ ١٧٨٩

٢٨ ـ سليم الثالث ابن مصطفى الثالث ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧ خلع .

٢٩ ـ مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ خلع ثم قتل .

٣٠ ـ محمود الثاني ابن عبد الحميد الأول ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ .

٣١ ـ عبد المجيد الأول ابن محمود الثاني ١٨٣٩ ـ ١٨٦١ .

٣٢ ـ عبد العزيز بن محمود الثاني ١٨٦١ ـ ١٨٧٦ خلع وقتل مسموماً

٣٣ ـ مراد الخامس ابن عبد المجيد الأول ١٨٧٦ ـ ١٨٧٦ خلع لخلل في عقله .

٣٤ ـ عبد الحميد الثاني ابن عبد المجيد الأول ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ خلع ومات ١٩١٧.

٣٥ ـ محمد رشاد الخامس ابن عبد المجيد الأول ١٩٠٩ ـ ١٩١٨

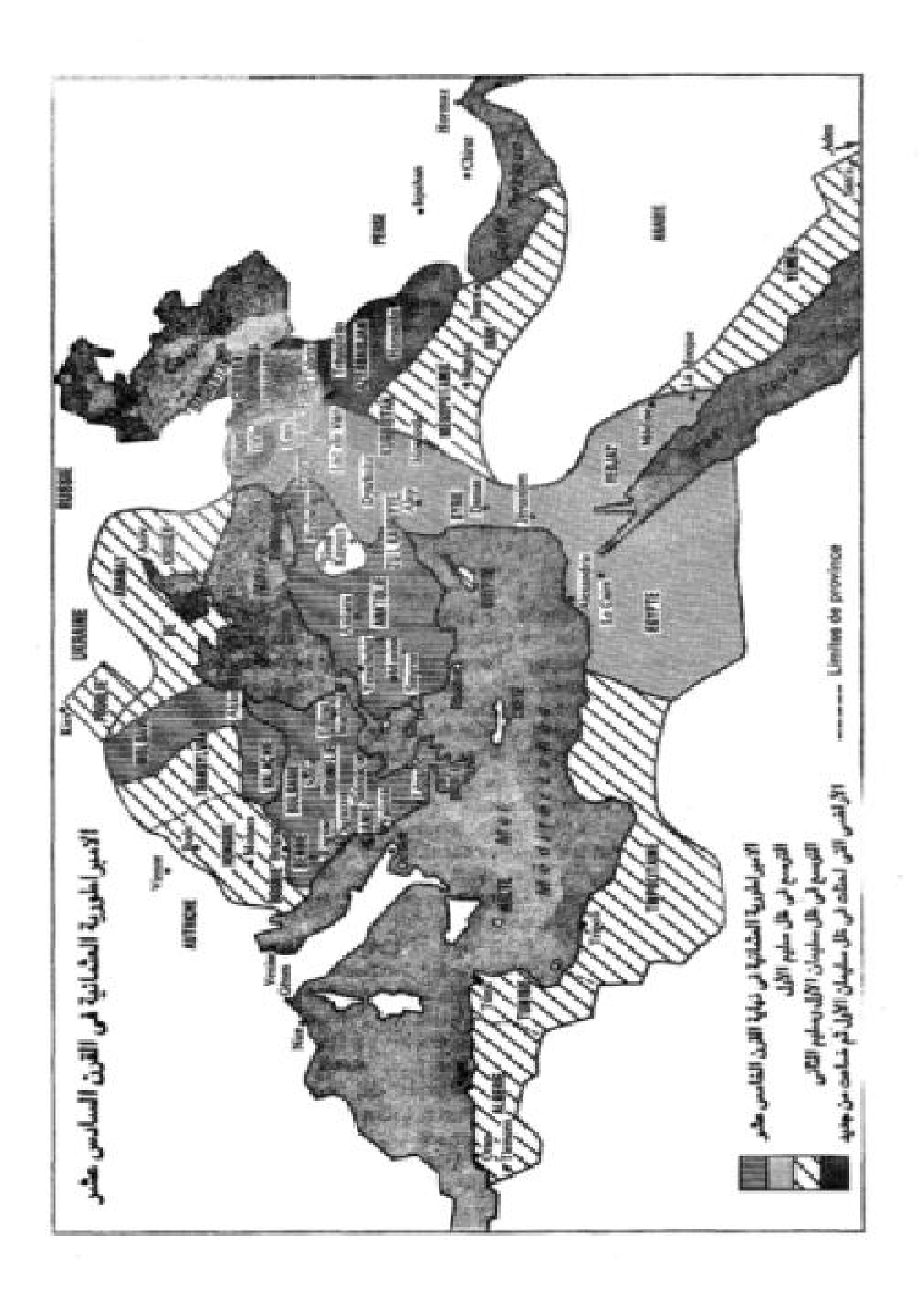
٣٦ ـ محمد وحيد الدين السادس ابن مراد الخامس ١٩١٨ ـ ١٩٢٢ تنازل عن العرش ومات ١٩٢٦ .

٣٧ ـ عبد المجيد ـ بن عبد العزيز الثاني ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤ خلع .

نقلاً عن فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية

الملحق (٢)

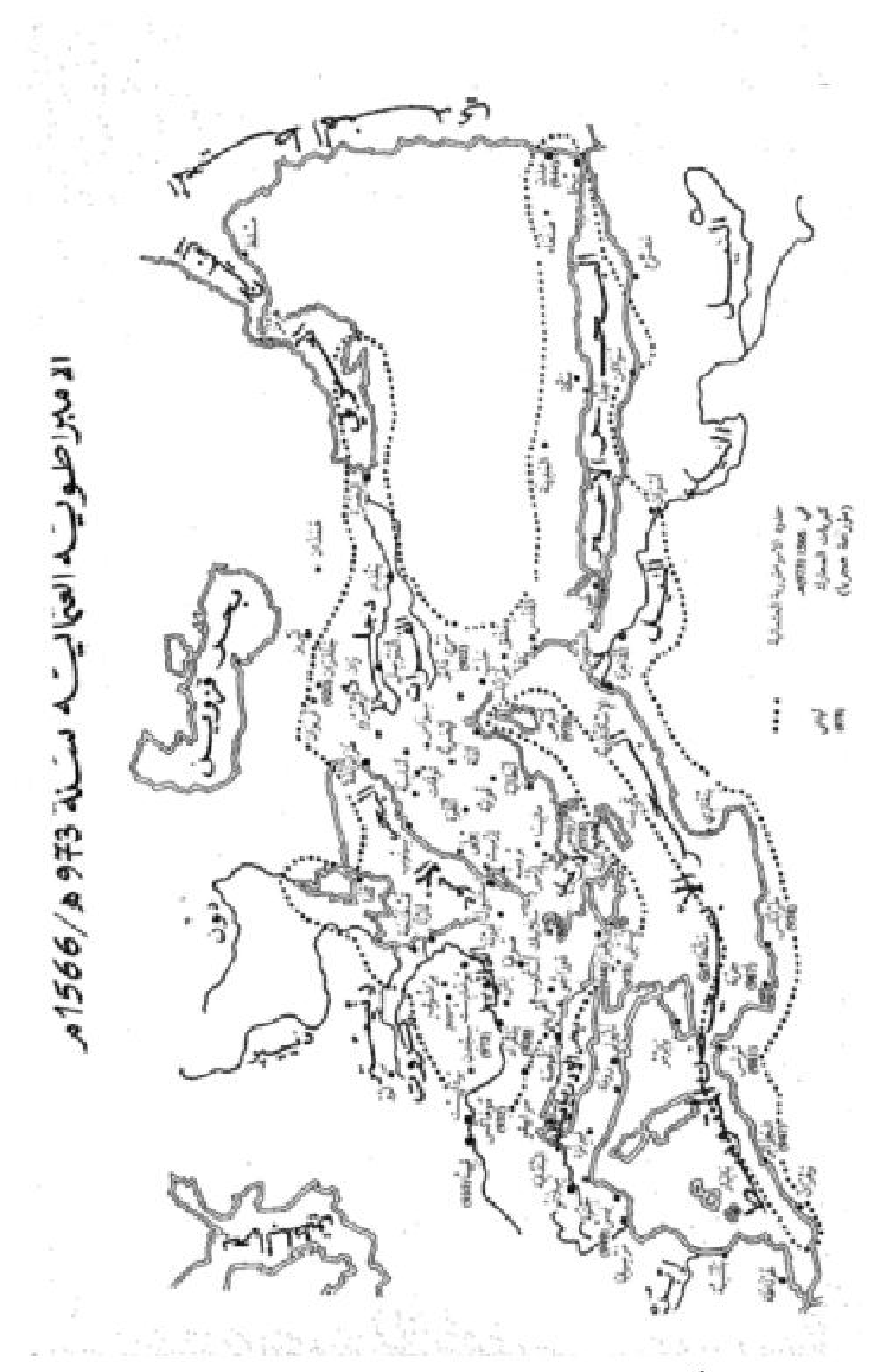
الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر



نقلاً عن أندريه كلو، السلطان سليمان القانوني

الملحق (٣)

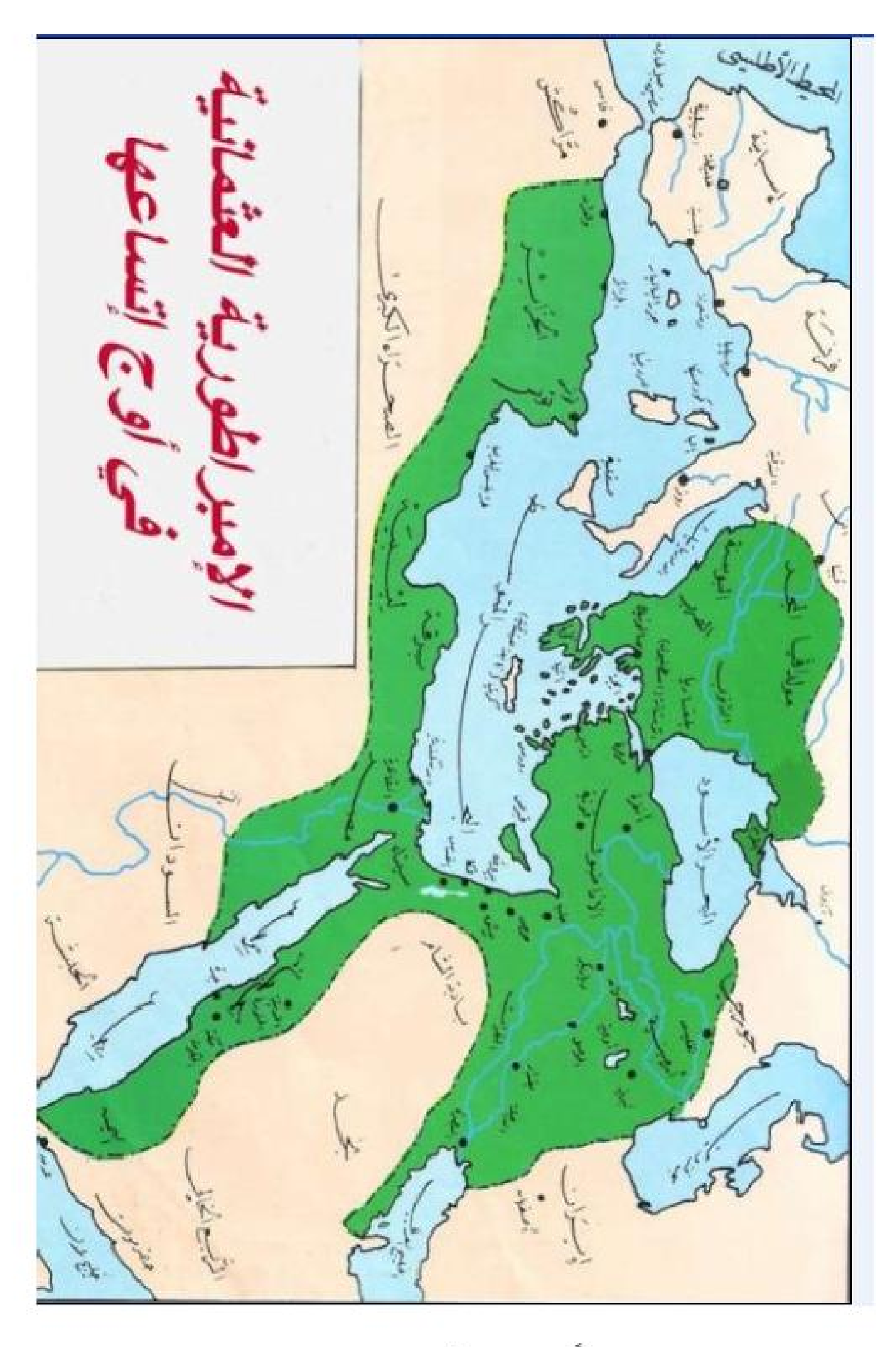
الإمبراطورية العثمانية في عام ١٥٦٦ م



نقلاً عن روبير مانتيران، تاريخ الدولة العثمانية

الملحق(٤)

الإمبراطورية العثمانية في أوج اتساعها



نقلاً عن الموقع الالكتروني اسلام ويب

الملحق (٥)

رسالة موجهة من السلطان سليمان القانوني إلى ملك فرنسا فرانسوا الأول.

الله العليّ المعطي المغني المعين .
بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته وعلت كلمته وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء

وقدوة فرقة الأصفياء محمد المصطفى ﷺ الكثيرة البركات ،وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وجميع أولياء الله ، أنا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوّج الملوك ظل الله في الأرضين سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأناضول والروملي وقرمان الروم وولاية ذي القدرية وديار بكر وكردستان واذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أيضاً ، التي فتحها آبائي الكرام وأجدادي العظام بقوّتهم القاهرة أنار الله براهينهم ، وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر ، أنا السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان ، إلى فرنسيس ملك ولاية فرنسا : وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع تابعكم فرانقيان النشيط مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفاهياً وأعلمنا أن عدوّكم استولى على بلادكم وأنكم الآن محبوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم . وكل ماقلتموه عرض على أعتاب سرير سدّتنا الملوكانية وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوماً ، فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم فكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر فإن آبائي الكرام وأجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد وردّ العدو ونحن أيضاً سالكون على طريقتهم وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة وخيولنا ليلاً ونهاراً مسروجة وسيوفنا مسلولة فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بارادته ومشيئته وأما باقي الأحوال والأخبار تفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم هذا تحريراً في أوائل شهر آخر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة

بمقام دار السلطنة العلية
القسطنطينية المحروسة المحمية

نقلاً عن فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية.

الملحق (٦)

قانون نامة – السلطان سليمان

قانون نامة السلطان سليمـــان

الحمد لله الملك الحق الذي يأمر بالعدل والاحسان، و ينهى عن الفحشاء والمنكر، والذي جعل السلاطين سبب نظام العالم، أحكامهم نافذة على كافة الأمم من أهل الوبر والمدر، والصلوة والسلام على واضع السنن سيدنا محمد المصطفى خير البشر، وعلى آله وأصحابه المتحلين بمكارم الأخلاق وحسن السير، أما بعد.

فقد صدر الحكم الجليل القدر، والفرمان النافذ نفاذ القضاء والقدر، بجمع مراسم وقواعد الملك السلطاني وقوانين العرف العثماني في مجلد يحتو يها، و يضم كل نواحيها. فجمعتها، امتثالا للأمر العالي و بو بتها، وقسمت كل باب منها على عدة فصول:

الباب الأول في الجنايات وما يترتب عليها من عقوبات (غرامات) وسياسات مما يشترك فيه السباهي والرعية، ولا يشذ عنه شريف ولا وضيع ولا دنيء ولا رفيع، فمن يقترف ذنباً مذكوراً يعاقب عليه بما ينص عليه القانون. و ينقسم هذا القانون إلى أربعة فصول:

فصل الأول في بيان ما يترتب من عقوبات على الزنا.
الفصل الثاني في بيان العقوبات المترتبة على الضرب والشتم وقتل النفس.
الفصل الثالث في بيان العقوبات المترتبة على شرب الخمر والسرقة والغصب والاعتداء
الفصل الرابع في بيان سياسة المجـرد.

الباب الثاني في بيان ما يتعلق بالسباهي وبيت المال والرسوم المترتبة على الرعية والمخصصة للسباهية. و يتألف من سبعة فصول:

الفصل الأول السباهي.
الفصل الثاني الحقوق التي يتمتع بها السباهي في تيماره.
الفصل الثالث في الباج وبيت المال ومال الغائب ومال المفقود.
الفصل الرابع في رسوم الجفت والبناك ورسوم الطواحين وعادة الأغنام وغير ذلك.

الفصل الخامس في الأعشار.
الفصل السادس في الطيارات (بادهوا).
الفصل السابع في البايا والمسلم.

الباب الثالث في أحوال الرعية وهو في سبعة فصول:

الفصل الأول في وضع الرعية.
الفصل الثاني في أوضاع الكفار.
الفصل الثالث في قانون العزب.
الفصل الرابع في اليوروك والخيمانة.
الفصل الخامس في الأفلاق.
الفصل السادس في البدع المرفوعة.
الفصل السابع في القانون الخاص بالحطب.

الباب الأول: في العقوبات والسياسات المترتبة على الجنايات

الفصل الأول
العقوبات المترتبة على الزنا

إذا زنى مسلم وثبت عليه شرعاً، وكان الزاني محصناً، وقدرته المالية ألف أقجة أو أكثر، يغرم مبلغ ثلثمائة أقجة، فان كان متوسط الحال وقدرته المالية ستمائة أقجة يغرم مائتي أقجة، فان كان فقيراً وقدرته المالية أربعمائة أقجة يغرم مائة أقجة، فان كان أكثر فقراً يغرم خمسين أقجة، فان كان شديد الفقر يغرم أربعين أقجة.

وإذا كان الزاني بالغاً وغنياً وقدرته المالية ألف أقجة أو أكثر يغرم مبلغ مائة أقجة، وان كان متوسط الحال يغرم خمسين أقجة، وان كان فقيراً وقدرته المالية أربعمائة أقجة يغرم أربعين أقجة، فان كان شديد الفقر يغرم ثلاثين أقجة.

الفصل الثاني

الضرب والشتم والقتــل

اذا أخذ رجلان بتلابيب بعضهما فتمزقت، عزرهما القاضي ولم يغرمهما.

وان نتف رجل شعر رجل آخر أو لحيته وثبت ذلك عليه وكان الفاعل غنياً، يغرم عشرين أقجة، وان كان فقيراً عشر أقجات. والكافر والمسلم في غرامة النتف سواء، فان نتف كافر غني لحية آخر أو شعره يغرم عشرين أقجة.

و يغرم من شج رأس أحد فأدماه ثلاثين أقجة. فان برز العظم إثر الشج واحتاج الشجيج للتداوي والتطبب، وكان الذي شجه غنياً يملك ألف أقجة أو أكثر يغرم مائة أقجة، وان كان يملك ستمائة أقجة يغرم خمسين أقجة، و يؤخذ منه غرامة مقدارها أربعون أو ثلاثون أقجة، مراعاة لفقره.

وان قتل نفساً ولم يقاصص عليها، وكان يملك ألف أقجة أو أكثر يغرم أربعمائة أقجة، ويغرم مائتي أقجة ان كان يملك ستمائة أقجة، وان كان أكثر فقراً يغرم مائة أقجة، وان كان شديد الفقر يغرم خمسين أقجة.

ومن جرح أحداً بسهم أو سكين فاضطر الجريح أن يلازم الفراش يغرم المعتدي إن كان غنياً يملك الف أقجة أو أكثر مبلغ مائتي أقجة وإن كان متوسط الحال مائة أقجة، وان كان شديد الفقر خمسين أقجة.

ومن فقأ عين أحد أو كسر سنه ولم يقاصص، وكان غنياً يغرم مائتي أقجة، وان كان متوسط الحال مائة أقجة، فان كان شديد الفقر أربعين أو ثلاثين أقجة.

وان تضارب أو تقاتل الصبيان فلا غرامة عليهم.

و يغرم الكافر الذي يقترف هذه الجنايات نصف ما يغرم المسلم في حالتي الغنى والفقر.

وان زنت امرأة مسلمة محصنة وثبت ذلك عليها شرعاً، وكانت غنية تغرم غرامة الزاني الغني، فان كانت متوسطة أو فقيرة تغرم غرامة من هو في مثل حالها من الرجال.

وان زنت أرملة تغرم غرامة البالغ في حالتي الغنى والفقر.

وان قبل الزوج الزوجة الزانية [بعد الثبوت والغرامة] يغرم غرامة الدياثة ومقدارها مائة أقجة [إذا كان غنياً]، وخمسون أقجة فقط إذا كان فقيراً، وأربعون أو ثلاثون أقجة إذا كان أكثر فقراً.

والحاكم حر في تقدير عدد الجلدات للمرأة القوادة، وتغرم أقجة عن كل جلدة.

و يغرم الرجل المحصن الذي يدخل بيتاً بقصد الزنا غرامة الزاني المحصن، و يغرم البالغ الذي يدخل بيتاً بقصد الزنا غرامة البالغ الزاني.

وان زنى عبد أو زنت جارية، وقع عليها نضف غرامة الحر أو الحرة مع مراعاة وضعها في حالتي الغنى والفقر على حسب العادة والقانون.

وان تعرض رجل لزوجة رجل أخر فقبلها أو راودها عن نفسها عزره القاضي، و يغرم عن كل جلدة أقجة واحدة.

وان اتهمت امرأة أو بنت رجلا بأنه زنى بها، وأنكر الرجل ذلك، فلا اعتبار لقولهما، و يقع على الرجل اليمين، و يعزر القاضي المرأة، وتغرم عن كل جلدتين أقجة واحدة.

وان قال رجل لامرأة إني قد زنيت بك فأنكرت ذلك فيقع عليها اليمين، و يقع على الرجل التعزير، و يغرم عن كل جلدتين أقجة واحدة.

وان وقف امرؤ على الزنا فكتم فلا عقوبة عليه. ولكنه يغرم عشر أقجات ان اطلع على سرقة فكتمها ولم يخبر القاضي بذلك.

وان زنى كافر يغرم نصف غرامة المسلم حسب حالته من الغنى والفقر.

الفصل الثالث

في بيان غرامات شرب الخمر والسرقة والغصب والاعتداء

يعزر القاضي من يشرب خمراً و يغرم عن كل جلدتين أقجة.

ومن يسرق بطاً أو إوزاً أو دجاجاً يعزره القاضي و يغرمه عن كل جلدتين أقجة.

وتقطع يد من سرق دابة، و يغرم مائتي أقجة ان تجاوز [أهل الحق] عن قطع يده.

وتقطع يد سارق اليانجوق (حلس الدابة) وخاطف الدستار (العمامة) فان تجاوز [أهل الحق] عن قطع يده عزره القاضي، وغرمه عن كل جلدتين أقجة واحدة.

و يعامل الكافر في هذه الحالات (من حيث العقوبة والغرامة) كما يعامل المسلم.

وان سرق احد محصول آخر، وكان غنياً غرم مائة أقجة، وان كان متوسط الحال غرم عشرين أقجة، وان كان شديد الفقر غرم عشر أقجات.

وان سرق ابن أباه أو أمه، أو سرق الأب ابنه، أو الأخ أخاه، أو سرقت الزوجة زوجها أو الزوج زوجته عزرهم القاضي، وغرموا عن كل جلدة أقجة واحدة.

ومن وجد في الفلاة (يوند) دابة وحشية أو ثوراً أو غنماً ولم يدلل عليها غرم ثلاثين أقجة إن كان غنياً، وعشرين أقجة إن كان متوسط الحال وعشر أقجات إن كان شديد الفقر. فان أعطاها لدلال فنادى عليها ولم يجد صاحبها سلمها إلى القاضي أو احتفظ بها. فان ضلت أو ضاعت وهي في حوزته فلا غرامة عليه. والعمل في هذا الوضع هو على ما يقتضيه الشرع.

وان اعتدى عابر سبيل على أحد فأخذ منه خبزاً أو لبناً ظلماً عزره القاضي، وغرمه عن كل جلدة أقجة واحدة. و يغرم الكافر في مثل هذه الجرائم نصف غرامة المسلم مع مراعاة حالته من الفقر والغنى.

وان دخلت دابة أو دخلت بغلة أو بقرة أو حمار زرع أحد عزر صاحبها، وضرب عن كل رأس منها خمس عصي، وغرم عن كل عصا أقجة.

وان دخل زرع أحد بقر ضرب صاحبه عن كل رأس منها دخل الزرع أربع عصي، وغرم عن كل عصا أقجة. وان دخل عجل زرع أحد ضرب صاحبه عصا واحدة وغرم عن كل عصا أقجة. وان دخلت غنم زرع أحد ضرب صاحبها عن كل رأسين عصا، وغرم عن كل عصا أقجة. وان دخل زرع أحد ثور ضرب صاحبه عصاتين، وغرم عن كل عصا أقجة.

ويكتب القاضي حجة يتعهد بها صاحب المواشي أن يمنع مواشيه من دخول زرع أحد، فان لم يصغ للحجة ولم يمنع دوابه من دخول زرع الناس وأضر بمزروعاتهم عزر وغرم على نحو ما سبق تفصيله، وحمل ضمان الخسارة. وعليه أن يحفظ مواشيه ودوابه من أن تضر بزرع الرعايا.

وينبغي على صاحب الزرع أن يقيم سياجاً حول أرضه ان كانت في معزل عن أراضي القرية أو قرب ماء تسقي الناس منه مواشيها.

الفصل الرابع

في بيان سياسة المجـــرد

اذا خطف أحد صبياً أو بنتاً أو دخل بيت أحد بخيانة فخطف بنتاً أو امرأة قطع [ايجمكه][1].

ومن خطف امرأة أو صبية وعقد عليها النكاح غصباً، أجبر على طلاقها، وحلقت ذقن من عقد العقد، وضرب ضرباً مبرحاً.

ومن قبض عليه مع امرأة يطبق عليه حكم الشرع، ومن قتل نفساً عمداً يقتل.

---

١. ايجمكي لعله يقصد به «ذكره» فالقواميس أغفلت الكلمة.

و يصلب من سرق عبداً أو أضله أو فتح دكاناً بقصد السرقة وتكررت سرقاته.

و يطبع على جبين القواد.

و يهدد من قتل بجوارهم أحد أو سرق بالقرب منهم مال حتى يدلوا على القاتل أو السارق واذا لم يفعلوا ذلك يسجنون، و يكتب بشأنهم إلى الأعتاب العالية و يعمل بمقتضى الفرمان الذي يصدر بحقهم بعد.

وان قتل أحد قرب حي أو قرب قرية أو نهبت قافلة ولحقت بها أضرار أو وقعت سرقة بين قريتين أو بين عدة قرى أجبر أهلها على إيجاد القاتل أو السارق فان لم يفعلوا تقع عليهم الدية والغرامة.

وان وجد مال مسروق في بيت أحد أو في يده وكان قد اشتراه، أجبر على أن يدل على البايع، وان لم يفعل وقعت عليه التهمة وعذب إلا إذا دل عليه حين وجده فجاء به إلى القاضي أو أثبت أن المال المسروق كان قد لقيه. وليحتاطوا في التعذيب كي لا يكون سبب هلاك المتهم قبل ثبوت التهمة وتحققها ولا دعوى لمن مات تحت التعذيب.

ينبغي على (الكروان سرائي) أن يكون أميناً معتمداً، لا يفتح أبواب الكروان سراي ليغادره المقيمون فيه إلا بعد أن يتحقق من أنه لم يفقد أي من المقيمين شيئاً، ولم يسرق منه مال أو رزق. فان راعى الكاربان سرائي الشروط وأذن لأبناء السبيل فخرجوا وجاء بعدها أحد المقيمين فيه وادعى ضياع أو سرقة رزق لا يستجاب له. فان لم يقم الكاربان سرائي بالواجب على وفق ما سبق ذكره، وتحقق أنه سرق لأحد المقيمين رزق ترتب على الكاربان سرائي ضمان المسروق، نظراً لتقصيره في واجبه.

وان نقب حائط الخان وسرق مال لأحد المقيمين ألقي القبض على المشبوهين، وهددوا حتى يدلوا على السارق و يعيدوا الأموال المسروقة، فيحكم بها لصاحبها.

وان حصلت مظنة في أن هناك قولا واتفاقاً بين من في داخل الكاربان سراي واللصـــوص في الخارج يلقى القبض على من يظن بهم من اهل الداخل و يفتشون حسب ما يقتضيه الشرع والعرف، و يهددون حتى يجدوا اللصوص،

فان لم يجدوهم وكان الكاربان سراي داخل حي مسكون طبقت أحكام السرقة في الحي المسكون، ونفذت نفس الأحكام داخل الكاربان سراي.

تقطع يد قاطع الطريق، و يد من اعتاد بج (طعن) الناس بالسكين، فان لم يكن الطعن من عادته تغرز في كل من ذراعيه سكين و يطاف به بالأسواق.

و ينفذ حكم الشرع في من قتل أباه أو أمه أو أحد أقاربه.

وان وضع أحد ناراً في منازل قرية أو مدينة بهدف حرق أموال الناس وبيوتهم، وتعسر اثبات الفاعل شرعاً، وأمكن اسناد تهمة على مظنة، هددوه بهدف العثور على الفاعل. فان يجدوه يشنقوه. و يحكم على من رافقه (أو ساعده) بالنفي والخروج عن البلد.

وان كان السارق سباهيا وقع عليه السجن وتعرض قضيته على الأعتاب العالية.

وان ثبت على أحد سرقة بالعرف، يكتب القاضي لأهل العرف حجة لكي يصلبوه إذا كان، حسب الحجة، قد استحق الصلب، و يقطعوا أحد أعضائه اذا كان، حسب الحجة، يستحق القطع. ولا يجوز للقاضي أن يحول دون ذلك، ولا ينبغي للقاضي منع [أهل العرف] من تنفيذ حكم القانون والشرع، ولا التأخير في السياسة (الصلب) فيصلب الجاني في المكان الذي اقترف فيه الجناية.

وان أقر اللص بالسرقة تحت الضرب والعذاب ودلت على فعلته بعض الامارات أخذ إقراره بعين الاعتبار.

وان قال سارق معروف باللصوصية: شريكي فلان وكان هذا لوندا (أزعر) ومتهما عذبوه، وان كان شخصاً لم تقع عليه تهمة فلا يجب أن يعذبوه لمجرد قول سارق.

واذا دخل سارق أراضي يايا أو مسلم أو يوروك أو طوغانجي (بازي) أو أرض وقف أو ملك ينبغي عليهم إحضاره ان طلب منهم ذلك. فان لم يسلموه غرموا الغرامة المترتبة عليه وضمنوا ما سرق. وان كان السارق واحداً من الفئات السالفة الذكر فجزاؤه وسياسته مثل السارق العادي.

نقلاً عن خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني بحوث ووثائق وقوانين.

الملحق(٧)

فرمان صدر عن السلطان سليمان القانوني أثناء وجود القوات العثمانية في جزيرة مالطة

أ- النسخة العربية

تعريب الوثيقة رقم ٨

كتب

أعطي للكتخداء عادل، كتخداء حسن باشا المشار اليه

حكم الى *امير امراء جزائر الغرب*:

نظرا للحاجة الماسة لحفظ وحراسة اطراف جزيرة مالطة فقد امرنا ان تقوم بمهمة حفظ وحراسة أطراف الجزيرة بثلاثين قدرغة من القدرغات الخاصة بسفن اللوند الذين قدموا معك من الجزائر وكذلك كل من هو تحت قيادتك من السفن الجزائرية وامرنا ان تكون على يقظة وبصيرة من امرك وان تقوم ليلا ونهارا على حفظ وحراسة حوالي واطراف الجزيرة المذكورة بالقدرغات المارة الذكر وسفن اللوند وان تشمر عن ساعد الجد فلا تغفل عن استقصاء اخبار العدو والتجسس عليه فتستخبر عما استقرت عليه اراؤهم الكاسدة وخيالاتهم الفاسدة وان لا تتوانى عن ابلاغنا بما اطلعت عليه من الاخبار الصحيحة وان تقوم بهذه المهمة احسن قيام ولاتمكن احدا من الاعداء أن يطرق أرض الجزيرة، وجد وابذل في مثيل ذلك قصارى جهدك. وليقر بقيادتك ويذعن لك كل من في القدرغات والسفن التي وضعت تحت قيادتك سواء في ذلك رؤساء السفن والانكشارية والجند التي تقلهم فيأتمر بامرك وينتهي بنهيك كبيرهم وصغيرهم ووضيعهم ورفيعهم، ينقادون لك ولا يتجاوزون عن قولك والعياذ بالله قيد ذرة، ولك ان تجازي من يعارض ويخالف قولك بما يليق به من جزاء وان تكتب وان ترفع عرضا بما ترى انه يحتاج العرض وأن قولك مسموع وشكاياتك سوف تلقى اذانا صاغية وانها مجدية ومثمرة واننا سنحفو بالعناية ونحقق آمال واحلام كل من شكرت منهم. فاعتبر وجد في دفع كيد الأعداء الملحدين وقمعهم وابذل قصارى جهدك في حفظ وصيانة ارجاء الجزيرة.

يوم الاربعاء في ٢٣ محرم سنة ٩٧٣هـ (٢٥ اب/اوت ١٥٦٥م)

الدفتر نفسه، ص ١١١.

ب- النسخة العثمانية

وثيقة رقم ٨

يازلدي

مشار اليه حسن باشانك كتخداسي عادل كتخدايه ويرلدي

جزاير غرب بكلر بكيسنه حكم كه

حاليا جزيرة مالته اطرافنك حفظ وحراستي هر وجهله لازم ولابد اولمغين خاصة قادرغـه لردن اوتوز پاره قادرغه وجزايردن سنك ايله كلان لوند كميلري وسـايرسـكا تـابع اولان جزاير كميلري ايله جزيرة مذكوره اطرافنك حفظ وحراستني سكا امر ايليوب بيوردوم كه.

بوبابده كمال بصيرت وانتباه اوزره اولوب ذكر اولنان قدرغه لر ولوند كميلرى ايله كيجـه وكوندوزده جزيرة مزبوره نك اطراف وجوانبني اوكات وجهله حفظ وحراست ايليوب واعـدا جانبندن غفلت اوزره اولمايوب دايما فكر فاسد وخيال كاسدلري نه نك اوزرنه اولدوغن تتبـع وتجسس اتدرب هر وجهله اخبار صحيحه الوب بوجانبه اعلام اتمكدن خـالي اولميـه سـز بالجمله باب محافظه ده انواع مساعئ جميلك وجوده كتورب اعـدا جانبـدن جزيـرة مذكـوره يه بر فرد كتورتميوب كلى اقدام واهتمام اوزره اولاسز ومذكور خاصه قدرغه لـر وساير جزاير كميلرينك بالجمله حاليا سكا قوشلان جملـه كميلرك اكر رئيسلري واكر سـاير بولداشلريدر واكر ايچنده اولان عساكر خلقي در وضيعي ورفيعي وصغيري وكبيري سـني بوبابده باش بوغ بلوب هر وجهله امركه متابعت وانقياد ايليوب نعوذ بالله ذره دكلو مخـالفت ومغايرت كوسترميه شويله كه امركه مخالفت وسوزكه مغايرت كوستره لر كناهلرينه كـوره حقلرندن كلوب جزا وسزالرين ويره سن ومحتاج عرض اولاني يازوب بوجانبه بلدره سـن. ومذكورلر خصوصنده شكر وشكايتك هر وجهله مثمر ومؤثردر هر قنغسنك داخـي خدمتـن ويولدا شلغين عرض ايليه سن انواع عنايتمله برمراد ومحصل الامال اولالر اكا كوره مقيـد اولوب اعداي بي دينك دفع رفعنده وجزيرة مذكوره نك حفظ وحراستنده انواع اهتمامك وجوده كتوره سن.

يوم السبت في ٢٨ محرم سنة ٩٧٣هـ (٢٥ اب/اوت ١٥٦٥م)

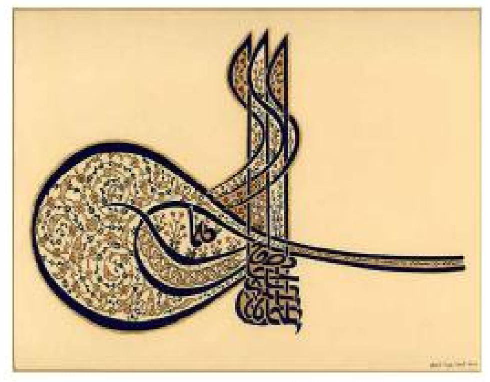
نقلاً عن خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني بحوث ووثائق وقوانين.

الملحق (٨) الصور



السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠- ١٥٦٦م





سيف السلطان سليمان

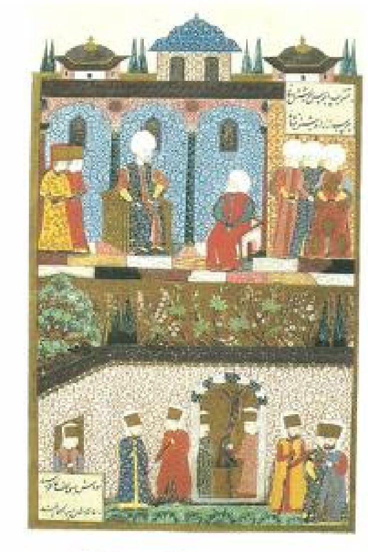
طغراء السلطان سليمان القانوني


سليمان القانوني أو سليمان الأول


روكسلانا


مسجد السليمانية

بربروس خير الدين باشا في مجلس لسلطان سليمان

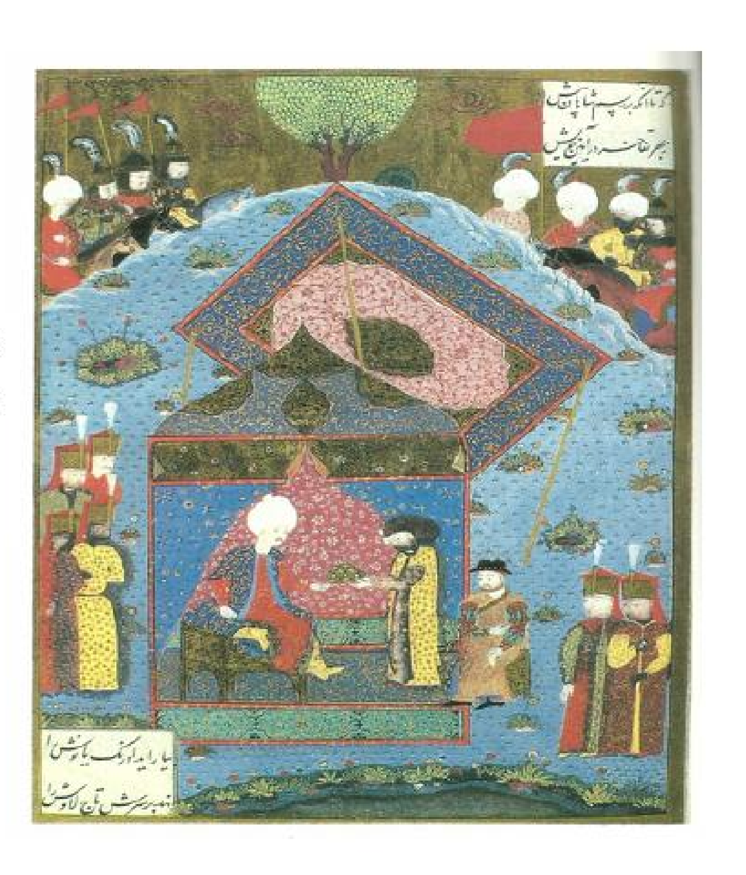


١٤- بربروس خير الدين باشا في مجلس القانوني، من "سليمان نامه" (صورة للفنان عارفي)



١٥- بربارس خير الدين باشا لأحد الرسامين الغربيين

تقديم تاج مملكة المجر للسلطان سليمان القانوني بعد فتحه لها



نقلاً عن أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً- الوثائق غير المنشورة:

أرشيف رئاسة الوزراء، سجلات الديوان الهمايوني، سجل رقم ٣٧٥.

ثانياً- المصادر العثمانية :

١- آصف، يوسف بك ، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٥م.
٢- بجوى باشا، تاريخ بجوى، ستة أجزاء، استنبول،١٣٣٧هـ،ج١.
٣- جودت باشا ،أحمد ، تاريخ جودت،١١جزءاً، ١٣٠٨ هـ ،ج١.
٤- جلبي، أولياء، وقعة نويس، استنبول، ١٣١٨هـ .
٥- رفيق،أحمد، عثمانلي تاريخي،٦أجزاء، استنبول، ١٣٢٧هـ، ج٣.
٦- صولاق باشا، تاريخ صولاق،٤أجزاء، استنبول، ١٣٢٣هـ ، ج٣.
٧- عطا باشا، تاريخ عطا،٦ أجزاء، استنبول، ١٣٠٣هـ.
٨- لطفي باشا، تواريخ آل عثمان، ٦أجزاء، استانبول، ١٣٤١م.
٩- مراد، أحمد، عثماني تاريخي،٦ أجزاء، استنبول، ١٣٣٤هـ، ج٣.
١٠-نور، رضا، عثماني تاريخي،٨ أجزاء، استانبول، ١٩٢٤م، ج٢.

ثالثاً- المصادر العربية :

١- ابن أجا، محمد بن محمود الجلبي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير.
٢- ابن زنبل، أحمد الرمال، آخرة المماليك/٩٦٠هـ/١٥٥٢م/، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦٢م.
٣- ابن طولون، محمد بن علي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، نشره محمد مصطفى،القاهرة،١٩٦٢م.
٤- أرسلان، شكيب ، تاريخ الدولة العثمانية، جمع أصوله وحققه حسن السماحي سويدان، بيروت ،دارابن كثير، ط١،٢٠٠١م.

٥- جاويش، سليمان بن خليل بن بطرس ، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥م.

٦- حليم، إبراهيم بك ، تاريخ الدولة العثمانية العلية التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العثمانية، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٨٨م.

٧- الخوري، أمين، القانون الأساسي، بيروت، مطبعة الآداب، ١٩٠٨م.

٨- الدوادار، يشبك بن مهدي ، صنعة محمد أحمد دهمان، دمشق، دار الفكر،ط١، ١٩٨٦م.

٩- زاده، طشكبيري، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية.

١٠- زيدان، جرجي، مصر العثمانية، تحقيق د. محمد حرب،بيروت، دار الهلال، ١٩٩٤م.

١١- سرهنك، الميرالاي اسماعيل، تاريخ الدولة العثمانية، تقديم ومراجعة حسن الزين، بيروت، دار الفكر الحديث،١٩٨٨م.

١٢- الإشبيلي، ابن محمد اللخمي، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس أرسنت، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م.

١٣-المحامي، محمد فريدبك، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق احسان حقي، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٨١ م.

١٤-مجموعة من المؤلفين، عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الاقطار العربية، دمشق، المطبعة الهاشمية ، ط٢، ج٢.

رابعاً – المراجع العربية :

١- أباظة، فاروق عثمان، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨م، المكتبة العربية،دط، ١٩٨٦م.

٢- أبو زيدون، وديع، تاريخ الإمبراطورية من التأسيس إلى السقوط عمان،الأهلية للنشروالتوزيع، ط١، ٢٠٠٣م.

٣- أبو غنيمة، زياد ، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك،عمان، دارالفرقان للنشر، ط٢، ١٩٨٦م.

٤- برجاوي، سعيد أحمد ، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، بيروت، الأهلية للنشروالتوزيع، دط، ١٩٩٣م.

٥- بركات، مصطفى ، الألقاب العثمانية من خلال الوثائق والمخطوطات (١٥١٧-١٩٢٤م) القاهرة، دار الغريب، دط،٢٠٠٠م.

٦- جمعة، بديع – الخولي أحمد ، تاريخ الصفويين وحضارتهم، القاهرة، ١٩٦٧م.

٧- حرب، محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دمشق، دار القلم،ط٢، ١٩٩٩م.

٨- حسون، علي ، تاريخ الدولة العثمانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٤، ٢٠٠٢م.

٩- الحويري، محمود محمد، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، القاهرة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ط١، ٢٠٠٢م .

١٠- رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م، دمشق، ط١، ١٩٧٤م.

١١- رافق، عبد الكريم، المشرق في العهد العثماني، دمشق، مطبعة المدينة، ط١٩٩٩،٧م.

١٢- رافق، عبد الكريم ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ط٢، ١٩٦٨م.

١٣- رمضان، عبد العزيز، تاريخ أوروبا والعالم الحديث من ظهورالبرجوازية إلى الحرب الباردة،٢ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م .

١٤- السيد، محمود محمد، تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، دط، ٢٠٠٠م

١٥- شلبي، أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٩٨٦م.

١٦- الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها،٢ج، القاهرة، مكتبة الأنكلو المصرية.
١٧- الصباغ، عباس اسماعيل، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، بيروت، دار النفائس، ط١٩٩٩،١م.
١٨- الضيقة، حسن، الدولة العثمانية الثقافة المجتمع والسلطة، بيروت، دار المنتخب العربي، ط١، ١٩٩٧م.
١٩- طقوش، محمد سهيل ، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، بيروت، دار النفائس، ط٢، ٢٠٠٨م.
٢٠- العطار، عدنان، الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط، دمشق، دار وحي القلم، ط١، ٢٠٠٦م.
٢١- العيدروس، محمد حسن، السياسة العثمانية اتجاه الخليج العربي، أبو ظبي، دار المتنبي للطباعة والنشر، ط١، دت.
٢٢- عامر، محمود علي، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، دمشق، دار الرحاب، ط١، ٢٠٠١م.
٢٣- عامر، محمود علي، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، دمشق، دار الصفدي، ط١، ٢٠٠١م.
٢٤- عامر، محمود علي، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق، دار الصفدي، ط١، ٢٠٠٣م.
٢٥- عامر، محمود علي، تاريخ المغرب العربي الحديث" الجزائر وتونس"، مطبعة قمحة إخوا ن، ط٣، ٢٠٠١م.
٢٦- عامر، محمود علي، فارس، محمد خير، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى- ليبيا)، دمشق، منشورات جامعة دمشق،١٩٩٩م.
٢٧- عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن، فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للشباب،١٩٩٠م.
٢٨- عطا، زبيدة، بلاد الترك في العصور الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي، دط، د ت.
٢٩- فواز، عبد العزيز سليمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي، دت.
٣٠- قازان، نزار، سلاطين بني عثمان بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط١،١٩٩٢م.

٣١- محمد، عبد الرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها،القاهرة، ١٩٦٥م.
٣٢- محمد، نجاح ، تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث، دمشق، مطبعة المحبة، دط ٢٠٠٣م.
٣٣- المصري، حسين مجيب، صلات بين العرب والفرس والترك، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ط١، ٢٠٠١م.
٣٤- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة ، دار الشروق ط٢، د ت.
٣٥- مصطفى، نادية محمود، العصر المملوكي (تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية)، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م.
٣٦- مؤنس، حسين،الجارية روكسلانة تتزوج السلطان سليمان القانوني، الإسكندرية، دار ومطابع المستقبل، د ت .
٣٧- نوار، عبد العزيز، تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.
٣٨- هريدي، محمد عبد اللطيف، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا،القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط١،١٩٨٧م.
٣٩- ياغي، اسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث،مكتبة العبيكان، ط٢، ١٩٩٨م.

خامساً- المراجع الأجنبية المترجمة :

١- التر، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ٢ج، ت: محمود علي عامر، بيروت، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٩م، ج١.

٢- التر، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية،٢ج ت: الحاج عبد السلام أدهم، بيروت، ١٩٦٩م، ج٢.

٣- إنالجيك، خليل،تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ت محمد م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

٤- أوزتونا، يلماز، المدخل إلى التاريخ التركي،٢ج، ت: أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، ط١، ٢٠٠١م.

٥- أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ٢ج، منشورات مؤسسة الفيصل لتمويل، استانبول،١٩٨٨م.

٦- أوزجان، مصطفى، سليمان القانوني، استنبول، ١٣٣٤هـ.

٧- أوغلي، خليل ساحلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني(بحوث ووثائق وقوانين)، استنبول، مركز الأبحاث لتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠٠م.

٨- أوغلو، أكمل الدين إحسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح السعداوي،٢ج،استنبول،مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول،١٩٩٩م.

٩- أوغلو، مدحت سرت ، التاريخ العثماني المصور، أنقره، ١٩٥٨م.

١٠- باربارو، نيقولو، الفتح الإسلامي للقسطنطينية (يوميات الحصار العثماني)١٤٥٣م، ت: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، ط١، ٢٠٠٢م.

١١- بروكلمان، كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية، ت: نبيه أمين فارس- منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٦٥م.

١٢- بيتروسيان، إيرينا، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر بالمركز، دبي، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، ٢٠٠٦م.

١٣- ترامب، هارلود، سلطان الشرق العظيم سليمان القانوني، ت: شكري نديم، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٧م.

١٤- تولينشتي، فريدون، عشق السلاطين، بيروت، دار الروائع، د ت.

١٥- ريمون، اندريه، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ت: لطيف فرج، القاهرة، دار الفكر للدراسات، ط١، ١٩٩١م.

١٦- زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، بيرق، دار الرائد العربي، ١٩٨١م.
١٧- كلو، أندري، السلطان سليمان القانوني، تعريب محمد الرزقي، تونس، دار التركي للنشر، د.ط، ١٩٩١م.
١٨- كوبريللي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ت:أحمد السيد سليمان، القاهرة، ١٩٦٨م.
١٩- كوليس، باول، الاندفاع العثماني في أوروبا، ت: يوسف نعيسة وسليمان الحاج محمد، دط.
٢٠- كوندز، أحمد آق - أوزتورك، سعيد ، الدولة العثمانية المجهولة، استانبول، مكتبة amro turan، ٢٠٠٨م.
٢١- لويس، برنارد، استانبول حضارة الخلافة الاسلامية، تعريب سيد رضوان علي، الدار السعودية، ط٢، ١٩٨٢م.
٢٢- مانتران، روبير، تاريخ الدولة العثمانية،٢ج، ت: بشير السباعي، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٣م،ج١.

سادساً- المراجع الفارسية :

١- جعفري، حسين مير، زندكاي القاص ميرزاي صفوي، مجلة بررسيهاي تاريخي، شماره ٥، تهران، سال يازدهم.

٢- دوست، منوجهر بارسا ، زمينه تاريخي اختلافات إيران وعراق، تهران، ١٣٦٤هـ ش.

٣- مهدوي، عبد الرضا هوشنك، تاريخ روابط خارجي ايران، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، ١٣٦٩هـ،ش.

سابعاً - الرسائل المنشورة :

١- إبراهيم، علي محمد، النظم الإدارية في الدولة العثمانية ١٥٢٠-١٦٨٧م (دراسة وثائقية تحليلية)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ الدولة العثمانية، إشراف أ، د محمود علي عامر، ٢٠٠٧م .

٢- عباس صباغ ، العلاقات العثمانية الصفوية ٩٠٧-١١٤٨هـ/١٥٠١-١٧٣٦م، رسالة أعدت لنيل شهادة الدكتوراة، إشراف د حسان حلاق، بيروت، ١٩٩٦م.

ثامناً- المراجع التركية :

1- ismail Hakki UZUN ÇARŞILI,sarag teskilati,ankara,1987.
2- İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI , OSMANLI TARİHİ ,3BASKİ, ANKARA, TÜRK TARİHY KURUMU BASIMEVİ, 1975 .
3- midhat Sert Oglu,resimli Osmanli Tarihi, Ankara,1983.
4- Yavuz Bahadir Oglu,Kanuni Sultan Suleyman,Istanbul,2009.
5- zeki Velidi Togan, Umumi Tarihi, Istanbul, 1981.

تاسعاً- المراجع الأجنبية :

1- Colin Imber,The Ottoman Empire 1300-1650,new yourk,2002 .
2- David Nicolle, Angus Mcbride, Armies of the Ottoman Turks 1300-1724.
3- Miriam Greenblatt, Suleyman The magnificent and The ottoman Empire, new York,2003.
4- N.iorga, voyageurs français dans l'orient,
5- Patrick Kinross, The ottoman centuries(the rise and fall of the Turkish empire,new York.
6- S.n.fisher , a history of the middle east, New York, 1959.

عاشراً- انترنت :

1. Assemblea di Wikimedia di italia, Guerra ottoman-asburgica, Pistoia, 20,marzo,2010

2. Impero ottoman, all about turkey – burak sansal,23,2, 2010.